ب . ترافن

سفينة الموتى

رواية



26.8.2015

الترجمة عن الألمانية والتقديم

إقبال القزويني



منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

رواية

ب. ترافن

سفينة الموتى

«حكاية بحار»

الترجمة عن الألمانية والتقديم

إقبال القزويني




سفينة الموتى

هذه هي الترجمة الكاملة لـ LOD MRTVYCH

سفينة الموتى

«حكاية بحار»

ب. ترافن

B. Traven

ترجمتها عن الألمانية : إقبال القزويني

الطبعة العربية الأولى: 2014



أزمنة للنشر والتوزيع

info@azminah.com

Tel:+9626 5522544

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

editions.difaf@gmail.com

بيروت - لبنان

Tel:+9613223227

Tel:+96650933772

لوحة الغلاف: Zdzistaw Beksinski (بولندا)

تصميم الغلاف : أزمنة (إلياس فركوح)

التنضيد والإخراج الداخلي: أزمنة (نسرين العجو)

تاريخ الصدور : كانون الثاني/ يناير 2014

ترافن، لغز الحرية

رغم كثرة الكتب والدراسات والأطروحات فإن الحصول على معلومات واضحة وجازمة حول المؤلف ب. ترافن يظل مهمة صعبة، إذ حرص الرجل في حياته على عدم إجابة الأسئلة التي تتعلق بشخصه وحياته، ومازال الباحثون المعنيون ومؤرخو الأدب حتى اليوم غير متأكدين تماماً من حقيقة اسمه وتاريخ ومكان مولده! لذا، لا سبيل سوى الاعتماد على التكهنات والاجتهادات التي وردت في الكتب الكثيرة التي حاولت أن توثّق مسيرة الرجل وحياته، والتي تقول أنه ألماني - حيث ظهر اسمه لأول مرة في الصحافة الألمانية عام 1927 باعتباره كاتباً ألمانياً، الأمر الذي اعترض عليه بشدة ورفض اعتباره واحداً منهم! فقد تنكّر ترافن لجنسيته وانتمائه القومي فوفّر للصحافة في حينها مادة خصبة للإشاعات والأقاويل وحتى الأساطير، كما يؤكد مؤلف كتاب «ترافن، سيرة ذاتية» رولف ريكناغل الذي يقال عنه أنه المختص الوحيد الذي أثبت بالدليل أن ريت ماروت، الفوضوي الألماني والممثل المسرحي، هو نفسه الكاتب ب. ترافن. لكن هناك من يقول إن ريت ماروت هو بدوره اسم مستعار لشخص يدعى أوتو فايغه.

مؤرخو الأدب يتفقون في الأقل على أن ترافن غادر أوربا عام 1927 إلى المكسيك حيث عاش معظم سني حياته، وكتب فيها إثني عشر رواية والعديد من القصص، إلى أن وافته المنية هناك في السادس والعشرين من آذار/مارس 1969.

من بين أشهر رواياته «سفينة الموتى» التي صدرت بأصلها الألماني في برلين عام 1926، وقد ترجمت لاحقاً إلى ثمانية عشر لغة بالإضافة إلى

رواية معروفة أخرى هي «كنز السييرا مادرا» التي تحولت عام 1948 إلى فيلم سينمائي من إخراج جون هيوستن وقام ببطولته همفري بوغارت. هذا إلى جانب تأليفه مجموعة مكوّنة من ست روايات متتالية صدرت بين الأعوام 1930 و1939 تدور أحداثها حول الثورة المكسيكية مطلع القرن المنصرم. عموماً حظيت أعمال ترافن بشعبية كبيرة في الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية وظلت محتفظة بزخمها في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية.

بطل روايته «سفينة الموتى» هو البحار الشاب الأميريكي جيرالد غايل الذي أضاع أوراقه الثبوتية وفقد بذلك هويته وحقه بحياة طبيعية، بل وحقه في الوطن! ومن هذه الزاوية يمكن فهم الرواية على أنها صرخة غضب وإدانة للبيروقراطية في أجهزة الدولة، كما أنها جعلت من قضية عدم امتلاك الفرد لورقة تثبت جنسيته محوراً عقدياً تدور حوله أحداث وشخوص العمل إلى النهاية.

فرضية أن الثائر اليساري ريت ماروت هو حقاً الكاتب ترافن تدعمها بعض الدلائل والتشابه بين حياة ومصير بطل روايته «سفينة الموتى» ومصيره هو في انسلاخه عن وطنه وتغرّبه عنه.

تحولت «سفينة الموتى» بدورها إلى فيلم سينمائي ألماني عام 1959، لكنه لم يفلح أو لم يشأ الاقتراب من جوهرها. ما يزال الكتاب يطبع ويباع في ألمانيا وخارجها.

سفينة الموتى، رحلة الانعتاق

رغم تصريح للكاتب أدلى به عام 1926 لمجلة أدبية صادرة عن دار نشر بويشيرغيلده غوتينبيرغ العريقة، أكد فيه أنه برواية «سفينة الموتى» إنما أراد

سرد حكاية مسلّية مستوحاة من أحداث حقيقية موحياً انه لم يبذل جهداً في صياغتها أو بنائها الروائي، لكن نقاد الأدب لا يتفقون معه، بل إنهم يرون أن ترافن بذل جهداً استثنائياً في بناء روايته هذه لاسيما ما اعتمده من أسلوب متفرد حين قام بتقسيمها داخلياً إلى ثلاثة كتب ـ وهي سابقة غريبة يقول النقاد انه استلهمها من دانتي حين كتب ذاك جحيمه في «الكوميديا الآلهية» التي جاءت منتظمة في ثلاثة أمكنة: الجحيم والمطهر والفردوس. بدوره قسّم ترافن روايته إلى ثلاث أمكنة، ثلاث سفن: التوسكالوزا، اليوريكه ثم امبراطورة مدغشقر.

رواية «سفينة الموتى» المهتدية بالتقسيم المكاني الثلاثي للكوميديا الآلهية تكتسب خصوصيتها أيضاً من خلال تلميحات واضحة في ثلاث مواضع مستوحاة من الأناشيد التي تصف جحيم دانتي. ففي الكتب الثلاث لرواية ترافن ينهي المؤلف الكتاب الأول بهذه الأبيات:

من يمر عبر هذا الباب

سيمحى اسمه ورسمه

وهو سيزول

الكتاب الثاني للرواية يبدأ بتكرار الأنشودة الوعيد ذاتها، حيث يراها الراوي منقوشة في أعلى المكان الذي يضم مهاجع البحارة. ثم، وبشكل مختلف قليلاً، يختتم بها الكتاب الثالث والرواية التي تبقى نهايتها مفتوحة كما البحر حيث الرواي، البحار الشاب، يطفو على لوح لفظته السفينة الثالثة «إمبراطورة مدغشقر» قبل أن تغور إلى العمق وتغرق. لكن ترافن لا يجعل الموت خلاصاً بمعناه الديني، كما في الكوميديا الآلهية؛ فالموت عنده هو الخلاص من العوز والاضطرار ونهاية للعذابات الناتجة عن تسلط الآخرين على مقدرات الفرد ومصيره؛ ولذا فإن حزنه وهو يودع رفيقه ستانيسلاف وهو يختفي أمام بصره هو بمثابة تصالح وانعتاق.

حتى على صعيد بناء الشخصية الأساسية في الرواية، أي البحار غايل الذي هو الراوي في ذات الوقت، فإن نقاد الأدب يفندون إدعاء ترافن بأنه لم يأبه للبناء الفني لبطله وأن ما تفوّه به هذا كان سردا عفوياً لحدث حقيقي. في هذا الخصوص فإن الأكاديمية الألمانية الدكتورة كريستينا هوهنشوبه، المتخصصة في الأدب الألماني والدراسات الرومانية في جامعة سارلاند، تسلّط الضوء على التمايز وقلّة التطابق بين صوتين مختلفين يعودان لشخص واحد؛ صوت البحار الشاب الساذج وصوت الرواي المعلّق؛ فهذا ناقد ذكي. وهي بذلك تؤكد قدرة المؤلف على الحفاظ على التماسك والترابط والمنطق والمصداقية للصوتين رغم التناقض الظاهر بينهما، أي بين السذاجة والوعي النقدي.

«سفينة الموتى» مرثاة لمفهوم الحرية الغربية التي هي، رغم كونها إبنة التنوير والثورة الفرنسية، لكنها باعتبارها في الأساس حرية لحركة رأس المال، فإن مفاهيم مثل المساواة والأخوّة تصبح هامشية وقابلة للتساؤل والشكوك بالنسبة لترافن في الأقل.

في النهاية لا يبقى أمامنا إلا أن نسلّم أن ترافن كان يسعى، ربما عبثاً، وراء حرية من نوع آخر في عالم طوباوي وجد الجرأة على الحلم به والدعوة إليه عبر أدبه جهاراً، حرية لا تتعارض مع مبدأ العدالة أو مع ما ينادي به من مبدأ للأخوّة - إذ ليس من قبيل الصدفة أنه ينهي روايته حيث البحار الشاب يودّع رفيقه ستانيسلاف الذي ضاع أمامه منادياً أياه **يا أخي**.

سبب اختياري لهذا الكتاب هو أني رأيت أن هذه الرواية صالحة لكل الأزمان، وأنها لم تفقد واقعيتها بل ربما العكس؛ فموضوعها بات اليوم أكثر حيوية والحاحاً حيث الملايين من البشر في أصقاع العالم المختلفة تبحث عن هوية وعن وطن وعن عدل. ورغم أن مشروع الترجمة قديم جداً لكنه لم يتحقق سوى الآن. في البدء كانت بين يدي نسخة للرواية صادرة عام 1979 عن دار فولك اوند فيلت في ألمانيا الديمقراطية والتي احتفظت بالتصميم الأصلي،

كما تشير إليه ملاحظة على غلافها الداخلي، للنسخة الأولى الأصلية الصادرة عام 1926 عن دار بوشيرغيلده وثم عن نفس الدار لاحقاً في زيورخ عام 1929. لكني فضلّت، بعد المقارنات، اعتماد الطبعة الصادرة عن دار روفولت في هامبورغ عام 2006 والتي هي نفسها طبعة 1954 الصادرة عن نفس الدار. كما تجدر الاشارة أيضاً إلى أني استعنت، بهدف المقارنة والاستيضاح في بعض المواضع، بالطبعة الانكليزية الثانية الصادرة عام 1991 عن دار لورنس هيل بوكس في نيويورك وهي نفسها ترجمة ترافن الصادرة عن دار آلفريد كنوبف للعام 1934 والتي صدرت ثانية لاحقاً في العام 1962 بعد أن أدخل تعديلات جديدة عليها. وعن هذا الشأن أرى انه لابد من الإشارة إلى بعض الحقائق التي تتعلق بالطبعات المختلفة للرواية، سيما وأن المختصين منشغلون حتى اليوم بدراسة التغييرات المتعددة التي أجراها المؤلف نفسه على نص الرواية الأصلي، والتي تجاوزت تصحيح الأخطاء الطباعية والنحوية وتحسين الصياغة اللغوية، وأيضاً لمعرفة مدى علاقة تلك التغييرات بالمستجدات آنذاك وما يمكن أن تقدمه من إجابات عن الصيرورة الإبداعية والشعرية لترافن ووعيه لذاته ككاتب.

وفي سعيهم للعثور على أجوبة، وجد المعنيون أن أفضل سبيل لذلك هو دراسة طبيعة التغييرات التي شهدتها المخطوطة الأصلية كما فعل غونتر دامان في كتاب صادر عن دار كونيغيسهاوزن اوند نويمان في فورتسبورغ عام 2012، يضم سبع دراسات ضافية لباحثين وأكاديميين من جنسيات مختلفة كانت قدمت في مؤتمر عالمي متخصص حول ترافن وأعماله نظمته في أيلول/سبتمبر 2003 مؤسسة أرشيف الأدب الألماني في مارباخ، مسقط رأس شيللر.

تقول الباحثة الأكاديمية في جامعة بريمن، غالينا بوتابوفا، في دراستها المنشورة في الكتاب المذكور، أن طبعة أعمال ترافن كما أصدرها الناشر ادغار بيلسر في السنوات من 1977 حتى 1982 لم تسهّل مهمة الباحثين بل زادتها

تعقيداً لأنه حين يقارن المرء بين رواية «سفينة الموتى» الذي نشرها بيسلر وبين نسختها الأولى للعام 1926 يجد فرقاً كبيراً وجلياً بينهما. ثم إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار، هكذا تقول بوتافوبا، أن محرري طبعة بيسلر لم يكلّفوا أنفسهم عناء شرح التغييرات والتعديلات التي أجروها على النص ولم يتطرقوا ولو بتنويه بسيط إلى تسمية النص الروائي الذي اعتمدوه كأساس لعملهم؛ فكان من شأن ذلك تعقيد مهمة الباحثين وإضافة لعملهم أسئلة أخرى عكس ما كانوا يرجونه.

منذ ظهور الطبعة الأولى نهاية نيسان/ابريل 1926 في برلين عن دار بوشيرغيلده وحتى عام 1933، بعد أن كانت الدار نقلت مركزها إلى زيورخ، كانت كل الطبعات الخمس التي صدرت تباعاً خلال فترات زمنية قصيرة لم تتجاوز الشهور، كانت كلها تعود لنص الرواية بصيغته الأصلية. ورغم ذلك كانت أعمال التصحيحات مستمرة للأخطاء الطباعية والنحوية أو تحسين صياغة جملة هنا وهناك. وفي هذا الصدد تقول بوتابوفا إن من شأن أية دراسة علمية دقيقة نقدية شاملة للنص تريد كشف الفوضى والأغلاط كلها، سواء الموجودة أصلاً أو تلك تستجد مع كل إعادة طبع، من شأنها أن تحيل حياة ذلك الباحث المختص المفترض إلى جحيم حقيقي. غير أن كل تلك التصحيحات والتحسينات لم تشكلّ سبباً للاعتقاد أننا أمام نص جديد تماماً للرواية. عموماً يمكن القول إن العوامل العديدة غير المتجانسة تركت بصماتها على النص إبان الثلاثينيات، كالترجمة مثلاً إلى لغات أخرى وسياسة سوق الكتب لأدب المنفى الألماني خلال الحقبة النازية. ففي عام 1934 صدرت طبعتان انكليزيتان للرواية متزامنتان. الأولى صدرت في لندن يمكن وصفها بالترجمة الطبيعية قياساً لقربها من الأصل. أما الثانية فقد صدرت في نيويورك عن دار نشر آلفريد كنوبف، قام بها ترافن بنفسه وبإشراف لغوي من محرّر الدار. هذه الطبعة الأمريكية احتوت، ضمن تعديلات أخرى، على فصلين إضافيين حيث بدا أنه رغم اعتماد المؤلف على نصه الأصلي منطلقاً للترجمة إلا أنه

وجد نفسه حراً في الإضافة والتغيير وإعادة الصياغة. وحين انتقلت دار بوشيرغيلده إلى زيورخ قامت بنقل الترجمة الأمريكية إلى الألمانية؛ أي إعادتها إلى لغة المخطوطة الأصلية ونشرتها عام 1940.

لكن باختصار يمكن القول إن طبعات الرواية التي تلت في زمن حياة المؤلف ما عادت تشهد تعديلات تستحق الذكر باستثناء تصحيحات وتحسينات تعد طفيفة نسبياً ورغم أن ترافن أبلغ الناشرين عن رغبته في إدخال المزيد من التحسينات، غير أن دور النشر لم تأخذ بها ماعدا استثناءات هامشية قليلة لا تستحق الاهتمام.

في رسالة لا يعرف مصيرها حالياً، بعث بها ترافن إلى دار نشر روفولت في العام 1961 تقول بوتابوفا إنها اطلعت عليها في الماضي، فان المؤلف يبلّغ فيها الدار بأن الرواية من الآن فصاعداً ستظهر بصيغتها في المخطوطة المرفقة مع الرسالة والتي تضمنت تغييراً لختام الكتاب الأول (حيث الرواية مكونة من ثلاثة كتب كتقسيم داخلي) لكن دار روفولت لم تأخذ بالمقترحات اللاحقة التي أرادها ترافن في الطبعة التي صدرت في العام 1962 بل التزمت بدلاً من ذلك بتعليمات دار نشر بوشيرغيرلده التي تعود للعام 1960، وظل هذا النهج سارياً على كافة الطبعات التي تلت.

أما الرواية التي تضم الخاتمة المختلفة للكتاب الثالث فلم تصدر سوى في العام 1963، وبرخصة جديدة في فيينا عن دار نشر نمساوية، حيث اعتمدت النص الذي أرسله ترافن إليها من المكسيك.

ب. ترافن تلك الروح القلقة المعذّبة هو اسم مستعار تتوارى خلفه واحدة من أعظم قامات الأدب الألماني في القرن العشرين.

المترجمة

برلين في نيسان 2013

الكتاب الأول

أغنية بحار أمريكي

كفّي عن البكاء يا حبيبتي

أيتها الناطرة في دوّار جاكسون

في نيوأورلينز المشمسة

في لويزيانا الجميلة

حبيبتي تظنني مدفوناً في البحر

لم تعد تنتظر عودتي

إلى نيوأورلينز المشمسة

في لويزيانا الجميلة

لكني لست في قاع البحر

بل ممدداً في سفينة الموت

لا شيء أنتظره

ضاع كل شيء

بعيداً عن نيوأورلينز المشمسة

بعيداً بعيداً عن لويزيانا الجميلة

1

كنا قد نقلنا حمولة كبيرة من القطن على متن سفينتنا أس. أس. توسكالوزا من نيوأورلينز إلى ميناء انتويرب البلجيكي. كانت سفينة رائعة. اللعنة، حقاً كانت كذلك. سفينة بخارية من الطراز الأول، صنع الولايات المتحدة، الميناء الأم في نيوأورلينز. أيتها الضاحكة المشمسة يا نيوأورلينز لا تشبهين غيرك من المدن الباهتة للبيوريتانيين الباردين وتجار القطن المتحجرين. كم هي رائعة مهاجع البحّارة. أخيراً، أدرك أحد بناة السفن بأفكاره الثورية أن البحّارة بشر في النهاية وليسوا مجرد أيادٍ تعمل. كل شيء نظيف ولطيف، حمام وشراشف وأغطية نظيفة بل أن كلّ شيء في منأى عن الحشرات. الطعام كان جيداً ووفيراً. الأطباق والسكاكين والملاعق والأشواك دائماً نظيفة ومجلية حيث تسهر على ذلك مجموعة من الصبية الزنوج لا همّ لها سوى الحفاظ على نظافة المكان وترتيبه مراعاة لصحة البحّارة ومزاجهم. يبدو أن الشركة قد اقتنعت أخيراً أن فريق بحّارة رائق المزاج يؤدي عمله خيراً من فريق يعاني من الإهمال.

الضابط الثاني؟ لا يا سيدي، لم أكن الضابط الثاني على سطح ذلك الدلو. كنت عاملاً، مجرد عامل بسيط على ظهر تلك السفينة. انظر يا سيدي، لم يعد هناك الكثير من البحّارة في هذا الزمن ولم تعد هناك حاجة لهم ولذا فإن باخرة نقل حديثة لم تعد كذلك بالمعنى الحقيقي بل أصبحت عبارة عن ماكنة عائمة.

إن خدمة ماكنة عائمة من قبل بحّارة هو أمر لا تصدقه أنت نفسك حتى لو كنت غير مُلّم بأمور السفن. من تحتاجهم هذه الماكنة هم العمال والمهندسون بل إن القبطان نفسه هو اليوم أقرب إلى المهندس منه إلى البحّار. أما الرجل الذي كان يقف على دفة السفينة يمسك بها ويحرّكها، هذا الذي ظل الناس زمناً طويلاً ينظرون إليه على انه بحّار لم يعد كذلك فما عليه الآن سوى أن يضغط على أزرار أو يحرّك عتلات صغيرة من شأنها تحديد وجهة السفينة. لقد انتهى العهد الرومانسي لقصص وروايات البحر منذ زمن طويل.

أنا شخصياً لم أصدق يوماً بوجود تلك الحكايات الشاعرية، لا على متن السفن الشراعية ولا في البحر قاطبة. لم تكن تلك القصص سوى من نسج خيال الكتّاب الذين طالما كانت قصصهم تغرّر بشاب ساذج ما وتقوده صوب حياة وبيئة تأتي على قوة بدنه وتحطم نفسيته، لا لشيء سوى أن ذلك الفتى لم يجلب معه غير إيمانه الطفولي بصدق ما كان يقرأه من قصص أولئك الكتّاب. ممكن أن يكون القبطان والربّان قد عاشا بعضاً من الرومانسية في زمن ما ولكن هذا لم يحدث قط للطاقم. لم تكن تلك الرومانسية تعني في واقع الأمر للعمال شيئاً غير العمل الشاق والمعاملة السيئة للغاية. أنت قد ترى شخصية القبطان والربان في عروض الأوبرا وفي الروايات وفي الأغاني، أما التغني بالأبطال الذين يؤدون العمل فعلاً فلا وجود له. ولو وُجدت مثل تلك الأغنية لكانت قاسية جداً على وجدان من يغنّيها. نعم يا سيدي، لم أكن سوى عامل بسيط على سطح المركب، هذا كل شيء. عامل يقوم بكل الأعمال المفروضة. وتوخياً للدقة فقد كنت عامل طلاء. الماكنة كانت ستسير لوحدها بكل الأحوال، ولأنه كان يجب إشغال العمال بعمل ما، ولأن لا عمل من نوع آخر يمكن أداؤه إلا ما ندر جداً، أي حين لا تكون هناك حاجة لتنظيف المخازن أو تصليح شي مكسور فلا يبقى سوى الطلاء من الصباح وحتى المساء. لا شي غير أن نطلي ونطلي. ولم يكن هذا العمل لينتهي، فهناك على الدوام شيء يستوجب الطلاء.

عندما يتبصر المرء ملياً بعملية الطلاء المتواصلة ليل نهار يكتشف حقيقة مفادها أن كل البشر الذين لا يذهبون للعمل في البحر إنما لا يقومون بشيء آخر على اليابسة غير تحضير الأصباغ وصنع الطلاء، وسرعان ما يشعر الإنسان بالامتنان العميق لكل أولئك الناس الذي يقومون بذاك العمل لأنهم لو توقفوا يوماً عن ذلك فماذا يبقى لعامل الطلاء ليشغله، ولوقع المسؤول عنه في حيرة من أمره. فماذا سيتبقى له ليأمر به العامل؟ ثم كيف يمكن للعامل أن يحصل على أجره دون أن يؤدي شيئاً؟ لا يا سيدي هذا لا يجوز. الأجر لم يكن مرتفعاً، لا أستطيع ادعاء ذلك ولكن لو أنني ما أنفقت من أجري ولا بنساً واحداً على مدى خمس وعشرين سنة متتالية وكنت قد ادخرته طوال تلك الفترة ولم أترك العمل يوماً واحداً لأصبحت قادراً، لا ليس على التقاعد بعد مرور تلك السنوات، وإنما لو واصلت العمل الدؤوب والادخار المستمر لخمس وعشرين سنة أخرى لغدوت، وببعض الفخر، في عداد الفئة الدنيا من الطبقة المتوسطة، ولأصبح بامكاني الانتماء إلى تلك الفئة التي تستطيع أن تتنفس الصعداء وتقول: الحمد لله لقد وُفّقت في ادخار بعض المال لليوم الأسود. ولما كانت هذه الفئة النجيبة هي التي تشكل قاعدة الدولة وأساسها فسيمكن اعتباري عضواً ثميناً في المجتمع الإنساني. لا شك أن تحقيق هذا الهدف يستحق خمسين عاماً من العمل المتواصل والادخار، وهكذا يكون المرء قد ضمن آخرته وضمن حياة الآخرين.

لم أكن راغباً في رؤية المدينة، فأنا لا أحب انتويرب، فهي مدينة تعج بالعاهرات والبحّارة السيئين ونماذج بشرية بائسة أخرى. أي نعم يا سيدي. لكن الحياة لا تجري بيسر بل إنها نادراً ما تلقي بالاً لما يريده المرء أو ما لا يريده. ليست الصخور الكبيرة هي التي تُحدد شكل وطبيعة العالم وإنما تفعل ذلك الحصى الصغيرة وذرات التراب.

لم نحصل على حمولة ننقلها وكان علينا أن نعود أدراجنا ونحن لا نحمل على

ظهر السفينة سوى الثقل الضروري لتوازنها. ذهب البحّارة كلهم إلى المدينة ليقضوا فيها آخر مساء لهم هنا قبل أن نقفل راجعين. بقيت وحيداً ثم أصابني السأم من القراءة وتعبت من النوم ولم أعرف ماذا أفعل بوقتي وبنفسي. كنا قد أنهينا عملنا ذلك اليوم في منتصف النهار وتم تقسيم ساعات الحراسة لرحلة العودة ولهذا قرر البحّارة النزول إلى المدينة ليشتروا ما لا يمكن شراؤه عندنا في البلاد بسبب الحظر المبارك[1]. تمشيت قليلاً على ظهر المركب ثم عدت إلى مهجعي وداهمني ضجر وإعياء من طول النظر إلى منشآت الميناء المملّة والمخازن والمستودعات والمكاتب الصغيرة بنوافذها المعتمة التي تشبه الثقوب لا يرى الناظر إليها إلا الملفات والأضابير وأكوام أوراق وبوالص شحن البضائع. لقد كان منظراً بائساً للغاية والمساء قد حلّ وقد خلا هذا الجزء من الميناء من البشر تماماً. فجأة اعتراني شوق غبي وإحساس يدفعني نحو اليابسة، أن تقف قدماي على أرض ثابتة، اشتياق إلى رؤية شارع وإلى مشاهدة الناس وهم يسيرون، يتسكعون ويثرثرون مع بعضهم البعض. أردت رؤية شارع، لا أكثر، مجرد رؤية شارع. مكان لا يحيطه الماء من كل جانب، مكان ثابت لا يتماوج تحت قدمي، نعم أردت أن أقدم هدية لعينيّ وأن أمنحهما فرصة النظر إلى شارع.

- «**كان عليك أن تأتي مبكراً**» (قال الضابط) «**لا اسلّم أحداً نقوداً الآن.**»

- «**ولكني بحاجة إلى عشرين دولاراً كمقدمة من أجري.**»

- «**لن أعطيك سوى خمسة دولارات فقط ولا سنتاً واحداً أكثر من ذلك.**»

1- **حظر الكحول** *(Prohibition of alcoholic beverages)* فترة من تاريخ دولة ما والتي كان فيها تصنيع أو نقل أو تصدير أو استيراد أي من المشروبات الكحولية ممنوعاً (غير قانوني). والمقصود هنا حين تم حظر الكحول في أمريكا بناء على التعديل الثامن عشر للدستور الأمريكي والذي اعتمد في 16 كانون الثاني/ يناير 1919. بدأ تنفيذ الحظر عام 1920 وانتهى عام 1933 بناء على التعديل الحادي والعشرين للدستور الأمريكي.

- «وماذا عساي أن افعل بالخمسة دولارات، يجب أن احصل على عشرين وإلا سأمرض في الغد، فمن سيقوم بطلاء الزورق الكبير يا ترى؟ ربما لديك من سيقوم بذلك العمل، هه؟ يجب أن احصل على عشرين دولاراً.»

- «عشرة دولارات وهذا آخر كلام عندي، عشرة أو لا شيء بالمرّة ثم إنني لست ملزماً بدفع نكلة واحدة لك.»

- «حسناً، هات العشرة دولارات، ورغم إنه بخل حقير منك ولكن علينا تحمّل كل شيء، فقد اعتدناه.»

- «ضع توقيعك على وصل الاستلام وسوف أسجّله غداً في قائمة الأجور، فلا رغبة لدي لفعل ذلك الآن.»

وهكذا حصلت على العشرة دولارات. في الواقع لم أكن أريد أكثر منها ولكني لو كنت طلبتها لما حصلت إلا على خمسة فأنا لم أكن بحاجة إلى أكثر من عشرة دولارات لأن كل ما يدخل الجيب لا يعود إلى البيت إذا ذهب المرء إلى المدينة.

- **«لا تسكر! فهذا المكان سيء جداً»**، قال الرجل ذلك وهو يأخذ مني وصل الاستلام.

كانت تلك إهانة كبيرة لشخصي فالقبطان والضابطان والمهندسون يسكرون مرتين في اليوم منذ أن رست السفينة في هذا الميناء ولكنه يقدم لي أنا الموعظة بألاّ أسكر. أنا لم أفكر بالشرب، ولماذا افعل ذلك فتلك عادة غبية وسيئة.

- **«كلا»** (هكذا أجبته) **«أنا لا أتناول قطرة واحدة من هذا السّم الزعاف فأنا أعرف مسؤوليتي تجاه وطني وأنا في الغربة. نعم يا سيدي أنا ممتنع عن الكحول ولا أتناوله إطلاقاً ويمكنك الاعتماد علي، هكذا أنا مؤمن بالمنع المقدس.»**

خرجت ونزلت من سطح الدلو العائم.

2

كان غروباً صيفياً بطيئاً وجميلاً، مشيت في الشوارع يغمرني شعور بالرضا عن العالم ولم أتخيّل شخصاً واحداً لا يحبه. تفرجت على ما تعرضه واجهات المحلات وراقبت الناس الذين صادفتهم في الطرقات، بنات جميلات، اللعنة، كل شيء كان جميلاً، كلهن جميلات. نعم بعضهن لم يلقين لي بالاً لكن اللواتي ابتسمن لي كنّ بالصدفة الأجمل. وكم كانت ضحكاتهن لطيفة. بعد وهلة وجدت نفسي أمام دارٍ ذي واجهة مذهّبة وقد بدا مكاناً مرحاً فالأبواب كانت مشرعة وتدعو للدخول: «**تفضل ادخل وتناول مشروباً، اجلس لوهلة صغيرة وخذ راحتك وانس متاعبك.**» لم تكن لي ثمة متاعب ولكن الدعوة لنسيان الهموم كانت كريمة وقد ازدحم الدار بالناس الذين يغنون ويرقصون على أنغام موسيقى مرحة ويتمتعون بأوقاتهم. ولمجرد أن تأكدتُ من أن الدار مُذهّب في الداخل كما هي واجهته، دخلت المكان وجلست على كرسي وعلى التو جاءني فتى وابتسم لي ووضع أمامي على الطاولة زجاجة وقدحاً. يبدو أن جنسيتي كانت مكتوبة على أرنبة انفي لأن الشاب قال لي فورا باللغة الإنجليزية: «**تفضل تفضل واخدم نفسك يا صديقي وتمتع كما يفعل الآخرون حولك**». أرى الآن وجوهاً ضاحكة حولي وعلى مدى أسابيع لم أر سوى الماء يحيطني ولم أشم سوى رائحة الأصباغ النفاذة. وهكذا شعرت أنا أيضاً بالمتعة ونسيت نفسي ولم أعد أتذكر شيئاً. لم أكن لأتبع دعوة ذلك الفتى الودود للشرب، لكنه الحظر الذي جعلنا توّاقين وضعيفين في مواجهة الإغراء. القوانين تجعل الإنسان ضعيفاً لأن الطبيعة البشرية تأمر بتجاوز وخرق القوانين التي يضعها الآخرون. لازمني طوال الوقت ضباب كان يدور حولي باعثاً بهجة غريبة في أوصالي ثم وجدت نفسي ليلاً في غرفة مع فتاة جميلة فقلت لها: «**آنستي كم هي الساعة الآن؟**». «**أوه**» قالت هي بابتسامة عذبة. «**أيها الفتى الجميل!**» نعم أيها السادة هذا بالضبط ما قالته لي الآنسة «**أنت أيها الفتى الجميل، الشاب الجميل**» قالت لي ذلك «**لا تفسد**

علينا البهجة، كن فارساً ولا تترك فتاة رقيقة شابة لوحدها في منتصف الليل، فقد يكون اللصوص على مقربة مني وقد يهجمون علي ويقتلونني.» وبالطبع لم أستطع التخلي عن واجبي كشاب أمريكي نبيل تستنجد بشهامته فتاة ضعيفة. لقد نشأت وأنا أسمع دوماً: **«كن مؤدباً في حضرة السيدات وإذا طلبت إحداهن منك شيئاً فاهرع لتلبية طلبها حتى لو كلّفك ذلك حياتك.»**

حسناً، في الصباح الباكر جداً خرجت وأسرعت إلى الميناء لكنها لم تكن هناك. التوسكالوزا لم تكن هناك. مكانها الذي كانت ترسو فيه كان خالياً. لقد سافرت إلى نيوأورلينز، ذهبت إلى الوطن دون أن تأخذني معها. لقد رأيت في حياتي أطفالاً تاهوا عن أمهاتهم ورأيت أناساً احترقت بيوتهم أو جرفتها السيول والفيضانات ورأيت حيوانات قتل الصيادون أزواجها أو أوقعوها في شباكهم. كل ذلك كان حزيناً ولكن الشيء الأكثر مدعاة للحزن هو منظر بحّار في بلد غريب وقد رحلت سفينته للتو وخلّفته وراءها وحيداً. البحّار الذي تُرك، البحّار الذي بقي فائضاً عن الحاجة. ليس البلد الغريب هو الذي يجثم على صدره ويدفعه إلى البكاء مثل طفل صغير؛ فهو قد اعتاد الغربة والمدن الغريبة وكان قد بقي مختاراً في مدينة أو أخرى أو تم الاستغناء عنه وعن خدماته لسبب أو آخر هنا وهناك. كل ذلك لم يجعله يشعر بالحزن أو الضيق ولكن حين تغادر السفينة التي هي وطنه، تسافر دونه فيصبح بدون وطن. ذلك هو الشعور القاتل بأنه فائض عديم النفع. لم تنتظره السفينة، تستطيع أن تتخلى عنه، لا تحتاج إليه. إنه مجرد مسمار قديم نُزع من مكانه وبقي مرمياً. البحّار الذي كان يشقى بالأمس يسهر على راحة الآخرين أصبح أقل قيمة من مسمار قديم، فالمسمار لا يمكن الاستغناء عنه أما البحّار الذي زاد عن الحاجة لن يفتقده أحد، بل إن الشركة ستدّخر أجره. بحّار بدون مركب، بحّار لا ينتمي إلى باخرة ما، هو أقل شأناً من كومة قاذورات على قارعة الطريق، لا يريده أحد ولا ينتمي إلى مكان. لو انه ألقى الآن بنفسه إلى البحر وغرق مثل قطة لما افتقده أحد وما

بحث عنه مخلوق «**إنسان مجهول ويبدو أنه بحّار**» هذا كل ما سيقال عنه. راق لي هذا التصّور، هكذا فكرت مع نفسي، فدفعت بعيداً عن نفسي موجة الحيرة والإحباط. استخرجْ أفضل ما في الأمر السيء وسيختفي السوء كله في لمح البصر.

إلى الجحيم بالدلو القديم فهناك سفن أخرى في العالم، فالمحيطات واسعة وشاسعة. كم باخرة هناك في العالم؟ بالتأكيد أكثر من نصف مليون باخرة وحتماً ستحتاج واحدة منها إلى عامل على سطحها كما أن انتويرب ميناء كبير ولابد أن تأتي هذه النصف مليون سفينة إلى هنا في يوم من الأيام. على المرء التحلّي ببعض الصبر، هذا كل ما في الأمر، فلا يجوز أن تتوقع أن يكون في تلك اللحظة بالذات ثمة قبطان على ظهر صندوق عائم ما يبكي هلعاً ويتوسل: «**أيها السيد العامل أرجوك تعال بسرعة إلى سطح سفينتي فأنا بحاجة ماسة إلى عامل. أرجوك لا تذهب إلى سفينة أخرى أتوسل إليك.**» لم أكن مهتماً جداً بأمر عديمة الوفاء تلك، التوسكالوزا. من كان ينتظر هذا من تلك الأنثى الجميلة؟ لكنهن كذلك، كلهن، كلهن عديمات الوفاء. كم كانت مقصوراتها نظيفة وكم كان الطعام شهياً. إنهم في هذه الساعة يتناولون الفطور، أولئك الأوغاد ويأكلون نصيبي من البيض وشرائح اللحم المقدّد. كم أتمنى أن لا يغدو نصيبي من الطعام من حصة ذلك الوغد بوب النحيف، فإنه لا يستحق شيئاً. ولكنه بالتأكيد سيكون أول من ينقّض على أمتعتي وسيختار لنفسه أفضل ما فيها قبل أن يتم التحفّظ عليها في مكان مغلق. لن يسمح أولئك اللصوص بوضع حاجياتي في مخزن آمن مقفل بل سيتقاسمونها فيما بينهم وسيقولون إني لم أكن أمتلك شيئاً، اللصوص السفلة. لم أثق يوماً ببوب النحيف فلطالما سرق مني صابون الاستحمام المعطّر لأنه لم يشأ أن يغسل جسمه بصابون رخيص، مدّعي الفحولة. نعم يا سيدي من يراه لأول وهلة لا يصدق ما أقوله عنه.

حقاً لا أعير اهتماماً كبيراً لذلك الصندوق الذي رحل دوني ولكن ما يقلقني هو أني لا أملك سنتاً أحمر واحداً في جيبي. لقد أخبرتني الفتاة الجميلة في الليلة الفائتة قصتها الحزينة التي تمزّق القلب وعن أمها المريضة بمرض عضال ولم أرد أن أكون مسؤولاً عن موت الأم فأعطيت كل نقودي للفتاة، كل المبلغ الذي كان بحوزتي. لقد حصدت الكثير من الثناء والشكر من الفتاة الجميلة. هل يوجد شيء في الدنيا يدعو إلى السعادة أكثر من آلاف كلمات الشكر والامتنان من فم فتاة جميلة قد جرى للتو إنقاذ والدتها من براثن موت محتّم؟ كلا يا سيدي.

3

جلست على صندوق خشبي كبير مهمل ورحت أسرح مع التوسكالوزا في البحر. كم تمنيت وتأملت أن تصطدم بصخرة فتضطر للعودة أو في الأقل أن يعود بحّارتها في قوارب النجاة إلى الميناء ولكنها تحاشت حافات الصخور برشاقة لأني لم أرها تعود أدراجها. وفي كل الأحوال فقد تمنيت لها من الأعماق كل حوادث الأقدار والكوارث التي يمكن أن تصيب السفن أن تصيبها هي. لكن ما تخيّلته و تمنيته لها من أعماقي هو أن تقع فريسة لقراصنة البحر لينهبوها ويسلبوا بوب اللعين كل ما أخذه من أغراضي واستحوذ عليه وأن يضربوه على وجهه المبتسم حتى يفقد إلى الأبد القدرة على الغمز واللمز.

لم أكن قد استرخيت بعد ومُطلقاً لخيالي العنان كي يسرح ويستدعي لي الفتيات الجميلات حتى أمسك أحدهم بكتفي وأيقظني من أحلامي ثم بدأ يتحدث بسرعة بالغة حتى أصابتني الدوخة. غضبت وقلت بامتعاض: «**هيا يا صاح اتركني وشأني فأنا لا أحب ثرثرتك ثم إنني لا افهم كلمة واحدة مما تقوله، هيا اتركني واذهب إلى الجحيم.**»

ـ «**أنت إنجليزي؟ أليس كذلك؟**» سألني بلغة إنكليزية أخيراً.

ـ «لا أنا يانكي»

ـ «أها، أمريكي إذن،»

ـ «نعم والآن اتركني وشأني واغرب عني فأنا لا أريد أن يكون لي شأن بك»

ـ «ولكن لي شأن بك، فأنا من الشرطة»

ـ «يا لك من محظوظ أيها الصديق، منصب جيد، ما خطبك؟ هل لديك مشكلة؟»

ـ «بحّار؟»

ـ «نعم أيها العجوز هل لديك وظيفة لي؟»

ـ «ومن أية سفينة؟»

ـ «توسكالوزا من نيوأورلينز.»

ـ «لقد أبحرت في الثالثة من فجر اليوم»

ـ «لست بحاجة اليك لتخبرني بذلك، أليس في جعبتك نكتة أفضل لترويها فنكتتك هذه قديمة وعفنة.»

ـ «أين هي أوراقك؟»

ـ «أية أوراق؟»

ـ «بطاقة البحّار»

ـ «بيض مخفوق مع القشدة والشوكولاطة وعصير التفاح. بطاقة البحّار؟ هي في جيب الجاكيت، الجاكيت في خرج ملابسي الممتليء والمركون تحت سريري على متن التوسكالوزا والتوسكالوزا، آه أين يمكن أن تكون الآن، ليتني أعلم ما هو الفطور المقدم اليوم عليها. حتماً ترك الصبي الأسود شرائح اللحم المقدد

لتنشيط مثل كل مرة وكنت سأوبّخه حين أكون قد انتهيت من الطلاء و...»

ـ «هيا أرني بطاقة البحّار، هل تفهم ما أعني؟»

ـ «هويتي كبحّار، بطاقتي؟ إذا كان هذا ما تعنيه، إذا كنت تقصد هويتي كبحّار فيجب علي أن اعترف لك إني لا أملك هذه البطاقة.»

ـ «لا بطاقة بحّار؟»

ليتك سمعت بأي لهجة قال ذلك لي، تقريبا كأنه يقول مثلاً «ماذا، أنت لا تعتقد بوجود مياه في البحر؟» لم يفهم بأن لا أوراق عندي فسألني للمرة الثالثة ولكنه قالها هذه المرة برتابة وقد استراح من دهشته وأضاف إلى سؤاله قائلاً:

ـ «أية أوراق أخرى؟ جواز سفر مثلاً أو هوية أحوال شخصية؟ أو أي شيء من هذا القبيل؟»

ـ «كلا» فتشت جيوبي وأنا اعرف حق المعرفة أنني لا أحمل أية أوراق بل ولا حتى مظروف رسائل خال يحمل اسمي.

ـ «تعال معي» قال الرجل

ـ «إلى أين؟» سألت لأني أردت معرفة السفينة التي يريد الرجل اقتيادي إليها لأنني ما كنت سأرضى بالصعود إلى باخرة لتهريب البضائع، كلا لا تقدر عشرة جياد على سحبي لأصعد إلى تلك السفينة.

ـ «إلى أين؟»

ـ «سترى قريباً»

لا أدّعي أن الرجل كان لطيفاً جداً معي ولكن هؤلاء الذي يستأجرون العمال والبحّارة لا يكونوا لطفاء إلا حين يكونون بحاجة ماسة إلى عامل. لا بد أنها سفينة صالحة تلك التي يريد اخذي إليها. لم أتوقع الصعود إلى ظهر

دلو عائم بهذه السرعة. الإنسان بحاجة إلى القليل جداً من الحظ ولا يجوز له الاستسلام لليأس بسهولة. أخيراً وصلنا. أين؟ لقد حزرت يا سيدي، وصلنا إلى مركز الشرطة. فتشوني بدقة وبعد أن نظروا في كل مكان ولم يبق ركن خفي في ملابسي لم يكشفوا عنه سألني الرجل بأسلوب جاف تماماً:

ـ «لا أسلحة لديك؟ لا عدّة عمل؟»

كنت سأصنع له بيدي سلاحاً بسهولة، كأنني قادر على وضع مسدس في الجزء العلوي لفتحة الأنف أو إخفاء قضيب حديدي تحت جفن العين ولكن هكذا هم الناس حين لا يجدون شيئاً يدّعون أنك أخفيته. إنهم لن يفهموا بل لا يريدون أن يفهموا بأنهم غير قادرين على العثور على شيء غير موجود ولا يحمله المرء أصلاً. آنذاك لم أكن أعلم.

توجّب علي الوقوف أمام شخص جالس خلف مكتب كبير وكان ينظر إلي طيلة الوقت وكأنني سرقت معطفه. فتح كتاباً سميكاً فيه صور كثيرة لأشخاص. الرجل الذي اصطحبني إلى المركز بات يقوم الآن بدور المترجم لأننا ما كنا سنفهم بعضنا. حين كانوا بحاجة إلى شبابنا في حروبهم كانوا يفهموننا أما الآن وقد مضت تلك الحرب فلم يعد يهمهم أن يعلموا شيئاً.

الكاهن الكبير، هكذا بدا لي الرجل وهو يجلس خلف مكتبه المائل نحوه، ظل يحدق في وجهي ثم ينظر إلى الصور أمامه ويعاود الكرّة وهو يدقق النظر في ملامحي. أظنه فعل ذلك أكثر من مائة مرة ولم تتعب عضلات رقبته من هذا التمرين المستمر من كثرة تعوّده عليه. كان لديه الكثير من الوقت لذلك فقد استخدمه بمنتهى اللامبالاة والهدوء، ولم لا، فهناك الآخرون الذين يموّلون هذا العمل فلِمَ العجلة إذن!!

أخيراً هز رأسه نافياً وأغلق الكتاب السميك. من الواضح انه لم يعثر على

صورتي بين الصور كما لا أتذكر إنني صوّرت نفسي يوماً في انتويرب. شعرت بالتعب الشديد من هذا العمل المملّ فقلت: «**أشعر بالجوع الآن حقاً إذ لم أتناول الفطور هذا الصباح**».

«نعم، ليكن»، قال المترجم وقادني إلى غرفة ضيقة. لم يكن فيها الكثير من الأثاث وما كان فيها لم يُصنع في ورشة فنية. ولكن ما خطب النافذة؟ أمر غريب، تبدو هذه الغرفة وكأنها مخصصة لتكون المكان الذي تحفظ فيه خزينة الدولة البلجيكية. من المؤكد أن خزينة الدولة محفوظة هنا إذ لا يمكن لمخلوق اقتحام الغرفة وقطعاً ليس عبر نافذتها. كلا يا سيدي. أريد أن أعرف إذا كان الناس هنا يسمون هذا فطوراً، شريحة من الخبز مع الزبد النباتي الرخيص وفنجان قهوة.

تركوني لوحدي. وكي أشغل نفسي صرت أحسب عدد القضبان الحديدية للنافذة. نعم يا سيدي أنا بارع بذلك.

استدعاني الكاهن الكبير مرة أخرى ساعة الظهيرة.

- «**عددها تسعة.**» أخبرته فوراً «**تسعة بالضبط.**»

- «**ماهي التسعة؟**» سألني الكاهن الكبير عبر المترجم.

- «**عدد القضبان الحديدية التي على النافذة.**» أجبته موضحاً.

تبادل الكاهن والمترجم نظرات استغراب ثم رمقني الاثنان بنظرة لم أفهمها وهزا رأسيهما ثم تكلم المترجم مخاطباً الكاهن:

- «**هم هكذا. أنت تعرفهم من الحرب، هناك خلل ما في رؤوس هؤلاء القوم ولا يمكنك أخذهم مأخذ الجد.**»

- «**هل ترغب في الذهاب إلى فرنسا؟**» سألني الكاهن الكبير.

ـ لا، لا أحب فرنسا.. كلا لن أذهب إلى فرنسا في أي حال من الأحوال فأنا لا أحب الفرنسيين المنتشرين في ساحات الحروب. كلا فرنسا ليست المكان المناسب لي يا سيدي.»

ـ «طيب، ما رأيك بألمانيا؟» ما هذا كل الذين يريدون معرفة رأيي به.

ـ «إلى ألمانيا، لا أحب الذهاب»

ـ «ولماذا؟ ألمانيا بلد جميل جداً وهناك ستتوفر لك فرصة سهلة في هامبورغ للصعود إلى سفينة تعود بك إلى وطنك.»

ـ «كلا، أنا لا أحب الألمان، هم قوم غالباً ما يفقدون صوابهم دون مقدّمات.»

ـ «ما هذا الهراء؟ قل فقط هل ترغب بذلك أم لا» لست أدري إن كانوا يفقهون ما أقوله ولكن يبدو أن لديهم الكثير من الوقت وإنهم يتسلّون بهذا الحديث.

ـ «إذن باختصار شديد ستذهب إلى هولندا» قال الكاهن الكبير يحسم الموضوع ونقله لي المترجم.

ـ «ولكنني لا أحب الهولنديين» هكذا أجبت، وكنت على وشك أن أذكر السبب حين قيل لي:

ـ «سواء كنت تحب الهولنديين أم لا فهذا أمر لا يعنينا بشيء، هذه مشكلتك مع الهولنديين. وحقاً كنت ستكون بحال أفضل لو قررت الذهاب إلى فرنسا ولكنك لا ترغب بذلك وإلى ألمانيا لم ترد الذهاب فهم لا يعجبونك وليس لنا حدود مع بلدان أخرى ولسنا قادرين من أجلك أن نجعل لنا جيراناً جدد يمكن أن يحظوا برضاك كما إننا لا نريد أن نلقي بك في الماء، على الأقل ليس في الوقت الحاضر والبحر هو آخر حدود لنا نعرضها عليك، وهكذا فستذهب إلى هولندا.

انتهى النقاش. إذن ستذهب إلى هولندا وكفى، إحمد الله يا هذا لأنك ستنفذ بجلدك بهذه السهولة.»

ـ «لكن يا سادتي، أنتم على خطأ فأنا لا أريد الذهاب إلى هولندا، فالهولنديون هم ..»

ـ «اصمت فقد حُسم الأمر، كم لديك من المال؟»

ـ «لقد فتشتم جيوبي وكل فتق في ملابسي، فهل وجدتم شيئاً من المال؟»
عليك ألاّ تغضب من السؤال. هم يفتشونك لساعات طويلة بالعدسات المكبرة ثم يسألونك بعدها ببراءة مزيّفة كم عندك من النقود. **«إذا كنتم لم تجدوا شيئاً فهذا يعني انه ليس معي شيئاً»** قلت لهم.

ـ **«حسنا، هذا كل شيء، خذه إلى الزنزانة»** أنهى الكاهن الكبير مراسيمه.

4

في ساعات العصر المتأخر تم اقتيادي إلى محطة القطارات. اصطحبني إلى هناك رجلان أحدهما كان المترجم. يبدو أنهم ظنوا أنني في حياتي لم استقّل قطاراً لأنهم لم يسمحوا بأن أفعل ذلك بمفردي. أحد الرجلين اشترى تذاكر السفر في حين بقي الآخر قريباً مني يرقبني يحميني من أي نشّال محتمل قد يفتش جيوبي مرة أخرى وقد فعلت الشرطة ذلك للتو وبدّقة متناهية ولم تجد شيئاً ولذا كيف سيمكن لأمهر نشّال أن يجد سنتاً واحداً. الرجل الذي جلب تذاكر السفر لم يعطني تذكرتي بيدي لأنه ربما اعتقد أنني سأبيعها حالاً وأحتفظ بثمنها. رافقني الرجلان بأدب جمّ إلى رصيف القطارات ثم إلى مقصورة في القطار. تصوّرت في تلك اللحظة أن الرجلين سيودعانني هنا ويذهبان ولكنهما لم يفعلا بل جلس الاثنان معي في العربة ليحافظا عليّ من السقوط على الأرض إذ استقرا

جالسين على جانبيّ يميناً ويساراً. لا أعرف حقاً إذا كانت الشرطة البلجيكية مؤدبة ولطيفة مع الجميع، أنا من ناحيتي لا أستطيع التذمّر. بعد وهلة قدّما لي السجائر ودخنّا معاً ثلاثتنا وسار القطار بنا. بعد سفرة قصيرة غادرنا القطار وجئنا إلى مدينة صغيرة. وهناك أيضاً اقتاداني إلى مركز للشرطة حيث طلبا مني الجلوس على مصطبة في غرفة بدا أنها تضم جميع أفراد الشرطة العاملين فيه. الرجلان اللذان اصطحباني إلى هناك تحدثا عني وعن قصتي بإسهاب في حين كان أفراد الشرطة الآخرين يحدّقون بي طيلة الوقت واحداً تلو الآخر بل بدا لي أن البعض كان ينظر إلي وكأنه لم ير رجلاً مثلي من قبل في حين كان نظرات البعض الآخر تقول أني ارتكبت في مكان ما جريمة قتل وسرقة وانتحار في آن واحد. الأشخاص الذين كانوا يطيلون التحديق بفضول يوحي بأنني مجرم عتيد مطلوب للعدالة لارتكابه الفظائع ولم يقع في قبضتهم لحد اللحظة ورأوا فيّ مجرماً قادراً على ارتكاب المزيد من جرائم أفظع في المستقبل من تلك التي ارتكبت، حسب اعتقادهم، حتى الآن، هؤلاء هم الذين أوحوا لي فجأة أنني في انتظار الجلاد الذي تأخر عن الحضور لأنه لم يكن في بيته مثلاً وإنهم يبحثون عنه ليأتي. لم يكن الأمر مسلّياً، كلا يا سيدي، بل كان خطيراً جداً لو تمعن فيه المرء مليّاً، إذ لم أكن املك بطاقة بحّار ولا هوية شخصية بل لاشيء على الإطلاق ولو كان الكاهن الكبير قد وجد صورتي لعرفوا في الأقل من أكون. عامل على ظهر التوسكالوزا بقي في الميناء، فول يستطيع أي متسكع هنا الادعاء به. لم يكن لي قط بيت في العالم، قضيت حياتي متنقلاً إما على ظهر سفينة أو مقيماً في نزل ما للبحّارة ولم أكن عضواً في غرفة تجارية ما. باختصار لم أكن أحداً على الإطلاق. والآن أتساءل لماذا يتوجب على البلجيكيين إطعام شخص نكرة في الوقت الذي يتوجب عليهم إطعام الكثير من أبناء النكرات الذين ينتمون، في الأقل مناصفة، إلى هذا البلد. أما أنا فلا أنتمي إليه مطلقاً. أسرع وأسهل طريقة للتخلص مني هي إعدامي وهو قرار ما كنت حتى لألومهم على اتخاذه.

لن يسأل أحد عني ولن يفتقدني مخلوق ولن يحتاجوا إلى كتابة اسمي في الدفتر السميك، حتماً سيشنقونني فهذه مسألة أكيدة. إنهم بانتظار الجلاد ليؤدي عمله الذي يفهمه فبدون حضوره سيكون الإعدام جريمة قتل غير قانونية. وفعلاً كنت على حق في تخميني إذ تقدم مني احدهم وأعطاني علبتي سجائر هي الهبة الأخيرة التي تقدم للمُدان قبل إعدامه ثم أعطاني بعد وهلة علبة كبريت وجلس إلى جانبي ورطن معي واظهر وداً وربّت على كتفي:

ـ «ليس الأمر سيئاً جداً أيها الفتى، خذ الأمر ببساطة. دخّن سيجارة حتى يمضي الوقت سريعاً إذ يجب علينا الانتظار حتى تحّل العتمة و إلا لن يتسنى لنا تنفيذ ذلك.»

آخذ الأمر ببساطة وأنا أواجه الشنق!!. ليس الأمر سيئاً جداً؟ وددت أن اعرف إذا كان قد جرّبه بنفسه حتى يقول «لا بأس يجب أن ننتظر حلول الظلام». طبعاً ففي النهار ما كانوا سيجرؤون على فعلتهم هذه فقد يصدف أن يأتي شخص يعرفني ويُفسد عليهم متعتهم بقتلي ولكن لا فائدة من إثقال الرأس بالهموم فهو سيتدلى مثقلاً بنفسه بعد قليل. دخّنت كما لو كنت مدخنة مصنع، تعمدت ذلك حتى لا أترك لهم سيجارة واحدة. لم يكن للسجائر طعم، كانت مثل القش، اللعنة فأنا لا أريد أن أُشنق. كيف يتسنى لي معرفة طريق الهرب من أيديهم وهم يحيطونني من كل جانب. كل رجال الشرطة الذين جاءوا إلى مركز الشرطة لاحقاً للالتحاق بمناوبتهم في المساء صاروا يحدّقون بي ويسألون الآخرين عن قصتي وعن موعد شنقي ثم يبتسمون لي ببلاهة. يا له من شعب نتن، بوّدي أن أعلم لماذا ساعدناهم في الحرب. فيما بعد أحضروا لي وجبة الطعام الأخيرة، يا لهم من قوم بخيلين لم أر في العالم اشّد منهم بخلاً. هذا النزر اليسير يسمّونه الوجبة الأخيرة قبل الإعدام، سلطة البطاطا وبعض شرائح الخبز مع الزبد واللحم المقدد. حال يدعو للبكاء حقاً. لا، البلجيكيون

قوم سيئون وأنا كنت على وشك الموت في الحرب التي خضناها من أجلهم وأنفقنا أموالنا. الشخص الذي أعطاني السجائر والذي حاول أن يقنعني بأن الشنق ليس بالأمر السيء جداً قال لي وهو يبتسم في وجهي:

ـ «لا شك أنك مواطن أمريكي صالح فأنت لا تشرب النبيذ، أليس كذلك؟»

إلى الشيطان جميعاً، لو لم يكن منافقاً إلى هذا الحد بقوله إن شنق المرء أمر ليس بذلك السوء لظننت أن بعض البلجيكيين لطيفون ومؤدبون.

ـ «أمريكي صالح؟ أتبّول على أمريكا، طبعاً اشرب النبيذ، بالتأكيد»

ـ «هذا هو ما تصوّرته في الحال.»

قال ذلك الشرطي وهو يخفي ابتسامة صغيرة.

ـ «أنت صادق، أما ما يعتقده معظم الأمريكان فانه هراء ولغو نسوة عجائز. تسمحون للنساء ومدعيّات الرهبنة أن يتحكموا فيكم، صحيح أن الأمر لا يخصّني ولكن هنا في بلادنا فالرجال هم الذين لهم الكلمة العليا.»

أخيراً هناك من يرى بوضوح موضع السهم في اللحم ويفهم. هذا الرجل لم يخطيء ويستطيع رؤية ما في القعر مهما كانت المياه داكنة وآسنة. خسارة أن يكون هذا الرجل شرطياً. ولكنه لو لم يكن شرطياً لما وجدت قدح النبيذ الجيد والكبير هذا الذي وضعه أمامي. منع الكحول كان عاراً وذنباً، إلى الله أشكوهم. أنا واثق بأننا كنا قد ارتكبنا إثماً كبيراً يوماً ما وفي مكان ما حتى نُحرم من متعة إلهية كبيرة كهذه.

في حوالي العاشرة ليلاً قال الرجل الذي وهبني النبيذ:

ـ «حسناً، لقد حان الوقت الآن أيها البحّار فتعال معي.»

ما فائدة أن أصرخ الآن «لا أريد أن أُشنق» ، فحولي أربعة عشر رجلاً وكلهم

يمثّلون القانون. هذا هو مصيري. لو أن التوسكالوزا قد انتظرت ساعتين فقط ولكنني لا أستحق هاتين الساعتين من الانتظار وها أنا هنا أقل قيمة من أي شيء. شعرت بالحنق من فكرة عدم الأهمية ولذلك قلت:

- «**لن أذهب معك، أنا مواطن أمريكي وسأشتكي عليكم.**»

- «**هراء، أنت لست أمريكياً.**» قالها بصوت عالي النبرات «**اثبت لنا ذلك إن استطعت، هل عندك هوية بحّار، جواز سفر؟ لا شيء عندك ومن لا جواز سفر عنده فهو نكرة وغير موجود لذا يجوز لنا أن نفعل بك ما نريد وهذا ما سنقوم به الآن ولن نستأذنك بعمل ذلك، هيا خذوه إلى الخارج.**»

لماذا الاحتجاج، فلا حاجة بي إلى ضربة على الرأس فأنا الملوم في كل حال لذا سرت أتبعهم. إلى يساري مشى الرجل المرح الذي كان يرطن معي بلغتي وعلى يميني سار الرجل الآخر. سرنا إلى أطراف المدينة الصغيرة ووجدنا أنفسنا داخل حقول واسعة. كانت العتمة مخيفة والطريق الزراعي وعراً ومُهمَلاً يصعب السير فيه. تمنيت لو علمت متى ينتهي مشينا وندرك الهدف الحزين. غادرنا الشارع البائس ذلك وعطفنا إلى طريق تعلوه الأعشاب وبقينا نمشي لفترة أخرى. لقد حان وقت التنفيذ ويبدو أن الرجلين قد حدسا ما أفكر به إذ لم أكد أبدأ بعد بتوجيه لكمة إلى ذقن أحدهما حتى امسك بي من ذراعي وقال:

- «**ها قد وصلنا وقد حان وقت أن نقول لبعضنا وداعاً.**»

شعور مريع أن يدرك المرء وهو بكامل وعيه زحف لحظاته الأخيرة. لا ليس زحفا إنها ماثلة أمامي وجهاً لوجه. أصابني إحساس بالعطش وجفّ حلقي وتمنيت جرعة ماء ولكن لم يعد من المناسب التفكير بالماء الآن. اللحظات المتبقية من عمري يمكن أن تمضي بغير ماء، هكذا كانوا سيجيبونني لو طلبت جرعة منه. في الواقع لم أتصور أن يكون الشخص الذي وهبني قدح النبيذ بهذا اللؤم والنفاق. كنت أتخّيل أن للجلاد هيئة أخرى، يا لها من مهنة قذرة تدعو

للخجل، كأنه لا توجد في العالم مهن أخرى سواها، كلا، اختار بالذات مهنة الوحش، مهنة الجلاد هذه كوظيفة. في تلك اللحظة ساورني شعور لم أعرفه من قبل، إحساس بجمال الحياة وحلاوتها الخارقة، حتى في اللحظة التي يكتشف فيها البحّار وهو يقف منهكاً وجائعاً على رصيف الميناء أن سفينته قد أبحرت وخلّفته وراءها وحيداً بدون ورقة تظل الحياة جميلة حتى لو تبدّت مظلمة أحياناً. والآن علي أن أغادرها في ظلمة هذا الحقل الواسع كما لو كنت دودة، لم أتوقع ذلك من البلجيكيين. ولكن الذنب يقع على الوعظ بالابتعاد عن الإغراء وهو نفسه ما يجعل الإنسان ضعيفاً لدرجة لا يستطيع معه المقاومة.

ـ «نعم أيها السيد حان لنا أن نقول وداعاً، ممكن أن تكون إنساناً لطيفاً ولكن لا حاجة لنا بك هنا.»

لكن الأمر لا يستدعي الشنق. رفع الرجل ذراعه، يبدو انه أراد أن يلّف الحبل على رقبتي كي أختنق وأموت فلماذا يكلّفون أنفسهم مشقّة بناء منصة للمشنقة فتلك قضية مكلفة أيضاً.

ـ **«هناك على الطرف الآخر»** قال مشيراً بيده إلى الاتجاه المقصود. **«هناك، الطريق الذي أشير إليه، الأراضي الهولندية. حتماً قد سمعت بهذا البلد»**

ـ **«نعم.»**

ـ «الآن سر بهذا الاتجاه المستقيم الذي أشير إليه بذراعي، لا أظن أن هناك دورية مراقبة في هذه الساعة ولا أظن أن أحداً من الحرّاس سيراك لقد تقصّينا الأمر ولكن إذا صادف ورأيت أحداً فحاول أن تزوغ من طريقه. سر في ذاك الاتجاه حوالي ساعة واحدة إلى أن تصل إلى خط سكة حديدية. اتبع الخط لفترة قصيرة بنفس الاتجاه حتى تصل إلى المحطة. ابق هناك قريباً منها وحتى الساعة الرابعة صباحاً لا تدع أحداً يلمحك ولكن في الساعة الرابعة سيأتي عمال

كثيرون، اذهب إلى شباك التذاكر حينذاك واقطع تذكرة إلى روتردام الدرجة الثالثة، قل ذلك بالهولندية واحفظ هذه الجملة ولا تتفوه بكلمة غيرها. خذ هذه خمسة غيلدرات.»

أعطاني خمس قطع نقدية.

ـ «وهذا زاد للطريق في الليل لتأكله، لا تشتر شيئاً في المحطة وقريباً ستكون في روتردام، لا شك في أنك ستتحمل حتى تصل إلى هناك.»

أعطاني كيساً صغيراً فيه شرائح خبز بالزبدة ثم سلمني علبة سجائر وعلبة كبريت.

ماذا يمكن أن يقول المرء عن هؤلاء القوم؟ لقد أُرسلوا في مهمة شنقي والآن يعطونني الخبز والنقود حتى أهرب بعيداً. إنهم بلا شك طيبو القلب لم يقدروا على قتلي بدم بارد. كيف يتسنى للمرء أن لا يحب البشر وهو يرى طيبة هذين الرجلين من بين أفراد الشرطة التي تحجّر قلبها من مطاردة الأشقياء على الدوام. صافحتهما بحرارة لدرجة أنهما خشيا أني سأسرق يديهما وآخذهما معي.

ـ «كفى لا تبالغ في الأمر قد يسمعنا أحد من الطرف الآخر وسيذهب كل جهدنا هباء.» الرجل مصيب.

ـ **«استمع جيداً إلى ما أقوله الآن»**، قال ذلك بصوت خفيض ولكنه بذل جهداً ليكون كلامه واضحاً ومفهوماً ولذلك فقد كرر كلامه مراراً: **«إياك أن تعود مرة أخرى إلى بلجيكا فلو ضبطناك مرة أخرى هنا داخل حدودنا فتيقّن بأننا سنودعك السجن مدى الحياة، هذا كل شيء، أنا أحذّرك جداً فنحن لا نعرف ماذا نفعل بك فليست لديك أوراق تثبت كونك بحّاراً»**.

ـ «ولكن ربما كان علي أن اذهب إلى القنصل ....»

ـ «اغرب عني أنت وقنصلك. هل لديك هوية بحّار؟ لا، إذن فسيطردك قنصلك وسنبتلي نحن بك. الآن تعرف كل شيء وتذّكَر إذا عدت فسجن مدى الحياة.»

ـ «بالتأكيد أيها السادة أعدكم بأن قدمي لن تطأ أرض بلادكم ثانية.»

ولماذا كنت لأفعل ذلك، فلا مصلحة لي في بلجيكا بل على العكس فأنا مسرور لأني أغادرها. هولندا أفضل حتماً ففى الأقل يمكن فهم نصف لغتهم في حين لا أفهم هنا كلمة واحدة مما يقوله القوم أو يريدونه.

ـ «حسن إذن لقد أنذرناك. هيا اقفز وابتعد ولكن خذ حذرك وإذا سمعت وقع أقدام فانبطح على الأرض إلى أن تبتعد تلك الأقدام وتشعر بالأمان، لا تدعهم يمسكون بك وإلا فسنمسك بك نحن. هيا اذهب وحظاً سعيداً.»

دفعا بي في اتجاه البلاد الأخرى وغادرا.

5

روتردام مدينة جميلة حقاً إذا كان بحوزة المرء نقوداً وأنا لا أملك شيئاً بل لم يكن عندي حتى محفظة نقود لأحفظها على افتراض إني أملكها. ولم تكن هناك سفينة واحدة في الميناء بحاجة إلى عامل طلاء أو حتى مهندس. الأمر كان لدي سيان إذ كنت سأقبل بوظيفة مهندس بدون تردد وبدون أن يرّف لي جفن لو كانت هناك حاجة له على ظهر سفينة ما. النكتة كانت ستبدأ حين نكون قد صرنا في عرض البحر وآنذاك لن يكون بوسعهم طردي من العمل بإلقائي في البحر فذلك سيكون قتلاً عمداً. كما سيكون هناك دوماً ما يجب طلاؤه على السفينة فأكون قد وجدت العمل الصحيح. نعم كان الأمر سيكون مسلّياً ولكن ليس في وسعي تجربة هذه المتعة فلا سفينة تبحث عن مهندس ولا عن

غيره. كنت سأقبل بأية وظيفة، كل عمل من قبطان إلى صبي مطبخ. عموماً فانه من الصعب جداً أن تحصل على سفينة في الموانئ الاوربية أما أن تحصل على واحدة تعود بك إلى الوطن فهو أمر مستحيل. الكل يريد الصعود على ظهر أي صندوق عائم يسافر إلى هناك لأنهم كلهم يريدون الوصول إلى أرض الميعاد. أنا شخصياً لا أفهم كيف يفكر هؤلاء البشر وما الذي ينتظرون الحصول عليه هناك. حتماً انهم يعتقدون أن الناس يستلقون على ظهورهم وليسوا بحاجة لفعل شيء سوى أن يفتحوا أفواههم ليسقط الطعام الشهي فيها دون عناء وتعب بل إنهم سيحصلون على أجور عالية مقابل ذلك. هراء، وها هم اليوم هنا يتكدسون بالمئات ويتسكعون بحثاً عن سفينة للعمل دون مقابل للوصول إلى هناك وطبعاً لن يتسنى لبحّار أصلي وشريف مثلي أن يحصل على سفينة تعيده إلى موطنه.

الشرطيان البلجيكيان اللطيفان قدّما لي نصيحة، الذهاب إلى القنصل، قنصلي، بدا وكأنهما يعرفان قنصلي أفضل مما أفعل أنا. عجباً، فمن واجبي أنا معرفة قنصلي لأنه قنصلي وهو هنا في هذا المكان من العالم لأجلي ولهذا يتقاضى راتبه، أيضاً من أجلي. القنصل يشرف على التخليص الجمركي لعشرات السفن الوافدة إلى الميناء والمغادرة منه بعد التحقق من استيفائها شروط الدخول والمغادرة لذا فمن الواجب أن يكون مطّلعاً على حاجة سفينة إلى عامل وخاصة إذا كان ذلك العامل مفلساً تماماً.

- «أين هي بطاقتك التي تثبت كونك بحّاراً؟»

- «لقد أضعتها.»

- «هل لديك جواز سفر؟»

- «كلا.»

ـ «أوراق تثبت جنسيتك؟»

ـ «لم أملكها في حياتي.»

ـ «وما الذي تريده هنا؟»

ـ «ظننت إنه بما أنك قنصلي فسوف تساعدني...»

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهه. غريب. لماذا يرسم الناس تلك الابتسامة وهم يهمّون بضربك على الرأس. قال وهو مازال محتفظاً بتلك الابتسامة: «قنصـــلك؟ هذا أمر يجب إثباته أولاً أيها الرجل العزيز، اثبت إني قنصلك.»

ـ «أنا مواطن أمريكي وأنت القنصل الأمريكي.»

بدا أن القضية لم تكن كذلك بالضبط إذ قال لي:

ـ «نعم، القنصل الأمريكي حتى لو كنت لست القنصل الأول حالياً، ولكن نعم أنا القنصل ولكن حتى لو كنت أمريكياً حقاً فيتحتم عليك إثباته أولاً. أين هي أوراقك؟»

ـ «لقد أخبرتك بأنني أضعتها؟»

ـ «أضعت أوراقك! كيف يفقد الإنسان أوراقه؟ المرء يحمل أوراقه معه دوماً سيما إذا كان في بلد غريب ثم انك لا تستطيع حتى أن تثبت أنك كنت على ظهر التوسكولوزا. هل تستطيع ذلك؟»

ـ «كلا.»

ـ «إذن ماذا تفعل هنا؟ وحتى لو كنت على التوسكولوزا بل لو استطعت إثبات ذلك حقاً فهذا لا يكفي دليلاً على أنك من مواطني بلادي، فعلى ظهر باخرة أمريكية يمكن أن يعمل من هبّ ودبّ فماذا تريد هنا؟ كيف جئت من

انتويرب إلى روتردام دون أوراق؟ هذا أمر غريب فعلاً!!»

ـ «لقد قامت الشرطة..»

ـ «رجاءً اعفني من سماع مثل هذه القصص، كيف يمكن لرجال شرطة موظفين لدى الدولة تركك تعبر حدود بلد غريب بهذا الشكل غير القانوني؟ بدون أوراق. أيها الرجل لن تستطيع أن تهزأ مني بهذه الحكاية.»

قال كل ذلك وهو يبتسم نفس الابتسامة الساخرة. مبتسم على طول الخط، هذا هو ديدن الموظف الحكومي الأمريكي، الابتسام على الدوام حتى عندما يصدر حكماً بالموت فهذا هو واجبه الجمهوري. لكن الأمر الذي أثار حنقي أكثر هو أنه طوال الحديث معي كان يلعب بقلم رصاص بين أصابعه، فكان تارة يخربش شيئاً ما على خشب منضدته ثم يحّك رأسه بطرف القلم تارة أخرى أو ينقر به على المنضدة كما لو أنه يثبّت بهذا النقر كل كلمة يقولها.

كم تمنيت لو رميت بزجاجة الحبر في وجهه ولكني استعنت بالصبر فقلت:

ـ «ربما استطعت مساعدتي في إيجاد سفينة حتى أستطيع العودة إلى الوطن، فلربما عرفت ربّاناً يبحث عن عامل يحّل محل عامل مريض.»

ـ «سفينة؟ بدون أوراق وتريد سفينة؟ ليس عن طريقي ولا حاجة بك للعودة إلى هنا مرة أخرى.»

ـ «ولكن من أين لي الحصول على أوراق إذا لم تمنحني جهة ما أوراقاً؟»

هكذا سألت أخيراً.

ـ «وما علاقتي بالأمر ومن أين آتيك بأوراق؟ أنا لم آخذ منك أوراقك، هل فعلتُ ذلك؟ يمكن والحال هذه لأي متسكع لا يعرف الحفاظ على أوراقه أن يأتي ويطلب مني أوراقاً؟»

ـ «ولكن يا سيدي» قلت ردّا على ذلك. «أعتقد أن هناك أناساً من غير العمال قد أضاعوا أوراقهم أيضاً.»

ـ «نعم هذا صحيح ولكن أولئك الناس كانوا يملكون المال.»

ـ «هكذا إذن»، صرخت عالياً، «الآن افهم المقصود.»

ـ «أنت لا تفهم شيئاً على الإطلاق»، ابتسم من جديد، «أنا اقصد أولئك الناس كانوا يملكون أوراق ثبوتية أخرى، هويّات شخصية، أولئك أناس لا يرقى إليهم الشك. أناس لهم عنوان، لهم بيت.»

ـ «وما ذنبي إذا لم يكن لي قصر ولا بيت ولا عنوان سوى مكان العمل.»

ـ «لا شأن لي بهذا، لقد فقدت أوراقك فانظر كيف تحصل على أخرى وأنا عليّ الالتزام بالتعاليم، ليس ذنبي. هل تناولت طعاماً؟»

ـ «كلا فأنا لا أملك نقوداً ولم أشحذ.»

ـ «انتظر لحظة واحدة.»

وقف وسار في الاتجاه الآخر للغرفة وعاد بعد دقائق وجلب لي بطاقة:

ـ «هذه بطاقة تخوّلك الحصول على وجبات طعام لثلاثة أيام في بيت البحّارة وحين تنفد يمكنك العودة مرة أخرى. حاول وجرّب حظك فقد تعثر على سفينة من جنسية أخرى. لا يجوز لي تقديم معلومات لذا يجب عليك اكتشاف الأمر بنفسك فأنا هنا لا سلطة لي مطلقاً فلست سوى خادم الدولة. آسف يا صديقي لا أستطيع تقديم المساعدة لك، أتمنى لك حظاً سعيداً، وداعاً.»

الرجل على حق، فربما لم يكن وحشاً شريراً ولماذا يجب على البشر أن يكونوا كذلك، أميل إلى الاعتقاد بأن الدولة هي الوحش. الدولة التي تسلب الأمهات أولادهن لكي ترمي بهم قرابين للطغاة. هذا الرجل هو في خدمة الوحش مثلما

الجلاد خادم للوحش. كل ما قاله الرجل كان قد تعلّمه حرفياً وعن ظهر قلب حين أدى الامتحان ليصبح قنصلاً. لقد أدى الامتحان بنجاح لأنه كان يعرف جواباً مناسباً وسريعاً أفحمني وأغلق به فمي على كل سؤال وجهته له. لكنه حين سألني إذا كنت جائعاً وهل تناولت طعاماً فقد عاد فجأة ليكون إنساناً وتوقف لوهلة عن كونه خادما للوحش. الجوع هو حاجة بشرية وإنسانية أما حيازة الأوراق فهو ليس إنسانياً ولا طبيعياً ولهذا جاء الفرق، وهذا هو السبب وراء توقف الناس عن أن يكونوا بشراً وتحوّلوا إلى أشكال مصنوعة من عجينة ورق لأن الوحش ليس بحاجة إلى بشر لأنهم سيسبّبون له الأرق والكثير من العمل بينما الأشكال المصنوعة من عجينة الورق سهلة التركيب والرّص والحشر في لباس موحّد كي تكون في خدمة الوحش ولتضمن حياة رغيدة لخدم الوحش. نعم يا سيدي.

6

ثلاثة أيام هي ليست دائماً ثلاثة أيام، إذ يمكنها أن تغدو قصيرة لتعادل يوماً واحداً مثل الثلاثة أيام التي حصلت فيها على طعام وفراش أنام فيه. كنت على وشك طلب وجبة الإفطار حين أدركت أنها انقضت. وحتى لو كانت قد طالت إلى عشرة أضعافها فلن أذهب مرة أخرى إلى القنصل، هل يتوجب علي الإصغاء مجدداً لأجوبته التي حفظها في الامتحان؟ بالتأكيد لن يكون في جعبته شيأً آخر ليقوله لي. لم يكن باستطاعته إيجاد سفينة لي، إذن ما الذي يجعلني أذهب لأتحمل الاستماع إلى خطاب عن حالي منه. أي نعم، قد أحصل منه على بطاقة طعام مجانية أخرى ولكن هذه المرة سيقدمها لي وهو يغمز ويلمز فيجعلني أغصّ في لقمتي قبل أن أضع الملعقة في صحن الحساء. هذه الأيام الثلاثة انقضت بسرعة أكبر بكثير من سابقاتها. ثم أن ذاكرتي أرادت الاحتفاظ

بمشهد الإنسان الذي كانه القنصل لحظة أبدى تعاطفه معي لوهلة حين زرته للمرة الأولى. لم أشأ فقدان ذلك الشعور. حتماً كان سيقدم لي مجدداً بطاقة الطعام المجانية بصفته خادماً للوحش، ولكان سيلقي عليَّ دروس الموعظة ويؤكد إنها آخر مرّة يمنحني فيها تلك المساعدة وان هناك الكثيرين من على شاكلتي يأتون للحصول عليها وانه لا يجوز لي الاعتماد عليها في تدبير شأني وإنما علي أن أسعى لأجد طريقي بنفسي. أفضّل الموت على الذهاب إليه وسؤاله مرة ثانية. آخ يا أيتها الروح المعذّبة، كم كنت جائعاً ومنهكاً بسبب النوم في زوايا الطرقات مطارداً في عزّ نومي من عسس الليل الذين يتربصون بأمثالي باحثين عنّا في خبايا الأماكن، حاملين معهم مصابيحهم اليدوية ليطردوننا. دائماً على أهبة الاستعداد وحتى في أعمق لحظات النوم يجب الحذر واليقظة من دوريات الشرطة وهي تجوب فتسمع وقع أقدامها على بعد خمسين خطوة لتهرب بجلدك قبل الإمساك بك لأنهم لو عثروا عليك فليس سوى معسكر العمل.

لا سفينة في الميناء بحاجة إلى رجل، وهناك المئات من البحّارة من أهل البلد يجوبون الميناء بحثاً عن عمل حاملين في جيوبهم أوراقهم الصالحة. لا عمل في المصانع و لا عمل في أي متجر وحتى لو وُجد لما استطاع رب العمل أن يهبك إياه دون أوراق، سيسألون: هل ثمة أوراق؟ كلا؟ أوه يا للخسارة، سيقولون، لا يمكننا منحك عملاً فأنت أجنبي.

ضد من يا ترى موجهة جوازات السفر وتأشيرات الدخول؟ ضد العمال. من هم المستهدفون من تحديد التنقّل والهجرة؟ العمال. ومن هو المسؤول عن إصدار القوانين ومن هم المتنفذون الذين بدعم منهم تُشرّع القوانين، تلك التي تحدّ من حرية الإنسان وتجبره على العيش في مكان لا يريده وتمنعه من الانتقال إلى ذلك المكان في الأرض الذي يرغب فيه، تلك القوانين التي صدرت بتدبير ودعم نقابات العمال. الوحش في الوحش، أنا أحمي ناسي ومن لا ينتمي لهم

فليذهب إلى الجحيم بل من الأفضل أن يفعله فأتخلص أنا بذلك من منافس. نعم يا سيدي. عندما يصل المرء إلى درجة معينة من الجوع والتعب فلا يعود بامكانه التمييز بين محافظ نقود أشخاص آخرين غير جائعين وبين محفظته الشخصية الخاوية التي لا يمكن مقارنتها أصلاً بمحفظة الشبعان إذ لا لبس في المسألة قط، وهكذا فسرعان ما يبدأ الجائع بالتفكير في محافظ نقود الشبعانين.

وقف رجل وسيدة عند واجهة إحدى المحلات وحين مررت قربهما سمعت السيدة تقول: **«قل لي يا فيبي أليست حقائب اليد المعروضة هنا رائعة فعلاً؟»** أجاب فيبي بكلمات غير مفهومة قد تكون تأكيداً لرأيها أو على العكس وكأنه يقول **«دعيني وشأني من هذا الهراء»**

- **«انظر إنها حقاً بديعة، فن هولندي قديم أصيل.»**

- **«صح.»**، قال فيبي بجفاف **«فن هولندي قديم أصيل صنع الأسبوع الماضي.»**

كان ذلك بالنسبة لي مثل الموسيقى؛ فقد تيقنت الآن فأسرعت الخطى ولم أتردد لحظة واحدة إذ أن أمامي في الشارع كنز من الذهب لكن فيبي أمسك بي بشدة وأنا أحاول سرقته وكأنه نفسه مارس النشل حين كان فقيراً. بدا لي أن فيبي قد استمتع بكلامي أكثر من استمتاعه بكلام السيدة زوجته أو صديقته أو...، حسناً يا سيدي لا تعنيني صلة القرابة بينهما، على أية حال استمتع كثيراً بقصتي فقد ابتسم ثم ضحك بصوت عال مثيراً فضول المارة الذين توقفوا للتفرّج علينا بسبب قهقهاته. ولو لم أحزر من لهجته من أول كلمة نطق بها لكنت حزرت من ضحكته العالية بأنه أمريكي، نعم لقد فضحته ضحكته، فهذه الضحكة لا يجيدها سوى أمريكي يملك مكتباً أو متجراً في مانهاتن، أي نعم إنهم يجيدون الضحك.

ـ «حسناً أيها الفتى لقد أحسنت سرد حكايتك.» قال ذلك ثم ضحك مرة أخرى وظننت لوهلة انه سيبكي وهو يستمع لقصتي الحزينة. لكنه ليس في مكاني ولا يمكنه الإحساس بمعاناتي ويبدو أنه نظر لحكايتي من الجانب الهزلي.

ـ «قولي لي يا فلوري»، التفت قائلاً لمرافقته، «أليست هي رائعة حكاية هذا الطائر الصغير الذي سقط من عشه. ما رأيك؟»

ـ «حقاً، إنه لطيف، من أين أنت؟ من نيوأورلينز؟ يا له من أمر لطيف جداً. عندي عمة تسكن هناك. يا فيبي هل سبق وان أخبرتك عن عمتي كيتي من نيوأورلينز؟ أظنني فعلت ذلك. انك تعرفها، تلك التي تبدأ أية جملة بقولها: عندما كان جدي يعيش في ساوث كارولينا..»

لم ينصت فيبي إلى ما كانت تقوله فلوري بل تركها تهدر مثل شلال اعتاد عليه ثم فتش في جيبه وأخرج منه دولاراً وقدمه قائلاً: «هذا ليس لقصتك بذاتها يا صويحبي وإنما للأسلوب الأمثل الذي سردت فيه الحكاية، قصة غير حقيقية تُروى بإحكام مقنع. إنها لموهبة أيها الفتى. أنت فنان، هل تدرك ذلك؟ في الواقع إنها لخسارة أن تبقى هكذا متسكعاً في أرجاء العالم فبمقدورك كسب الكثير من المال أيها الصديق العزيز هل تعلم ذلك؟ أليس هو بفنان حقيقي؟» قال ذلك ملتفتاً صوب، صوب.. حسناً لنقل زوجته فماذا يعنيني أمرهما في النهاية، لا شك انهما يحملان جوازي سفر بالمعلومات التي يرغبانها.

ـ «طبعاً طبعاً يافيبي» أجابت فلوري وهي في قمة المرح. «نعم انه فنان كبير حقاً. ما رأيك يا فيبي لو سألته كي يرافقنا هذا المساء إلى الحفلة ليسلّينا، حتماً ستتفوق بمعيّته على آل بيننتغتون التافهين.»

إذن إنها حقاً زوجته. لم يلق فيبي اهتماماً قط لهدر الشلال بل ابتسم ثم واصل الضحك ومد يده إلى جيبه مرة أخرى واخرج أوراق بنكنوت من فئة

دولار واحد. قدم لي ورقتين منها قائلاً: «**أي نعم، الأولى لأنك رويت قصتك بأسلوب ممتاز والثانية لأنك ألهمتني فكرة رائعة لأكتب عنها في صحيفتي. في الواقع إنها فكرة تساوي خمسة آلاف، طبعاً في يدي أنا ولكن في يدك ولا نكلة واحدة ولذلك أدفع لك بهذا نكلة مع نصيبك من الربح. شكراً لجهودك. وداعاً وحظاً سعيداً.**»

هذه كانت أول نقود أحصل عليها لقاء سردي قصة. نعم يا سيدي. مشيت أبحث عن مصرف فمقابل كل دولار تحصل على أربعة غيلدرات وهذا يعني ثمانية غيلدرات مقابل الدولارين. مبلغ صغير محترم. حين سلمت الورقتين وضع الصرّاف أمامي كومة أوراق من ثمانين غيلدرا. كانت مفاجئة حقاً فقد أعطاني فيبي ورقتين من فئة عشرة دولارات وقد أخذتها منه دون التمعّن بها في حضرته كي لا أثير فضوله متصوراً انه أعطاني ورقتين من فئة دولار واحد فقط. يا له من رجل نبيل، لتحّل عليه بركة وول ستريت إذن. مبلغ العشرين دولار هو مبلغ كبير إذا امتلكه المرء، ولكنه مبلغ تافه إذا اضطر المرء إلى إنفاقه خاصة إذا كان قد ذاق أياماً صعبة من الجوع والإرهاق والسهر والتشرّد. قبل أن يتسنى لي معرفة قيمة النقود كنت قد أنفقتها كلها. وحدهم الناس الذين يملكون الكثير من المال يعرفون قدر المال وقيمته لأن لديهم الوقت لفعل ذلك. كيف يتعلم الإنسان تقييم شيء يؤخذ منه سريعاً؟ ولكنهم يقولون في المواعظ دوماً أن المعدم ذاك الذي لا يملك شيئاً هو وحده يعرف قيمة القرش. من هنا جاءت الفوارق الطبقية.

7

وجاء ذلك الصباح بسرعة كبيرة، أسرع مما تصورت. جاء الصباح الذي بدا لي أنه آخر عهدي بالنوم على سرير. فتشت جيوبي الخالية إلا من ملاليم

قليلة تكفي لفطور شحيح جداً ناهيك عن وجبتي الغداء والعشاء اللتين لن أحصل عليهما؛ إذ أن رجلاً مثل فيبي لا يجده المرء كل يوم. لو قابلت شخصاً آخر فسأروي حكايتي باذلاً كل جهدي لتكون حكايتي هزلية جداً، فلربما دفعه ذلك إلى البكاء على حالي ورّق قلبه لي وتلهمه حكايتي قصة مماثلة لقصة فيبي تساوي خمسة آلاف دولار. يمكن دائماً الحصول على المال من الأفكار، سواء كانت تدعو إلى الضحك أو البكاء. هناك أيضاً الكثير من الناس الذين يفضّلون البكاء ومن أجل أن يحصلوا على فرصة للنحيب فإنهم مستعدون لدفع بعض الدولارات، تماماً مثلما يفعل آخرون ممن يفضلون المرح من أجل أن تتمتع عضلات وجههم بالضحك. الجود على النفس بالمتعة.

ما هذا الشيء؟ ألا يستطيع المرء الذي دفع نقوداً كي ينام على سرير البقاء فيه قليلاً مسترخياً بعد الاستيقاظ مباشرة وقبل أن يتوجب عليه ترك هذا العزّ لزمن طويل؟

ـ «دعني أنام، اللعنة على كل شيء، لقد دفعت ثمن النوم في المساء المنصرم قبل صعودي إلى المكان. والمفروض أن لا يثور الإنسان غاضباً من هذا الطلب وهو نائم في هذه الضوضاء والأبواب التي تقرع على الدوام.» وهاهو الباب يقرع من جديد، **«لعنة الله عليكم جميعاً، اغربوا عني أريد أن أنام.»** لو تجرؤوا على فتح الباب فسأقذف ببسطالي إلى وسط أفواههم، يا لهم من قوم تافهين ووقحين.

ـ «افتح الباب، هنا الشرطة، نريد التحدث إليك للحظة.»

يساورني شك حقيقي في وجود أناس في هذا العالم لا يعملون في الشرطة. الشرطة موجودة من أجل أن يستتب الأمن وكي لا يتعرض المواطنون إلى الاعتداء والإزعاج أو الشغب أو يُدفع بهم إلى الجنون إلا على أيديها هي. حقاً فليس هناك شر في العالم يُقترف أكثر من هذا الذي تقترفه الشرطة؛ فالجنود هم

في النهاية ليسوا سوى شرطة.

- **«ماذا تريدون مني؟»**

- **«نريد التحدث إليك.»**

- **«يمكنكم فعل ذلك من خلف الباب!»**

- **«نريد التحدث إليك وجهاً لوجه، افتح الباب و إلا سنحطمّه.»**

يكسرون الباب!! وهم من يفترض بهم حمايتك ممن يكسر الأبواب ومن اللصوص. حسناً سأفتح الباب. لم أكن قد فتحته فعلاً حتى وضع أحدهم قدمه في فتحة الباب. الحيلة القديمة صالحة للاستعمال دائماً من قبلهم ويفتخرون بها. يبدو أنها أول حيلة يتوجب عليهم إتقانها. دخل رجلان بملابس مدنية إلى الغرفة وجلست أنا على حافة السرير وقد هممت بارتداء ملابسي. كنت أستطيع التفاهم باللغة الهولندية؛ فقد خدمت على سفن هولندية كما تعلّمت هنا أيضاً الكثير، لكن هذا الطائران يتكلمان أيضاً بعضاً من الإنجليزية.

- **«أنت أمريكي؟»**

- **«نعم أظن ذلك.»**

- **«أرنا بطاقة البحّار.»**

يبدو أن بطاقة البحّار هذه هي مركز الكون، وأنا على ثقة من أن الحرب قد قامت فقط من أجل أن يُسأل المرء في كل بلد عن بطاقة البحّار هذه أو عن جواز السفر. فقبل الحرب لم يكن هناك من يسألك عن هذه البطاقة أو عن جواز السفر، وكان الناس سعداء حقاً. لكن الحروب التي قامت من أجل الحرية والديمقراطية وحق تقرير المصير كانت مثيرة للشك. مثيرة للشك منذ ذاك اليوم الذي خاض فيه البروس حروبهم التحررية ضد نابليون. حين تُربح

الحروب التحررية يخسر الناس بعد هذه الحرب كل الحريات، لأن الحرب هي التي تكسب الحرية. نعم يا سيدي.

- «ليس عندي هوية بحّار.»

- «لا ....تملك، تقول ليس عندك هوية بحّار؟»

سبق لي وأن سمعت هذه النبرة الخالية من الحماس وفي وقت صباحيّ مبكّر كهذا أردت فيه البقاء مسترخياً في الفراش،

- «لا.......أملك هوية بحّار.»

- «إذاً أرنا جواز سفرك.»

- «لا جواز سفر.»

- «وليس لديك أية أوراق أو هوية صادرة من الشرطة هنا؟»

- «ولا هوية صادرة عن الشرطة المحلية هنا.»

- «أنت تعلم بأن وجودك غير شرعي بدون أوراق رسمية صادرة من دوائرنا هنا في هولندا.»

- «لا أعرف ذلك.»

- «هكذا؟ لا تعرف ذلك؟ يبدو أنك قضيت الأعوام الماضية تعيش على القمر.»

من الواضح أن هذين الطائرين يظنان أنهما يخبراني بنكتة جيدة تستدعي الضحك العالي مني.

- «هيا ارتد ملابسك وتعال معنا.»

بودي أن أعرف إذا كانوا هنا يريدون شنقي أيضاً إذا عرفوا أني لا أملك بطاقة بحّار.

- «هل لدى أحد السيدين سيجارة لي؟» هكذا سألت

- «يمكنك الحصول على سيجار، فلا سيجارة عندي، ولكن يمكننا شراء السجائر في طريقنا. هل تريد السيجار؟»

- «أفضل السيجار على السيجارة.»

أثناء اغتسالي وارتدائي ملابسي كنت أدخن السيجار بينما جلس الاثنان ينتظران أن افرغ من عملي ولكنهما بقيا قرب الباب. لم أستعجل كثيراً وتمهلّت فيما أفعله، ولكن مهما تكن بطيئاً فلا بد أن تُنهي عملك. خرجنا ووصلنا إلى...؟ صح، لقد حزرت يا سيدي. وصلنا إلى مركز الشرطة. وطبعاً قاموا بتفتيشي بدقة ولكن هذه المرة حالفهم الحظ أكثر من زملائهم في انتويرب؛ فقد وجدوا عندي خمسة وأربعين سنتاً هولندياً، ملاليم الفطور، وهو ما سأوفره الآن.

- «ما هذا؟ لا نقود لديك سوى هذه؟»

- «كلا، ليس لدي غيرها.»

- «ومن أين كنت تقتات طيلة الوقت هنا؟»

- «من النقود التي أنفقتها ونفدت.»

- «إذن كانت عندك نقود حين وصلت إلى روتردام؟»

- «نعم.»

- «كم؟»

- «لا أعرف بالضبط. ربما مائتا دولار أو شيء من هذا القبيل، بل ربما كانت ثلاثمائة دولار.»

ـ «ومن أين حصلت على تلك النقود؟»

ـ «كنت قد ادخرت قليلاً.»

ويبدو أن جوابي هذه المرة كان نكتة جيدة أيضاً؛ فقد انفجر جميع أفراد العصابة الذين كانوا مجتمعين للتحقيق معي ضاحكين ولكنهم، كلهم، راقبوا باهتمام إذا كان الكاهن الكبير قد ضحك أيضاً. حين توقف هذا عن الضحك سكت الجميع فجأة كما لو أن صاعقة قد أصابتهم.

ـ «كيف دخلت هولندا أصلاً؟ هكذا دون أوراق، كيف جئت وعن أي طريق؟»

ـ «دخلت هكذا إلى البلد.»

ـ «كيف دخلت هكذا؟»

لم يصدقني القنصل حين أخبرته بالحقيقة، فكيف سيصدقني هؤلاء. كما أنه لا يجوز لي أن أفسد بهجة أولئك الشباب في بلجيكا، ولذا قلت:

ـ «جئت بطريق السفينة.»

ـ «وما اسمها؟»

ـ «اسمها.. اسمها جورج واشنطن.»

ـ «ومتى؟»

ـ «لم أعد أذكر التاريخ بالضبط؟»

ـ «هكذا؟ وصلت إلى هنا عن طريق الباخرة جورج واشنطن، هذه باخرة غريبة. فحسب علمنا لم تدخل باخرة بهذا الاسم إلى روتردام مطلقاً؟»

ـ «وما ذنبي أنا؟ فأنا لست مسؤولاً عن الباخرة.»

ـ «لا تملك أوراقاً ولا تحمل أية هوية، لا شيء البتة. لا تملك أي إثبات بأنك أمريكي؟»

ـ «كلا ولكن قنصلي...»

يبدو أنني كنت ألقي نكاتاً جيدة مثيرة للبهجة؛ فقد انفجر القوم ثانية في عاصفة من الضحك.

ـ «قنصلك أنت؟»

مط هذه الكلمة طويلاً كأنه أراد لها أن تكفي لمدة نصف عام من الزمن وقال:

ـ «ولكنك لا تملك أوراقاً، فماذا بإمكان قنصلك أنت أن يقدمه لك؟»

ـ «سيعطيني أوراقاً بكل تأكيد.»

ـ «قنصلك؟ القنصل الأمريكي؟ في هذا القرن من الزمان قطعاً لن يحدث هذا. ليس دون إبراز أوراق ثبوتية، أو، لنقل، ليس دون أن تكون إنساناً ذا شأن وليس صعلوكاً متسكعاً كما هو حالك.»

ـ «ولكني أمريكي.»

ـ «ربما. ولكن عليك أن تثبت ذلك لقنصلك وهو لن يصدقك وأنت لا تحمل أوراقاً بذلك، بل أنت غير موجود على الحياة أصلاً بدون أوراق. دعني أقول لك شيئاً، ولمعلوماتك فإن موظفي الدولة هم بيروقراطيون دوماً ولكن أسوأ البيروقراطيين هم البيروقراطيون الذين أصبحوا كذلك في الأمس القريب والأسوأ من هؤلاء كلهم هم البيروقراطيون الذين ورثوا البيروقراطية عن البروس. هل فهمت ما أعني؟»

ـ «نعم، أظن ذلك يا سيدي.»

ـ «ولو أخذناك إلى قنصلك وليس لديك أوراق فسيقوم هو بتسليمك إلينا رسمياً وبهذا لن يعود بمقدورنا قط التخلص منك. هل فهمت هذا أيضاً؟»

ـ «نعم، أعتقد ذلك يا سيدي.»

ـ «فماذا إذن نحن فاعلون بك؟ فمن يُلقى القبض عليه وهو لا يحمل جواز سفر يودع الحبس في معسكر للعمل لمدة ستة أشهر ومن ثم يسّفر إلى بلاده. قنصل بلادك سوف ينكرك فنرسلك إلى مخيم لدمج اللاجئين هنا لأنه لا يمكننا قتلك مثل كلب. ولكن ربما ستصدر قوانين بذلك مستقبلاً. ثم لماذا علينا إطعامك؟ هل تريد الذهاب إلى ألمانيا؟»

ـ «لا أحب الذهاب إلى ألمانيا لأن الألمان....»

ـ «لا تريد الذهاب إلى ألمانيا، هذا أمر يمكن تفهّمه. حسناً لحد الآن. »

حتماً لم يتحدث هذا الموظف إلا بعد تفكير طويل أو انه قرأ، كما هو واضح، أشياءً جيدة. نادى على شرطي وقال له:

ـ «أعده إلى الزنزانة وقدم له فطوراً ثم اشتر له صحيفة ومجلة إنكليزيتين حتى لا يشعر بالملل واجلب له علبة سجائر أيضاً.»

8

في بداية المساء جاءوا بي مرة أخرى وطلبوا مني أن أتبع الشرطيين ذوي الملابس المدنية. سرنا جميعاً إلى محطة القطارات واستقلينا قطاراً ثم ترجلنا في محطة بمدينة صغيرة وذهبنا إلى دائرة الشرطة فيها. هناك جلست على مصطبة ليتفرج علي رجال الشرطة المناوبين تباعاً كما يتفرج الناس على حيوان بقفص في حديقة الحيوانات. بين الفينة والأخرى كان أحدهم يتحدث إليّ قليلاً. وعند

الساعة العاشرة ليلاً تقدم نحوي رجلان وقالا:

- «لقد حان الوقت، هلّم بنا.»

مشينا طويلاً عبر حقول ومروج. أخيراً توقف الاثنان وتكلم أحدهما بصوت خفيض:

- «سر بهذا الاتجاه الذي أشير إليه، لا تحد عنه وسوف لن تصادف أحداً. لكن إذا حدث ورأيت شخصاً فتجنبه أو انبطح على الأرض مختبئاً حتى يمضي في سبيله، وبعد ذلك واصل السير حتى تصل إلى خط سكة حديدية فاتبعها حتى تصل بك إلى المحطة، فأبق هناك متوارياً حتى يبزغ الفجر. وحالما تلمح قطاراً يتهيأ للانطلاق، تقدم نحو شباك تذاكر السفر وقل جملة واحدة بالفرنسية «تذكرة درجة ثالثة إلى انفيرس» هل يمكنك حفظها؟»

- «نعم يمكنني ذلك. إنها سهلة.»

- «لكن لا تنطق كلمة واحدة زيادة عن ذلك. وحين تحصل على التذكرة تسافر إلى انتويرب وهناك ستجد حتماً سفينة ما حيث يحتاجون دوماً لبحّارة. خذ زوادة الطريق هذه وسجائر، واحذر من شراء شيء قبل وصولك انتويرب، خذ هذه مائة فرنكاً بلجيكياً.»

سلّمني رزمة ورقية فيها طعام ونقود وبضعة سجائر وعلبة كبريت كي لا اضطر إلى سؤال احد ليولع لي سيجارة أريد تدخينها.

- «لا تعد أبداً إلى هولندا لأنك لو فعلت فسيُرمى بك في الحبس لمدة ستة شهور، ثم يزج بك في معسكر للعمل. لقد حذرتك بوضوح وبحضور شهود، فاذهب وحظاً سعيداً.»

وجدت نفسي في حقل واسع في الليل. حظاً سعيداً!!

مشيت في الطريق الذي أرشدني إليه حتى تيقنت أن الرجلين لم يعودا قادرين على رؤيتي، أو إنها أقفلا عائدين. توقفت عن المشي وطفقت أفكر.

إلى بلجيكا؟ هناك ينتظرني سجن مؤبد. أعود إلى هولندا؟ فهناك ستة شهور حبس في انتظاري يليها معسكر العمل ولمن لا يملك جواز سفر أو هوية ربما سجن مدى الحياة، فلماذا مثلاً تريد هولندا أن تكون مختلفة في هذا الشأن عن بلجيكا؟ بعد تفكير وجدت أن هولندا هي أهون الخيارين، ناهيك أني أستطيع تدبّر أمر اللغة في حين لا أفقه شيئاً في بلجيكا ولا أستطيع الكلام مطلقاً بلغتها. وهكذا سرت مسافة على جانب الطريق لمدة نصف ساعة تقريباً ثم عرجت عبر الحقل عائداً إلى هولندا. تصوّر السجن المؤبد كان أمراً مرّاً. تقبلّت فكرة العودة وواصلت السير حثيثاً.

ـ «قف! قف فوراً وإلاّ سأطلق الرصاص.»

ممتع حقاً أن يصدر صوت في الظلام يعلن أن الرصاص سيطلق. لم يكن الرجل ليصيبني بل لم يكن قادراً على رؤيتي، ولكن رصاصة طائشة قد تصيب هدفها أيضاً وهذا سيكون حتماً أسوأ من السجن المؤبد.

ـ «ماذا تفعل هنا؟»

ظهر رجلان فجأة من الظلمة متقدمين نحوي وأحدهما هو الذي سألني عما أفعل هناك.

ـ «أتمشى قليلاً لأن الأرق يساورني.»

ـ «ولماذا تتمشى هنا عند الحدود؟»

ـ «لم أر الحدود إذ لا وجود لسور.»

سلّطا على وجهي ضوء مصباحين كشّافين مرة واحدة ثم فتشاني. ترى ما الذي يريدوه الناس دائماً من التفتيش، وحين لم يجدا معي شيئاً سوى شرائح الخبز بالزبدة والمائة فرنكاً والسجائر، ظل أحد الرجلين واقفاً إلى جانبي في حين ذهب الثاني ليتفحّص بمصباحه الكشاف الطريق الذي أتيت منه.

- **«وإلى أين تريد حضرتك؟»**

- **«أريد العودة إلى روتردام.»**

- **«الآن؟ ولماذا الآن في منتصف الليل وهنا بالذات، عبر المرج، لماذا لا تسير في الشارع؟»**

كأنه لا يجوز للمرء السير ليلاً عبر المروج. للناس آراء غريبة بل هم دائماً في شك من أن يكون المرء قد ارتكب جرماً ما. لقد أخبرتهم إني قادم من روتردام وشرحت لهم كيف جئت ولكنهم ثاروا وغضبوا وقالوا لا يجوز لي أن اسخر منهم لأنهم يعرفون تماماً بأني قادم من بلجيكا وأريد أن أتسلل إلى هولندا. وحين أخبرتهم إن المائة فرنكاً التي بحوزتي هي الدليل على أني صادق في أقوالي، إلا أن ذلك زادهم غضباً مؤكدين أن تلك الفرنكات هي الدليل على كذبي وأنها الإثبات على إنني قادم من بلجيكا لأن الناس في هولندا لا يتعاملون بالفرنك ناهيك عن قولي أن موظفين حكوميين هولنديين هما اللذان أعطياني إياها وجلباني ها هنا إلى الحقل في منتصف الليل بل وهدداني بالحبس ورفع دعوى ضدي بتهمة إهانة موظفي الدولة. غير أنهما رأفا بحالي لأني، كما هو واضح، رجل مسكين لم يكن ينوي تهريب شيء، ولهذا أرادا أن يرشداني إلى الطريق الصحيح الذي جئت منه حتى أتمكن من العودة إلى انتويرب. هكذا كانوا لطفاء معي أولئك الناس.

الآن أصبح لزاماً عليّ الذهاب إلى بلجيكا فعلاً، لا مفر من ذلك، آه لو لم تكن عقوبة المؤبد موجودة.

مشيت لساعة من الزمن فتعبت وتعثرت في طريقي، كان بودي أن استلقي في مكاني وأنام لكنني فضّلت مواصلة السير كي أغادر مناطق الخطر حيث إطلاق النار مسموح به على غير المسموح له بإطلاقه. فجأة أمسك شيء ما بساقي، فكرت أنه كلب، ولكني حين تبينت الأمر ظهر أنها يد وبدأ المصباح الكشاف من جديد يتفحص. هذا الشيء هو اكتشاف الشيطان إذ لا يراه المرء إلا حين يكون أمام العينين تماماً. يقف رجلان كانا ممددين مختبئين في المرج وجئت أنا لأقع في أيديهم.

ـ «إلى أين تريد الذهاب؟»

ـ «إلى انتويرب.»

كانا يتكلمان اللغة الهولندية أو ربما لغة الفليمنغ

ـ «تريد الذهاب إلى انتويرب؟ لماذا لا تسير في الشارع النظامي كما هو حال الناس المحترمين؟»

أخبرتهم قصتي وبأنني لم أختر هذا الطريق طوعاً وليس بإرادتي الحرة، وحدثتهم عن تفاصيل ما جرى معي.

ـ «يمكنك أن تخبر آخرين هذا الهراء. الموظفون الحكوميون لا يفعلون ذلك. لقد ارتكبت جرماً ما في هولندا وتريد الهرب، ولكن هيهات لك ذلك. سنفتش جيوبك أولاً لنرى ما الذي حدا بك للمجيء إلى هذا المرج للسير باتجاه الحدود في هذه الساعة من الليل.»

لم يجدا لا في جيوبي ولا في ثنايا الملابس ما كانا يبحثان عنه. ليتني أعرف لماذا يفتش الناس دائماً في الجيوب، إنها لعادة سيئة حقاً من هؤلاء الناس.

ـ «نحن أعلم بما نبحث عنه، لا تقلق لهذا الشأن.»

لست عالماً بالأشياء ولكنهما لن يجدا شيئاً، غير أني متيقن من أن نصف الإنسانية، من الآن وحتى نهاية العالم، تقوم بتفتيش جيوب النصف الآخر الذي يتوجب عليه قبول ذلك. ربما الصراع الدائر بين البشرية قائم على خلاف يسأل عمّن له الحق في تفتيش جيوب الآخر وعمّن يقع عليه واجب قبول فعل هذا بحقه وأن يدفع ثمن ذلك أيضاً. بعد أن انتهت المساءلة الرسمية قال لي أحد الرجلين:

ـ «هناك في ذاك الاتجاه، الطريق إلى روتردام، اذهب الآن في هذا الطريق واحذر أن نمسك بك ثانية هنا، وإذا رأيت شرطة حدود فلا تسخر منها كما فعلت معنا.»

ـ **«ولكني قطعاً لست هنا بإرادتي الحُرَّة.»** قاطعته وأنا أعلم أني على حق فيما أقول.

ـ **«غريب، هذا ما يدّعيه كل واحد منكم نعثر عليه هنا»**

هذا أمر جديد، يبدو أني ربما لست الوحيد الذي توجب عليه التسكع في الجزء الغريب من الأرض.

ـ **«والآن هيا انصرف وكفّ عن السير في طرق ملتوية، فالفجر سينبلج قريباً وسيمكننا مراقبتك جيداً. روتردام مكان جيد وفيها ستجد سفناً كثيرة بحاجة إلى عامل دوماً.»**

كم من المرات قيل لي هذا، بحيث أصبح محتّماً، وبسبب تكرار نفس الكلام، أن تتحول القصة إلى حقيقة علمية راسخة. كما لم أستطع التصّرف بمبلغ المائة فرنك التي في حوزتي وإلا سألفت الأنظار إليّ في تلك المدينة الصغيرة.

جاءت عربة بائع حليب وركبت فيها فأقلتني مسافة من الطريق. ثم جاءت

شاحنة نقل فنقلتني مسافة أخرى على الطريق، وأخيراً ركبت مع فلاح كان ينقل خنازير إلى المدينة، وهكذا اقتربت ميلاً بعد ميل من روتردام. اكتشفت أن الناس حين لا يكونون من أفراد الشرطة أو من المحسوبين عليهم يتحولون إلى مخلوقات لطيفة جداً، مخلوقات تفكر بعقلانية وتتمتع بمشاعر طبيعية جداً. أخبرت أولئك الناس قصتي بحذافيرها وما جرى لي، وأخبرتهم أن لا أوراق ثبوتية عندي، وكلهم كانوا متعاطفين معي وقدموا لي الطعام والشراب ووجدت لديهم ركناً جافاً دافئاً أنام فيه، وقدموا لي النصح الخالص قائلين أن من الأفضل لي أن أتجنب الشرطة. يا للغرابة! لا أحد يحب الشرطة، وحين يطلب أحدهم الشرطة فان ذلك يحدث فقط إذا تعرض بيته للسرقة، لأنه من غير المسموح للفرد أن يعاقب اللص بنفسه ليلقنّه درساً ويستعيد منه ما سرقه.

9

تحويل الفرنكات إلى غيلدرات هولندية لم يكن لينفعني كثيراً، إذ إن الاعتماد على المال وحده ليس بكاف طالما لا يملك المرء شيئاً آخر إلى جانبه. وهذا الشيء الآخر جاء في عصر اليوم الذي تلا مباشرة. كنت أتمشى في الميناء فلمحت رجلين آتيين نحوي. وحين اقتربا منيّ استطعت أن استرق السمع إلى بعض من حديثهما. كم هو مضحك وأنت تستمع إلى كلام الإنجليز. الإنجليز يدّعون دوماً أننا لا نتكلم الإنجليزية الصحيحة، ولكن الذي يتحدثون به هو قطعاً ليس الإنجليزية بل ليس لغة على الإطلاق. لا أطيق شم رائحتهم بتاتاً ولكن هم من ناحيتهم لا يستطيعون هضمنا أيضاً. وبهذا تتوازن المسألة، وكذا هو الحال منذ أكثر من مائة وخمسين عاماً والحرب هي التي جعلت الأمور أكثر سوءاً. يصل المرء إلى ميناء ما فيجدهم جالسين يصرخون وكأنهم يملكون العالم، في أستراليا أو ربما في الصين أو أي مكان آخر يصدف أن يكون فيه،

وعندما يرغب المرء أن يشرب نخب شيء ما فيذهب إلى حانة في الميناء. هاهم هناك جالسون وواقفون وما إن يفتح المرء فمه بكلمة حتى يبدأ المرح:

- «هه أيها اليانكي!»

في الواقع لا يريد أحدنا سوى شرب زجاجته الصغيرة ومواصلة السير في طريقه. وعلى حين غرة تصدر ضوضاء من زاوية ما:

- «من ربح الحرب أيها اليانكي؟»

ليتني أعرف ما علاقتي بذلك، أنا لم أربحها، وهذا ما أعرفه حق المعرفة، بل حتى الذين ظنوا أنهم كسبوا الحرب لا يرغبون في أن يذكّرهم أحد بها.

- «هيه أيها اليانكي، أنت بحار ذكي، قل للعالم من ربح الحرب.»

وما علاقتي بهذا؟ أنا أشرب كأسي وسأطلب المزيد. حين كنت صغيراً علّمتني أمي أن أتجنب الأولاد الأشرار والمشاكسين والباحثين عن المشاكل. والآن هنا ما يزيد عن العشرين منهم يعربدون وأنا وحدي وليس معي أي رفيق من سفينتي وليس من المحتمل أن يأتي أحدهم إلى هنا في هذه اللحظة.

- «هيا يا أدميرال، أخبرنا الحقيقة، من ربح الحرب؟»

عادة لا أنظر مجرد النظر إلى السكارى والمعربدين، بل أعاقبهم بالإهمال وعدم الإحترام لكنهم لا يتركونك وشأنك، لايتركون رجلاً يشرب بسلام سيما إن كان جالساً بمفرده ولست متأكداً أن البارمان لن ينحاز اليهم. أظن أنه لا بد أن أقول شيئاً مهما كان الثمن فشرف وطني على المحّك. لكن ماذا بوسع الإنسان أن يقول، إن قلت «نحن ربحنا الحرب» ينشب عراك، وإذا قلت الفرنسيون ستنشب معركة كبيرة أيضاً وإذا قال المرء «أنا ربحت الحرب» سيضحكون والعراك سينشب وبعده الحبس على الأغلب ثم المستشفى. وإذا

قلت الدومينكان وكندا وأستراليا ونيوزيلاند وجنوب أفريقيا فالعراك واقع لا محالة، وحين يصمت المرء فإن هذا يعني أننا الأمريكيون كسبنا الحرب وحتماً ستكون المعركة أكبر بكثير، أو أن يقول المرء إنكم ربحتم الحرب فستكون تلك كذبة كبيرة والكذب غير جائز والنتيجة نشوب مشاجرة ولا مجال لتجنبها قط. هذه الطريقة التي يتعاملون بها مع الرجال المهّذبين الذين اعتبروهم أبناء عمومتهم فيما وراء البحّار حين كانوا بحاجة ماسة إليهم. كلا هؤلاء ليسوا أبناء عمي، كلا يا سيدي. كيف لا نكرههم ولكن ما الذي بوسعي فعله؟ كان لا بد أن اكون ودوداً معهم، فسألت:

ـ «من أي دلو أنتم يا شباب؟»

ـ «ماذا تفعل هنا أيها اليانكي؟ فنحن لم نر أحداً منكم هنا.»

ـ «لقد علقت هنا بسبب إمرأة ووالدتها المريضة.»

ـ «ولا خيار أمامك؟»

ـ «قد حزرت، هلا أخذتوني معكم؟.»

ـ «ممكن أن نتدبر الأمر، هناك مكان لزميل بحار دوماً.»

ـ «وما هي وجهتكم؟» هكذا سألت.

ـ «إلى لشبونة ومالطا ثم إلى مصر، لكننا لن نأخذك أبعد من بولوني سور مير في فرنسا ومن هناك عليك أن تجد مصيرك بنفسك، فالقبطان رجل سيء ولولاه لأخذناك في نزهة حول العالم.»

ـ «بولوني مناسبة جداً لي، متى تنطلقون؟»

ـ «اسمع، تعال إلى السفينة في الساعة الثامنة مساءً فيكون القبطان ثملاً جداً ولن يلحظ شيئاً. وأنا سأنتظرك واقفاً عند الحاجز، قف هناك وراقبني فإذا

رأيتني أدفع ببرنيطتي خلف رأسي فمعنى ذلك أن كل شيء على ما يرام، وإذا لم أفعل شيئاً فعليك الانتظار قليلاً. لكن لو صادف وأمسك بك أحدهم على السفينة فلا تفشي السر لأحد، كلمة شرف؟»

في الثامنة تماماً كنت هناك والبرنيطة دُفعت إلى خلف الرأس. القبطان كان سكراناً وظل كذلك حتى وصلنا بولوني سور مير. حوّلت نقودي إلى فرنكات فرنسية ثم ذهبت إلى المحطة فرأيت قطار باريس اكسبريس فاشتريت تذكرة سفر إلى أول محطة في الطريق إلى هناك.

الفرنسيون مؤدبون جداً ولا يضايقون مسافراً، وهكذا وجدت نفسي في الطريق إلى باريس. لكن التذكرة التي معي لم تكن صالحة للوصول إلى باريس وجاء مفتش.. شرطة مجدداً؟ طبعاً، كيف يمكن أن تسير الأمور من دون شرطة. كنت أعرف بضع كلمات بالفرنسية وهم، كل منهم، يعرف كلمة بالإنكليزية. كان عليَّ أن أحزر معظم ما قيل، من أين جئت؟ من بولوني. كيف جئت إلى بولوني؟ على متن سفينة. وأين هي بطاقتي كبحّار؟ لا املكها.

ـ «ماذا؟ لا بطاقة لديك، تقصد أن لا...»

ـ «لا بطاقة لدي.»

هذا السؤال كنت سأفهمه حتى لو قيل لي بالهندوستاني، لأن الإيماءات المصاحبة للسؤال ونبرة الكلام هي متطابقة ونفسها دائماً ولا يمكن فهمها فهماً خاطئاً، فحتى طريقة رفع الحواجب التي ترافق طرح السؤال هي دائماً عينها عند رجال الشرطة والبيروقراطيين أينما كانوا في جميع أنحاء العالم.

ثم لا جواز سفر ولا هوية شخصية ولا ورقة إطلاقاً، لم أملك أوراقاً البتة. نطقت بذلك كله دون توقف حتى أوفّر عليهم عناء السؤال الذي سيقضون به وقتهم. لوهلة دهشوا، حقاً سيمكنني أن أنجح في أي امتحان لدائرة الهجرة

لأنني حصلت على أفضل تمرين يمكن للرجل الحصول عليه.

أُسقط في يدي الشرطة للوهلة الأولى ولم يبق شيء ليسألوني عنه، لكن لحسن حظهم بقي السؤال عن تذكرة السفر بالقطار التي لم أكن أملكها كذلك. تكرر الاستجواب في اليوم التالي فتركتهم يسألون ويستجوبون ويتكلمون ولم أفهم كلمة واحدة مما قالوا. في نهاية الأمر فهمت أنهم سيودعونني في الحبس لمدة عشرة أيام بسبب التحايل والسفر بالقطار دون حيازة تذكرة السفر الصحيحة أو شيء من هذا القبيل، لكنني لم أكن لأبالي قط. فيما بعد علمت أن المرء قد يدخل السجن في فرنسا لمدة سنتين لنفس السبب غير أن أحدهم أيقن خلال المحكمة بأني كنت أغبى من أن أفقه القانون الفرنسي، ومن الظلم أن أُحكم بسنتين سجناً. هذا هو الترحاب الذي يحظى به مواطن أمريكي صالح كان راغباً بمدّ يد العون للفرنسيين لينالوا الديمقراطية. المهم فهمت لاحقا بأنهم حكموني بالحبس عشرة أيام بتهمة الاحتيال والسفر دون شراء تذكرة. على أية حال فقد وصلت باريس.

اليوم الأول: جرى تسليمي إلى إدارة الحبس. الاستحمام، يلي ذلك الفحص الطبي وتسلّم الأغطية وملابس الحبس وتوزيع السجناء على الزنزانات. انتهى اليوم الأول.

اليوم الثاني: التوقيع على وصل إيداع المبلغ الذي وجدوه بحوزتي في خزينة السجن. رافق ذلك تحرير محضر دقيق بهذا الشأن: مصدر النقود، عدد القطع المعدنية وهل تلك هي بعينها القطع حسبما أتذكرها. كتبوا ذلك في دفاتر سميكة ثم سألوني عن الحاجيات الثمينة التي قد تكون معي والتي لا أملك شيئاً منها، وبرغم ذلك كان علي أن أضع توقيعي المرة تلو الأخرى على عشرات المحاضر.

بعد الظهر نودي علي لأمثل أمام قس السجن الذي تحدث بلغة إنكليزية جيدة، كما زعم. المهم، لم أفهم كلمة واحدة من تلك الإنكليزية الجيدة غير أني

أبديت كياسة أكثر مما كنت أبديه وأنا في وطني لأنهم هناك يصفون الذي يبدي كياسة بالسخف. وهكذا لم أجعل القس يلحظ عدم فهمي لما كان يقوله. كان ينطق كلمة الرب وكأنه ينطق كلمة مُعْزاة ولكن ما كان الأمر ليعنيني. انقضى اليوم التالي.

اليوم الثالث: في الصباح، سألني قرابة خمسة عشر شرطياً عما إذا كنت أعرف كيفية خياطة الأحزمة على أطراف المآزر. وفي كل مرة كنت أجيب بالنفي واني لم أقم بذلك في حياتي. بعد الظهر، استدعاني ثمانية أو ربما تسعة من موظفي السجن ليخبروني بأنه تم فرزي إلى ورشة الخياطة كي أعمل في خياطة الأشرطة على المآزر. انتهى اليوم الثالث.

اليوم الرابع: الحضور صباحاً إلى المخزن لاستلام مقص وإبرة وحوالي خمس ياردات من الخيوط وأشرطة من القماش وكشتبان صغير لم يناسب أياً من أصابعي. وحين شكوت، أمروني بالسكوت وأخبروني أن لا كشتبانات أخرى لديهم تتناسب وميزاتي الخصوصية. بعد الظهر أوصوني بوضع أدوات الخياطة التي أتسلمها على طاولة صغيرة على أن تبقى الطاولة في حقل الرؤية وسط الزنزانة حين أغادرها للتريض صباحاً في باحة السجن. على باب الزنزانة من الخارج علقت يافطة تقول أن في الزنزانة عدة خياطة مؤلفة من إبرة ومقص وخيوط وكشتبان. كنت ملزماً بوضع توقيعي في عدة دفاتر وفي كل مرة يسألونني إذا كانت الإبرة مازالت بحالة جيدة وصالحة للعمل وإذا ما كنت بحاجة إلى أخرى. بعد الظهر جرى إرشادي إلى كيفية رصف أدوات الخياطة على الطاولة في الزنزانة رصفاً يتيح للناظر من الخارج أن يراها عبر ثقب في باب الزنزانة. قضيت العصر وأنا أتدرب على ترتيب الحاجيات على الطاولة ظناً مني أني أقوم بذلك بالشكل المطلوب، لكن الضابط كان يخبرني في

كل مرة إنَّ ما قمت به ليس جيداً، فيتوجب علي إعادة الكرّة تلو الكرّة حتى أنال رضاه. وبرغم إعلانه الرضا أخيراً فإنه أبدى ملاحظة حول طريقتي في التنظيم موضحاً أنها لم تكن دقيقة تماما. انتهى اليوم الرابع.

اليوم الخامس: الأحد.

اليوم السادس: في الصباح تم اقتيادي إلى ورشة الخياطة وبعد الظهر قادوني إلى مكاني في الورشة. انقضى اليوم.

اليوم السابع: قبل الظهر جرى تقديمي إلى السجين الذي أنيطت به مهمة تعليمي خياطة الأشرطة على أطراف المآزر حيث طلب مني أن أدخل الخيط في ثقب الإبرة. انتهى اليوم أيضاً.

اليوم الثامن: استعرض المعلّم أمامي كيفية خياطة الأشرطة على أطراف المآزر. بعد الظهر موعد الاستحمام والصعود إلى الميزان للتحقق من الوزن. مر اليوم كذلك.

اليوم التاسع: استدعاء للمثول أمام المدير حيث جرى إعلامي بأن فترة الحبس تنتهي في الغد، وسألني إذا كانت لدي ثمة شكوى أو ملاحظة، ثم كان علي أن اكتب اسمي في سجّل الغرباء. وبعد الظهر واصل المعلّم درسه في تعليمي كيفية خياطة الأشرطة. انقضى اليوم.

اليوم العاشر: في الصباح أنجزت خياطة شريط القماش على مئزر وتفحصه المدرب لمدة ساعة ونصف الساعة ثم قرر أن عملي لم يكن متقناً، ولذلك قام بقص الخيط وفصل الشريط. بعد الظهر وجب علي إعادة خياطته، وما كدت أنتهي من ذلك حتى نودي علي للقيام بإجراءات إطلاق السراح. وزنوني أولاً ثم فحصوني وأعادوا لي ملابسي وسمحوا لي بارتدائها والخروج إلى الباحة للتريض. انتهى اليوم العاشر.

في تمام الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، سألوني إن كنت راغباً في تناول الفطور. وحين أجبت بالنفي اقتادوني إلى غرفة أمين الصندوق حيث توجب علي الانتظار لوهلة لأن أمين الصندوق لم يكن قد حضر بعد، ولهذا حصلت على فطوري في فترة انتظاره. حين جاء أمين الصندوق أعاد لي نقودي مقابل توقيع على وصل استلام ثم سلّمني خمسة عشر سنتيماً هي أجري مقابل عملي في ورشة الخياطة. أطلق سراحي وغادرت.

الدولة الفرنسية لم تكن لتكسب حقاً من وراء عملي في الورشة، وأشك أيضاً باقتناع شركة السكك الحديد الفرنسية بأنها، بهذه الطريقة، قد حصلت على تعويضها لثمن بطاقة السفر الذي لم أدفعه.

لم أبتعد سوى بضع خطوات حتى لاقاني شرطيان قالا أنهما كانا في انتظاري من أجل أن يخبراني بوجوب مغادرتي البلاد خلال خمسة عشر يوماً وتماماً بنفس الطريق الذي دخلت به البلاد. وحذراني من مغبة بقائي هنا بعد انقضاء تلك الفترة وأن القانون لن يرحمني آنذاك وأنهم سيتخذون إجراءً مختلفاً معي، وهو ما لم أفهمه بالضبط. لعلهم كانوا يقصدون شنقي أو حرقي أو ربما إرسالي في زورق إلى جزيرة الشيطان أقبع فيها حتى الموت. لم لا؟ ففي عصر الديمقراطيات المكتملة فإن الشخص الذي لا يملك جواز سفر وبالتالي لا يحق له الانتخاب هو مارق كافر لا يستحق الإدلاء بصوته. لكل عصر مارقون وعاصون ولكل مارق محاكمته التفتيشية. اليوم، أصبح جواز السفر وتأشيرة الدخول وطريق الهجرة هي العقائد الراسخة التي يتوجب الإيمان بها. في الماضي كان الأمراء والنبلاء هم الطغاة، أما اليوم فالدولة هي الطاغية ونهاية الطغيان هي الثورة دائماً، بغض النظر من هو الطاغية، فالحرية هي صفة بشرية لصيقة بفطرة الإنسان وكينونته وتدعوه دوماً للثورة على الاستبداد حتى لو ارتدى هذا حلّة مخملية كاذبة توحي بمشاركة الشعب في تقرير مصيره.

«لا بد أن تكون هناك ورقة ما بحوزتك تقول من أنت يا صاحبي» قال الشرطي. «لا يجوز لك التجوال هكذا دوماً من دون ورقة ما».

ـ «ربما استطعت الذهاب إلى القنصل، قنصلي.»

ـ «قنصلك؟»

لهجة ورّنة الكلام هذه أعرفها جيداً، إذ يبدو أن قنصلي هذا معروف لدى العالمين جميعاً.

ـ «وماذا تريد أن تفعل عند «قنصلك»؟ فلا أوراق لديك ولن يصدق كلمة واحدة منك دون أوراق ثبوتية. الأوراق هي وحدها الأساس في حصولك على شيء. من الأفضل عدم ذهابك إلى هناك لأننا والحالة هذه لن نتخلص منك أبداً وستبقى عبئاً علينا.»

ماذا كان الرومان ليقولونه في هذا المجال؟ إن مهمة القناصل هي الحفاظ على الجمهوريات من الشرور، ولكن الشرور كانت ستصل إلى الجمهوريات لو عجز القناصل عن الحيلولة دون أن يرى المواطن الذي لا يحمل أوراقاً وطنه مجدداً.

ـ «لا بد أن يكون بحوزتك أية ورقة، إذ بدونها لن يمكنك التحرك مطلقاً».

ـ «أعرف ذلك.»

ـ «وأنا لا أستطيع أن أصدر لك أية أوراق، وعلى أي أساس؟ كل ما أستطيع أن أقدمه لك هو ورقة إخلاء سبيل من الحبس وهي ورقة لن تنفعك مطلقاً فالأفضل نسيانها. ولكن لو كان بمقدوري إصدار وثيقة ما لك لما استطعت سوى تثبيت ملاحظة عليها تقول أن حاملها يدّعي أن أصله كذا وكذا وستكون غير نافعة هي الأخرى. حتى لو كانت المعلومات صحيحة فلن تعود عليك بالنفع. آسف جداً، لا يمكنني تقديم المساعدة وها أنا قد أنذرتك بوجوب

مغادرة البلاد. إذهب إلى ألمانيا، فهي بلد جميل كذلك.»

ليتني أفهم لماذا يصر الجميع على ذهابي إلى ألمانيا.

10

بقيت في باريس بضعة أيام أنتظر المجهول، فالمجهول، والأحداث قد تساعد المرء أفضل مما تفعله أجمل الخطط. الآن صار لي حق التمتع بمشاهدة باريس؛ فقد دفعت ثمن التذكرة بالحبس وكسبت قوت يومي أثناء الحبس بعرق جبيني وهكذا فلا فضل للدولة الفرنسية علي ويحق لي التجّول في شوارع عاصمتها.

حينما لا يكون للمرء ما يفعله فكل ما يخطر على البال من أفكار يأتي مجتمعاً على غرة؛ إذ دفعتني واحدة منها إلى قنصلي مع علمي المسبق أن لا فائدة من هذا المشوار لكني فكرت مع نفسي أن لا ضير من التجربة. كل قناصل العالم تم صبّهم في نفس القالب الذي يُصنع منه موظفو الدولة في أي مكان، فهم يستخدمون نفس طريقة الكلام ونفس المصطلحات التي استخدموها أثناء أداء الامتحان، وهكذا يصبح هؤلاء محافظين ومتسلطين وملتزمين ولا مبالين وضجرين وشديدي الحزن في ذات الوقت والمناسبة، ثم يغدون مرحين وودودين وثرثارين في مناسبة أخرى سواء كان القنصل في خدمة أمريكا أو فرنسا أو إنكلترا أو حتى الأرجنتين. حكمة القنصل تكمن في معرفة اللحظة التي يمكنه فيها كموظف دولة استخدام واحدة من تلك الخصال. ومع ذلك فإنَّ أياً منهم ينسى لوهلة قصيرة تلك الحكمة، فيتحول لنصف دقيقة من الزمن إلى إنسان بحيث يصعب التعرّف عليه سيما حين يبدأ بإظهار جلده الداخلي غير المتقرّن. اللحظة المثيرة تبقى تلك حين يشعر هو بنفسه أن جلده الإنساني بات ظاهرا مرئيا لذا سرعان ما يعود إلى إضفاء التقرّن عليه. ومن أجل أن أعيش

لحظة التحوّل تلك، ذهبت إلى القنصل. كانت المخاطرة قائمة في أنه سينكرني ويسلّمني إلى الشرطة الفرنسية رسميا ويحرمني بذلك من حرية الاختيار، وسأكون ساعتها تحت رحمة الشرطة ومراقبتها لحركاتي. انتظرت في صف طويل دون أن يأتي دوري ثم أغلقت القنصلية أبوابها في فترة الغداء ولم أفلح بعد الظهيرة في الدخول إليها. على الناس أمثالي أن ينتظروا بغض النظر من أين جاءوا؛ فمن لا يملك شروى نقير يُنتظر منه أن يملك مقابل ذلك الكثير من الوقت، ومن يملك المال يمكنه تسوية الأمور بماله، ومن لا يمكنه ذلك عليه تسوية ذلك بالوقت والصبر. لكن حين يفقد المرء صبره ولا يعود قادراً على الجلوس منتظراً الأمر الذي لا يحبه الآخرون، فيبدأ الموظف الحكومي هذا باختراع الأعذار تفادياً لمقابلتك ويصبح وقت انتظارك أطول ولذلك لا بد من الصبر والهدوء حتى لا تثير حنق الآخرين فتتضاعف عقوبتك. كان هناك عدد كبير من هؤلاء الذين لا يملكون سوى الوقت. بعضهم كان يجلس منذ أيام، وآخرون كانوا قد جاءوا مرات عديدة لأن أوراقهم ينقصها هذا أو ذاك أو لا تتناسب مع الأصول والإجراءات المطلوبة.

في غرفة الانتظار الصغيرة جلس رجال ناحلو الجسد ممن اعتادوا العمل على المصاطب الخشبية والتصقت ظهورهم بالجدار الذي يزينه العلم ووجوههم البائسة تبحث عن أمل بفرصة للعمل برغم تعابيرها المثقلة بالخشية، وكأن أحكاماً بالموت تنتظرهم خلف تلك الأبواب الموصدة. دخول هذه السيدة البدينة كان بمثابة صفعة إهانة لكل أولئك البائسين. شعر السيدة البدينة كان أسود ولامعاً ومموّجاً، أنفها كان كما ساقاها معوجاً وعيناها البنيتان كعيني ضفدع، أما ملابسها فتنّم عن ثراء فاحش وجسدها مثقل بالحلي الغالية يخال المرء أن أصابعها ستتساقط لولا خواتم البلاتين الكثيرة التي تحول دون ذلك. وحالما دخلت الغرفة صرخت قائلة أنها أضاعت جواز سفرها وسألت أين يكون السيد القنصل: «أريد رؤيته فوراً».

يا أيتها السيدة، أناس آخرون أضاعوا جوازات سفرهم. كنت ساذجاً حينما ظننت أن أمراً كهذا يحدث للبحّار فقط. حسناً، انتظري أيتها الطروب حتى تري ماذا سيقوله لك السيد القنصل حول حصولك على جواز جديد، فربما حان دورك لاستكمال خياطة أشرطة المآزر التي تركتها في ورشة الحبس. ولوهلة شعرت بتعاطف مع تلك السيدة، ذلك التعاطف مع الأشخاص الذين هم في نفس حالك رغم أن طريقة دخولها لم تعجبني. قفز السكرتير مسرعاً صوبها مرّحبا: «**طبعا يا سيدتي، لحظة واحدة، تفضلي.**»

انحنى السكرتير أمام السيدة عارضاً عليها التفضل بالجلوس على كرسي وجلب إليها استمارات وتحدث إليها بصوت مؤدب خفيض وهو يكتب في الاستمارات. أولئك الناحلون البائسون كانوا أنجزوها بأنفسهم بل اضطر البعض إلى تكرار الأمر أكثر من مرة بسبب خطأ هنا أو هناك. يبدو أن السيدة لم تكن تعرف الكتابة، لذا توجب على السكرتير مساعدتها. وبعد الانتهاء من ذلك ركض السكرتير إلى الغرفة التي يتوقع منها الجالسون صدور أحكام بالموت بحقهم. بعد لحظات قصيرة عاد السكرتير إلى السيدة البدينة «**السيد القنصل في انتظارك، هل معك ثلاث صور؟**». أخرجت السيدة الصور وناولتها إلى السكرتير المؤدب واختفت هي في الغرفة التي يتم فيها تقرير مصير العالم، لأن القليل من الناس ذوي التفكير القديم ما زالوا يظنون أن مصائر البشر تقرر في السماء وهذا خطأ شنيع؛ إذ إن مصائر ملايين من الناس يحددها القنصل الأمريكي الساهر على سلامة الجمهورية وعدم تعرضها للضرر، نعم يا سيدي.

لم يطل غياب السيدة البدينة في غرفة الأسرار، وكانت تغلق حقيبة اليد وهي تخرج منها. فعلت ذلك بحركة قوية واعتداد وسمعنا صوت رنة الغلق. يا إلهي، من يملك فهو يملك، نعيش وندع غيرنا يعيش. وقف السكرتير فوراً مغادراً مكتبه باتجاه الكرسي الذي جلست السيدة البدينة على حافته هذه المرة وفتحت

حقيبتها وأخرجت علبة بودرة وتركت حقيبتها مفتوحة على الكرسي أثناء قيامها بوضع البودرة على أنفها. رغم أنه لم يكن واضحاً لماذا وضعت السيدة البودرة ثانية على وجهها بعد دقائق من المرة الأولى. عاد السكرتير إلى مكتبه ليبحث عن ورقة ما، وبعد أن وجدها عاد إلى السيدة التي كانت انتهت من وضع البودرة وأعادت العلبة إلى الحقيبة محدثة نفس الرنة القوية وهي تغلقها. أما الناحلون الجالسون على المصاطب؛ فلم يسمعوا تلك الرنة العالية إذ بدوا أنهم من طالبي الهجرة، ومن بين الذين لا يفهمون رنَّة إغلاق الحقائب لأنهم لا يملكون شيئاً يمكن إغلاقه ولهذا توجب عليهم الجلوس على المصاطب ولم يُقدم لأحدهم كرسي وانحناءة أدب، ولذا وجب عليهم الانتظار حتى يحين دورهم.

ـ «سيدتي، هل تستطيعين العودة خلال نصف ساعة أم ترغبين في أن نرسل جواز السفر إليك في الفندق؟»

مؤدبون هؤلاء القوم في القنصلية الأمريكية.

ـ «سيقلّني السائق إلى هنا خلال ساعة من الآن، لقد وضعت توقيعي على الجواز.»

نهضت السيدة. وحين عادت بعد ساعة كنت ما أزال انتظر ولكن السيدة البدينة حصلت على جواز سفر. هه، هنا سأحصل على جواز سفر، لقد عرفت ذلك، ولن يكون على السكرتير أن يتحمل مشقة جلبه إلى الفندق بل سآخذه بنفسي. وحين يصبح الجواز في جيبي فسوف أحصل على سفينة حتى لو كانت ليست أمريكية؛ فسفينة إنكليزية أو هولندية أو دنماركية تفي بالغرض أيضاً. في الأقل سوف أحصل على عمل وأمل في الالتحاق بسفينة ما من الوطن في إحدى المرافىء، سفينة تحتاج إلى عامل على ظهرها، لأني أستطيع القيام بأعمال أخرى غير الطلاء وتلميع النحاس.

يبدو أني تسرعت في تصوراتي؛ فقناصل أمريكا هم أفضل بكثير من سمعتهم، فما قالته لي الشرطة البلجيكية والهولندية والفرنسية عن القناصل الأمريكيين هو محض افتراء نابع من غيرة قومية. أخيراً جاءت اللحظة كي يُنادى على اسمي وأدخل إلى الغرفة، في حين توجه رفاقي الناحلون إلى غرفة أخرى ليواجهوا أحكاماً بالإعدام. أنا كنت الاستثناء. دخلت إلى السيد القنصل، الرجل الذي كنت من أعماق قلبي أتوق اللقاء به لأنه الشخص الذي يفهم حال إنسان فقد جواز سفره، فلو لم يكن هناك شخص واحد على البسيطة يقدم المساعدة فإن القنصل سيفعل؛ إذ شهدت بنفسي السرعة التي ساعد بها السيدة البدينة المثقلة بالحلي والمصوغات، فما بالك بمساعدتي أنا. فكرة جيدة شجعتني على تجربة حظي مرة أخرى.

11

القنصل كان ضئيل الحجم ضعيف البنية بدا وكأن منصبه قد جففه.

ـ «**تفضل بالجلوس.**» قالها وهو يشير إلى كرسيٍّ مقابل مكتبه.

ـ «**كيف يمكنني أن أخدمك؟**»

ـ «**أريد الحصول على جواز سفر.**»

ـ «**هل أضعت جوازك؟**»

ـ «**لا ليس جوازي بل هويتي كبحّار، لكن هذه الهوية...**»

ـ «**هكذا! أنت بحّار؟**»

هنا تغيرت لهجة كلامه وتحولت إلى لهجة أخرى غريبة تختلط فيها نبرة الشك. صمت لوهلة ثم واصل محدداً طبيعة الكلام معي. قلت:

ـ «لقد فقدت سفينتي.»

ـ «هل لأنك كنت ثملا؟»

ـ «كلا، أنا لا أشرب قطرة واحدة من ذلك السّم الزعاف، ليس في عظامي قطرة واحدة منه.»

ـ «لكنك تدّعي أنك بحّار؟»

ـ «وأنا كذلك فعلاً وسفينتي غادرت مبكرة عن موعدها بثلاث ساعات. كان من المقرر أن تنطلق مع ارتفاع المّد، ولكن بما أنها لم تكن تنقل حمولة فلم تكن بحاجة إلى انتظاره.»

ـ «وهذا يعني أن أوراقك بقيت على السفينة؟»

ـ «نعم.»

ـ «هذا ما ظننته بالضبط، قل لي ما رقم بطاقتك البحرية؟»

ـ «لا أعلم.»

ـ «أين تم إصدارها؟»

ـ «لست أعرف تماماً، كنت على متن سفن عدّة تمر بكل السواحل والخلجان. لم أعد أتذكر حقاً أين أُصدرت البطاقة.»

ـ «وهو ما توقعته أيضاً.»

ـ «المرء لا ينظر إلى بطاقته يومياً، بل لم يسبق لي أن أمعنت النظر فيها طالما هي بحوزتي.»

ـ «نعم.»

ـ «كانت على الدوام في جيبي.»

ـ «هل أنت مستوطن.»

ـ «كلا، أنا مولود هناك.»

ـ «وهل تم تسجيل ميلادك؟»

ـ «لا أدري، كنت صغيراً حين ولدت.»

ـ «يعني غير مسجّل.»

ـ «لا أعرف.» أجبته بالقول.

ـ «لكن المفروض أن أعرف أنا، هه؟»

ـ «إذن لا داعي لسؤالي إذا كنت أنت تعرف الجواب.»

ـ «هل نريد مثلاً الحصول على جواز سفر؟» سأل القنصل.

ـ «لست أدري يا سيدي إذا كنت أنت أيضاً تريد الحصول على جواز سفر.»

ـ «أنت الذي ينبغي عليه الحصول على جواز سفر وليس أنا، وإذا كان عليّ أن أمنحك واحداً فيستوجب عليك السماح لي بطرح بعض الأسئلة أولاً، أليس كذلك؟»

الرجل على حق. الناس جميعاً على حق. وهو أمر سهل بالنسبة إليهم. في البداية يضعون القوانين ثم يقفون لينفخوا فيها الروح.

ـ «هل لك عنواناً ثابتاً هناك في الديار.»

ـ «لا، عادة أعيش على متن البواخر حين أعمل على سطوحها وسوى ذلك أقطن في أي مأوى أو سكن للبحّارة.»

ـ «إذن لا عنواناً ثابتاً، حسناً هل تتمتع بعضوية أحد النوادي المسجّلة رسمياً؟»

- «من أنا؟ كلا.»

- «وماذا عن والديك؟»

- «متوفيان.»

- «هل من أقارب؟»

- «حمدا لله لا أحد، بل كنت سأتبرأ منهم لو وُجدوا.»

- «هل سبق وانتخبت؟»

- «لا، بتاتاً»

- «هذا يعني أن أسمك غير مدون في سجلات الناخبين.»

- «بالتأكيد، لا بل وما كنت سأدلي بصوتي حتى إن كنت على اليابسة.»

رمقني بنظرة طويلة غبية وخالية من التعبير تماماً بينما كان يبتسم وهو يحدق في وجهي ويعبث بالقلم كزميله في روتردام! ترى ماذا كان الناس فاعلين لو لم تكن هناك أقلام يلعبون بها. حتماً ستكون هناك مسطرة أو ثقوب أو سلك تلفون أو حتى نظارة، وربما صفحات ورق أو استمارات كي يطوونها ثم يعيدون فتحها. نعم فحجرة الموظف الرسمي تحوي الكثير من الأشياء المسلّية كي لا يصيب الملل صاحبها، إذ لا أفكار يمكن بها أن تشغل باله. وحين تطرأ فكرة ما على ذهنه سيكفّ حينئذ عن كونه موظفاً رسمياً وسيتحول إلى إنسان لطيف المعشر.

- «إذن لا يمكنني أن أمنحك جوازاً».

- «ولِمَ لا؟»

- «وعلى أي أساس أفعل ذلك؟ لمجرد أقوالك؟ لا لن يمكنني قط، بل لا يجوز لي؛ إذ لا بد من الاستناد إلى وثائق تبرزها يمكن من خلالها التثبت من

كونك أمريكياً. حينها أكون ملزماً بالنظر في قضيتك.»

ـ «ولكن يمكنك الاستماع إلى هذه الحقائق.»

ـ «وكيف، سماعاً؟»

ـ «بالتأكيد.»

ـ «هذا لا يعدّ دليلاً، خذ مثلاً فرنسا حيث يعيش الآلاف من الذين يتحدثون الفرنسية وهم ليسوا بفرنسيين، إذ هناك الروس والألمان الذين يجيدون الفرنسية أحسن من أهلها وهناك الآلاف ممن ولدوا هنا وليسوا بمواطنين، ومن ناحية أخرى فإن مئات الآلاف هناك، في الديار ممن لا يفقهون الإنكليزية، غير أنه لا يوجد أدني شك بجنسيتهم الأمريكية.»

ـ «لكني قد ولدت في البلاد.»

ـ «ممكن أن تكون مواطناً فعلاً، وحتى في هذا الحال عليك أن تقدم إثباتاً يؤكد أن والدك على سبيل المثال لم يحتفظ لك بجنسية بلد آخر ولم تقم أنت بالتخلي عنها حين بلغت سن الرشد.»

ـ «آبائي وأجدادي وأجداد أجدادي هم من الأمريكيين.»

ـ «اثبت لي ذلك وسأكون ملزماً بإصدار جواز سفر لك، سواء شئتُ هذا أم أبيتُه. أحضر لي والديك أو أجدادك إلى هنا، قدّم لي أي شيء يقول أنك ولدت هناك.»

ـ «وكيف يتسنى لي ذلك طالما أن واقعة ولادتي غير مسجّلة؟»

ـ «هذا ليس ذنبي.»

ـ «ربما تشك أيضاً بأنني موجود أصلاً.»

ـ «صح، وهو ما أفعله بالطبع. فكونك تقف قبالتي لا يشّكل لي دليلاً على

أنك ولدت، تماماً مثل الاعتقاد بأنك مواطن أمريكي.»

ـ «إذن أنت لا تعتقد مجرد الاعتقاد بأنني قد ولدت؟ هذه حتماً هي قمة ما أتوقعه.»

رسم القنصل على محياه ابتسامته الرسمية الجميلة التي يفرضها عليه منصبه مضيفاً: **«أن تكون قد ولدت هو شأن يجب علي الإقرار به، فها أنت تقف أمامي بلحمك وشحمك وأراك بعينيّ. ولكن حين أصدر لك جوازاً وأتحمل تبرير هذا أمام حكومتي حين أرفع لها تقريري بشأنك فهل سأكتب: عاينت الرجل وأعتقد أنه مواطن. إن ما أعتقده لا يهمّ الحكومة ولا تريد معرفته فهي تريد معرفة ما أعرفه أنا يقيناً وما يمكنني إثباته قطعياً، ولكني لا أستطيع إثبات ولادتك أو كونك مواطناً.»**

أحياناً يأسف المرء أن جسده ليس مصنوعاً من عجين الورق، فآنذاك يمكن رؤية ختم المصنع ودولة المنشأ، إنتاج مصنع أمريكا أو مصنع فرنسا أو في مصنع ايطاليا، وكان القنصل ليوفر مجهوده ووقته الثمين بالتعامل مع قضايا تافهة كقضيتي.

رمى القنصل قلم الرصاص من يده وانتصب قائماً واتجه نحو باب الغرفة منادياً على أحدهم بالاسم. دخل السكرتير فبادره القنصل: **«ابحث عن...** (وملتفتاً نحوي) **ما كان اسمك؟ أه لقد تذكرته، غايل، أليس كذلك، ابحث عن هذا الاسم فوراً؟»**

ترك السكرتير الباب موارباً حين خرج ثم رأيته يفتش في سجل مؤلف من آلاف البطاقات الصفراء في خزانة ثم استل واحدة تحمل حرف الغين وطفق يبحث عن اسمي. بطاقات للمرحّلين ومن غير المرغوب ببقائهم ومن رافضي الحروب والعنف ومن الشيوعيين والمعروفين من الفوضويين. كان القنصل واقفاً يحدّق من الشباك حين عاد السكرتير إلى المكتب. سأله القنصل قائلاً

«..إذن؟.» أجاب الرجل: «لم أجد شيئاً.»

هذا ما توقعته. سأحصل الآن على جواز سفري، يبدو ليس حالاً إذ سرعان ما غادر السكرتير المكتب مجدداً موصداً الباب خلفه. لم يتفوه القنصل بكلمة لوهلة وعاد للجلوس إلى مكتبه وظل يحدق في وجهي مفكراً في أسئلة أخرى يوجهها لي. فجأة وصلت نظرته الفاحصة نهايتها إذ استقام واقفاً ثانية وغادر الغرفة ليطلب المشورة من إحدى الغرف المقدسة الأخرى في القنصلية.

قضيت وقت الانتظار بمشاهدة الصور المعلقة على جدران المكتب، صور وجوه معروفة. جورج واشنطن وفرانكلين وجيفرسون ولينكولن، رجال كانت بيروقراطيتهم مقيتة يكرهها الناس كما يكره الكلب القط.

عاد القنصل ليجلس خلف مكتبه وفي جعبته سؤال جديد وجده على التو.

ـ «ربما تكون سجيناً هارباً أو مجرماً خطيراً مطلوباً للعدالة وقد أقوم بإصدار جواز سفر بالاسم الذي ذكرته لتستخدمه في حماية نفسك من الملاحقة القانونية.»

ـ «أي نعم أفهم، أرى أن مجيئي إلى هنا عديم الفائدة تماماً.»

ـ «أنا آسف حقاً، ليس في مقدوري مساعدتك فصلاحياتي لا تخوّلني إصدار أية ورقة من شأنها أن تخدمك قانونياً، كان حرّي بك الانتباه لبطاقتك كبحّار إذ لا يجدر بالمرء التفريط بمثل تلك الوثائق في هذا الزمان الذي أصبح فيه جواز السفر ضرورياً أكثر من أي شيء آخر على الإطلاق.»

ـ «بودي أن أعرف شيئاً.»

ـ «ماذا؟»

ـ «جاءت إلى هنا سيدة بدينة ترتدي خواتم ماسية كثيرة وثقيلة وهذه السيدة كانت أضاعت أيضاً جواز سفرها ولكنكم قمتم بمساعدتها على الفور وأصدرتم لها جوازاً جديداً ولم يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة.»

ـ «تلك كانت السيدة سالي ماركوس من نيويورك، لا بد أنك سمعت بهذا الاسم الشهير في عالم الأعمال المالية الكبيرة.»

أخبرني بذلك بنبرة تعلوها الثقة والاعتداد، وصارت سحنته ممتلئة بالزهو وكأن لسان حال يقول: المقصود هو النبيل أمير مقاطعة وليس بحّاراً نكرة أبحرت سفينته دونه.

وحينما أدرك الرجل عدم سرعة استيعابي لما يقول، أعاد الكرّة:

ـ لا بد أنك سمعت بهذا الاسم، إسم المؤسسة المالية الضخمة في نيويورك؟»

وحين زادت حيرتي قلت:

ـ «لا أعتقد أن السيدة أمريكية أساساً، بل أظن أنها وُلدت في بوخارست.»

ـ «أنّى لك معرفة هذا؟ نعم السيدة ماركوس وُلدت فعلاً في بوخارست لكنها الآن مواطنة أمريكية.»

ـ «وهل يا ترى تحمل السيدة معها وثيقة بذلك؟»

ـ «بالتأكيد لا، ولماذا السؤال؟»

ـ «وكيف عرفت إذن أنها مواطنة، فهي لم تتعلم بعد إتقان اللغة؟.»

ـ «لستُ بحاجة إلى دليل، فزوجها ماركوس، إسم معروف كما أنها وصلت على متن مقصورة فاخرة على ظهر الباخرة ماجيستك.»

ـ «أخيراً بدأت أفهم لأني وصلت إلى هنا عاملاً بسيطاً على سطح باخرة شحن وكنت أقطن في مهجع مشترك للبحّارة وهذا لا يساوي ولا يثبت شيئاً. لكن السفر على متن الماجيستك وحمل إسم رجل مال وأعمال كبير يساوي ويثبت كل شيء.»

ـ «الأمر مختلف تماماً عما تقول أيها السيد غايل، أخبرتك أنه ليس بمقدوري

أن أقدم لك شيئاً بل إنني غير مخوّل بتاتاً بمنحك أية أوراق رغم أني شخصياً أصدق قصتك، لكن حتى إذا جاءت بك الشرطة إلى هنا كي نعترف بك كمواطن ونحتويك رسمياً فسيتوجب عليَّ إنكارك ونفي كونك مواطناً إذ لن يكون في وسعي سوى فعل ذلك.»

ـ «يعني أن ما سيؤول إليه مصيري في هذه البلاد الغريبة لن يهمكم في شيء؟»

ـ «لا أملك سلطة تتيح لي الوقوف إلى جانبك حتى لو كنت راغباً بذلك شخصياً. سأعطيك بطاقة لفندق تأوي إليه لثلاثة أيام وتحصل خلالها على وجبات طعام كاملة، وبعد انتهاء المدة يمكنك المرور بنا للحصول على بطاقة مماثلة لمرة ثانية وربما لمرة ثالثة أيضاً.»

ـ «كلا، أشكرك جزيل الشكر، لا تكلّف نفسك هذا الجهد من أجلي.»

ـ «ربما تفيدك تذكرة سفر إلى أقرب مدينة ذات ميناء كبير، فقد تُوّفق في الصعود إلى سفينة تبحر إلى هناك تحت راية دولة أخرى.»

ـ «لا، شكراً، آمل أن أجد طريقي بنفسي.»

ـ «حسنا إذن، وداعاً وحظاً طيباً.»

حين أمسيت في الشارع وقع بصري على ساعة كبيرة لأكتشف أن الساعة تجاوزت الخامسة بينما ينتهي دوام القنصلية تمام الساعة الرابعة غير أن القنصل لم يُبد أية إشارة لنفاد الصبر ولم يجعلني أشعر بأن وقت عمله قد مضى.

وداعاً يا نيو أورلينز المشمسة، وداعاً وحظاً سعيداً لك أيتها الفتاة، يا فتاتي الحبيبة في نيو أورلينز، وداعاً يا من تنتظرين منتحبةً في ساحة جاكسون، تنتظرين عودة فتاك. فتاك لن يعود إلى وطنه لأن البحر ابتلعه، ذلك الفتي الذي وقف متحدياً العواصف والريح والأمواج وقسوة عمل الطلاء ورائحة الأصباغ وتحمّل المشاجرات صامداً أمامها لم يصمد أمام مواد وفقرات القوانين وسطوة

أقلام الرصاص وسلطة الأوراق. ابحثي عن فتى آخر، عن حبيب غيري ولا تتركي أزهار شبابيك الوردية تذبل في انتظار ابن الوطن غير المولود. وداعاً كم كانت حلوة وساخنة قبلاتك لأننا لم نحمل قسيمة زواج في جيوبنا.

تباً للفتيات. تعالي أيتها الرياح، هلّموا أيها الفتيان، ارفعوا الأشرعة وكل قطعة قماش إلى العالي وهيا بنا لنبحر إلى عرض البحر.

12

باريس ـ تولوز اكسبريس، أجلس في القطار السريع دون تذكرة سفر. تواريت هارباً حين جرى تفتيش التذاكر قبل الوصول إلى ليموج. اختفيت على الأثر ولم أعد إلى مكاني إلى أن غادر المفتشون العربة، لكن مفتشاً عاد فجأة ليلمحني وهو يقطع الرواق في الاتجاه الآخر للقطار فنظرت إليه بدوري دون وجل فواصل الرجل سيره، هكذا، على المرء أن يتعلم كيفية النظر إلى المفتشين فيكون قد نجا منهم، لكن الرجل غيّر فكره وعاد متوجهاً صوبي:

ـ «**في أية محطة قلت انك تريد النزول أو تبديل القطار رجاءً؟**»

يا له من شاب ملعون هذا المفتش. في تلك اللحظة فهمت كلمة تبديل وحسب فيما كنت أترجم باقي الكلمات في رأسي، لكن لا مجال لإتمام ذلك إذ باغتني:

ـ «**هلا أريتني من فضلك مجدداً تذكرة السفر؟**»

حسناً أيها الصديق، مهما كان لطف سؤالك وجمّ أدبك لكنني لا أملك تذكرة سفر ولا أستطيع تلبية رغبتك.

ـ «**لقد حزرت.**»

قالها بمنتهى الهدوء وبصوت خفيض بدون لفت الأنظار، وتيقنت بأن المسافرين لم يلحظوا الكارثة التي تقع أمام أعينهم في تلك اللحظة. أخرج المفتش دفتراً للملاحظات وكتب فيه شيئاً وغادر. ربما كان ذا قلب طيب فينساني، لكن في محطة تولوز كان هناك من ينتظرني، طبعاً دون موسيقى ترحاب وطبول ولكن مع سيارة.

السيارة كانت جيدة جداً، مضادة للحريق والسرقة ومتينة الصنع لا يمكنني السقوط منها والتدحرج إلى الخارج، لكن عبر شباكها تمكنت من رؤية شيء يسير من الجزء الأعلى للبنايات على الطريق أثناء مرورنا السريع. سيارة فريدة مخصصة للضيوف الذين يراد استقبالهم بترحاب إذ ابتعدت كل السيارات لتفسح الشارع لسيارتنا لتنطلق دون عائق إلى هدفها.

أعرف تماماً أين سينتهي بي المطاف. فلحظة تبدو لي عادات وتقاليد المدن الأوربية غريبة فأكون في طريقي إلى مركز للشرطة أو برفقة رجال الشرطة وتحت أنظارهم. هناك في الوطن لم تكن لي أية صلة مع الشرطة أو المحاكم، أما هنا فيكفي أن أكون جالساً على صندوق بكل هدوء أو مستلقياً بأمان الله على سرير أو سائراً على غير هدىً عبر مرج أو مسافراً في قطار حتى ينتهي بي الحال في مركز للشرطة. لا عجب إذن أن تتدهور أحوال أوربا فلا وقت للناس كي يعملوا لأنهم يقضون سبعة أثمان أعمارهم في مراجعة الدوائر الحكومية أو مراكز الشرطة أو بصحبة رجال الشرطة، لذا تراهم متوترين على الدوام وميّالين لشن الحروب لأنهم يقضون معظم أوقاتهم يتشاجرون مع الشرطة أو هي التي تتشاجر معهم. علينا أن نتوقف عن إقراض الأوربيين، لأنهم حتماً سينفقون هذا المال من أجل المزيد من الشرطة، لا، يا سيدي ولا نكلة واحدة بعد الآن.

ـ «من أين أنت قادم يا سيدي؟»

ها هو الكاهن الكبير يجلس أمامي من جديد. كلّهم سواء، في بلجيكا أو هولندا، باريس أو تولوز. دائماً عليهم طرح الأسئلة ودائماً يرغبون بمعرفة كل

شيء. ودائماً يرتكب المرء ذات الخطأ حين يجيبهم. على المرء أن يصمت، أن يظل ساكتاً وأن لا ينبس ببنت شفة ويتركهم يضربون أخماساً بأسداس وسينتهون بعدها جميعاً في بيت المجانين أو سيعاودون العمل بالتعذيب من جديد. لكن لو صمت المرء فعلاً ولم يجب لأصبحت الشرطة أكثر غباوة عما هي عليه أصلاً.

عليك في الأقل أن تحاول الصبر وتصمت ولا تجيب على أسئلتهم؛ لكنك سواء كنت جالساً أو واقفاً أثناء ذاك فإن الفم اللعين سرعان ما سينطق من تلقاء نفسه عندما يرمون نحوه بقوة أول سؤال. عندها تنتصر قوة الاعتياد؛ فمن غير المحتمل أن تترك سؤالاً معلّقاً في الهواء دون أن تعيد إليه توازنه عبر جوابك. السؤال الجائر الذي لا يلقى جواباً لن يجد راحته ويظل يجري وراءك وينفذ إلى أحلامك حين تنام وينغص عليك صفاءك فلا تعود قادراً على العمل أو التفكير. علامة الاستفهام التي تأتي بعد كل سؤال يبدأ بـ «لماذا» هي النقطة المركزية في كل حضارة ومدنيّة وتطوّر. بدون هذه الكلمة الواحدة فان البشر ليسوا سوى قردة، وحين يعطي المرء القردة هذه الكلمة السحرية تتحول تلك الحيوانات على الفور إلى مخلوقات بشرية، أي نعم يا سيدي.

ـ **«أريد معرفة من أين جئت؟»** حاولت أن أصمت ولا أجيب، لكني لم أحتمل، لا بد أن أخبره شيئاً ما. هل أخبره إنني قادم من باريس أم الأفضل القول بأني قادم من ليموج؟ فلو قلت ليموج لجعلت المسألة أهون لأنها ليست ببعيدة مثل باريس.

ـ **«أخذت القطار في ليموج.»**

ـ **«ليس بصحيح أيها الرجل، لقد جئت من باريس.»**

انظرْ كيف يحزرون جيداً.

ـ **«لا لم أستقّل القطار في باريس وإنما في ليموج.»**

ـ «ولكن في جيبك بطاقة رصيف تسمح لك بالوصول إلى رصيف القطار في باريس.»

آه لقد فتشوا جيوبي، لم ألحظ ذلك لأني اعتدت التفتيش لدرجة أني لم أعد أتذكره.

ـ «تلك البطاقة، إنها في جيبي منذ زمن.»

ـ «ومنذ متى؟»

ـ «على الأقل منذ ستّة أسابيع.»

ـ «غريب، فالبطاقة تحمل تاريخ نهار الأمس.»

ـ «إذن لابد أن خطأ حدث بكتابة التاريخ.» هكذا أجبت.

ـ «أنت أخذت القطار من باريس.»

ـ «ولكني دفعت ثمن التذكرة من باريس إلى ليموج.»

ـ «أين هي تذكرة السفر إلى ليموج التي تقول أنك اشتريتها؟ وبما انك لم تغادر القطار فالمفروض أن تكون بحوزتك؟»

ـ «لقد سلّمتها في ليموج.» هذا ما قلته.

ـ «دعنا من ذلك، نريد قبل كل شيء الإمساك بالمعلومات الشخصية. ماهي جنسيتك؟»

سؤال عويص، فلم يعد عندي مثل هذا الشيء منذ أن فقدت الدليل على كوني وُلدت أصلاً. ربما يمكنني المحاولة مع الفرنسيين؛ فالقنصل كان أخبرني بأن هناك آلاف الفرنسيين ممن لا يتحدثون الفرنسية ويحملون رغم ذلك الجنسية الفرنسية طالما بقيت مسألة جنسيتهم في منأى عن الشك والسؤال. أستطيع الادعاء ما شئت فلن يصدقني في كل الأحوال بل سيطلب مني دليلاً.

ليتني أعرف لمن يكون السفر بالقطار بدون دفع ثمن التذكرة أرخص، للفرنسي أم للأجنبي؟ الأجنبي قد يعتقد أن السفر في قطارات فرنسا مجاناً وعليه فإن تصرّفه كان سيمسي صحيحاً منطلقاً من إيمانه بصحة اعتقاده. لكنهم لم يجدوا في جيوبي نقوداً وهذا بحد ذاته يدعو للريبة والشك. عدم امتلاك المال هو دوماً مدعاة للريبة، دائماً وفي كل مكان حتى أيام الآحاد في الكنائس.

ـ «أنا ألماني.» طرأت هذه الفكرة على بالي فجأة فنطقتها راغباً برؤية كيفية تعاملهم مع الألماني الموجود على أراضيهم وهو بدون جواز ولا تذكرة سفر.

ـ «ألماني هه؟ وأكيد من مدينة بوتسدام؟»

ـ «كلا، من فيّينا.»

ـ «لكن تلك النمسا، لكنهما سواء، إذن ألماني، ولماذا بدون جواز سفر؟»

ـ «لقد أضعته.»

واستمعت إلى نفس الاسطوانة. ففي كل بلد يطرحون عليك الأسئلة نفسها بالضبط، استنسخها واحدهم من الآخر وعلى الأغلب فإن اختراعها كان إما في بروسيا أو روسيا، إذ كل ما له علاقة بالتدخّل في الشؤون الشخصية للفرد يأتي من أحد هذين البلدين، فهناك الناس هم الأكثر صبراً وانصياعاً لكل ما يلاقونه ويرفعون قبعاتهم خشية واحتراماً أمام الأزرار اللمّاعة في معاطف الأشرار خوفاً من الانتقام.

بعد يومين حُكم عليّ بالحبس لمدة أربعة عشر يوماً بتهمة الاحتيال والسفر بالقطار دون تذكرة. لو اعترفت بأني أمريكي لعرفوا ربما بأني من أرباب السوابق وانه سبق حبسي بنفس التهمة و لكانت عقوبتي هنا ستصبح أشد وأقسى، كما أني لن أخبرهم باسمي الحقيقي حرصاً على سمعتي.

بعد الانتهاء من الإجراءات اللازمة تم فرزي إلى طابور العمل في السجن.

كانت هناك أشياء صغيرة غريبة كأنها منتزعة من صفيح معدني أبيض، ماذا كانوا صانعين بها؟ لا أحد يعلم بمن فيهم موظفو المراقبة. البعض قال إنها أجزاء تدخل في صناعة ألعاب الأطفال، آخرون ادّعوا إنها تستعمل في بناء السفن المصفحة، في حين اقتنع البعض أنها قطع غيار للسيارات، بينما كان بعض آخر يقسم ويراهن بالتبغ المهرّب إلى السجن على أن تلك الأشياء المعدنية الصغيرة ما هي إلا أجزاء مهمة لبناء منطاد يعمل بالوقود الذرّي. من ناحيتي كنت مقتنعاً تمام الاقتناع أنها لابد مخصصة لعدّة الغطاسين، أما كيف توصلت إلى تلك القناعة فلا أعرف لكن الفكرة عششت في دماغي، وكنت قد قرأت يوماً في مكان ما إن عدة الغواصين بالذات تحتاج أكثر من غيرها، إلى عدد كبير من قطع الغيار.

واجبي في العمل كان جمع مائة وأربعين من هذه القطع المعدنية الغريبة، أعدّها وأضعها جانباً ثم أنتقل إلى كومة أخرى منها وهكذا. وفي كل مرة أنهي العمل في كومة يأتي المراقب ويسألني إن كنت متأكداً من أن العدد صحيح حقاً وأنني لم أرتكب خطأً أثناء عملية العدّ.

- «**أنا متأكد تماماً أن عدد القطع المعدنية صحيح.**»

- «**هل هي كذلك فعلاً، هل يمكنني الاعتماد على ذلك؟**»

طريقة سؤاله الحائرة عن دقّة عملي جعلت القلق وعدم الثقة ينتقلان إليّ بحيث ساورني الشك بصحة عملي، فاقترحت عليه أن أقوم بعدّها مرة ثانية دفعاً لأي شك، فأجاب أن من الأفضل أن أقوم بذلك تجنباً لخطأ وارد ومحتمل لأنه لو ثبت لاحقاً إن الرقم هو غير المطلوب يتعرّض الرجل لمتاعب كثيرة قد تكلّفه منصبه وهو ما لا يسعى إليه قطعاً، فهو ربّ أسرة وله أبناء وأم عجوز يرعاها.

بعد أن أديت المهمة للمرة الثانية وتبين أن العدد المطلوب كان صحيحاً وإنني لم أخطئ العدّ في المرة الأولى، جاء الموظف المراقب مجدداً ورأيت تجاعيد القلق والحيرة ما زالت مرسومة على وجهه، ولكي أمحو عنه تلك الهموم وأُشعره بتعاطفي معه بادرته بالقول وقبل أن يتسنى له أن يفتح فمه ليتكلم، بأني سأكرر العدّ للمرة الثالثة للاطمئنان فلربما سهوت أثناء العدّ هذه المرة أيضاً. في تلك اللحظة انبسطت عضلات وجهه وظهرت عليه علامات الارتياح والرضا وابتسم ابتسامة عريضة كأن شخصاً ما أخبره للتو أنه سيحصل على مال وفير أتاه من إرث كبير.

ـ «نعم، بحق السماء، من الأفضل أن تكرّر عملية العدّ وبدقّة أكثر إذ لو زاد المجموع أو نقص قطعة معدنية واحدة فقط فسيكون للسيد المدير حساباً شديداً معي ولما عرفت ماذا سأفعل حينها. سأفقد وظيفتي حتماً، وماذا سيحّل بصغاري وزوجتي العليلة وأمي العجوز المسكينة. أوه، أرجوك ليكن العدد صحيحاً، مائة وأربعون قطعة بالضبط. بالمناسبة، لماذا لا تستخدم طريقة العد بالعشرات فستكون العملية أفضل بكثير وسيتضاءل جداً احتمال وقوع خطأ.»

في اليوم الذي أُفرج فيه عني بعد انتهاء محكوميتي، كان كل ما أنجزته من عمل هو إكمال عدّ ثلاث مجموعات من القطع الحديدية الصغيرة ليس إلاّ، ومع ذلك فلست واثقاً تماماً، حتى اللحظة، من إنني لم أخطئ عدّ إحداها غير أني مازلت أرعى بداخلي شعوراً بأمل خفي في أن يكون ذلك الموظف النجيب ومعيل أسرته، الذي سهر على مدى أسبوعين ليجعلني أعيد واكرر عدّ تلك المجموعات، قد احتفظ بوظيفته وأن أكون خالي الذمة تجاهه لو أن المدير كان قد استدعاه للمحاسبة لخطأ ما لا أعرفه.

استلمت أربعين سنتيماً أجرة عملي في السجن. تفكّرت لوهلة في أمر هذا المبلغ الكبير مستغرباً إلى أن أدركت أنه لا يكفي لشراء قدح صغير من الجعة،

ناهيك عن تذكرة للصعود إلى برج إيفل. يبقى مؤكداً أنه لو أني ضُبطت مجدداً وأنا أسافر بالقطارات الفرنسية مرتين أُخريين دون تذكرة سفر صالحة فلن يتبقى آنذاك أمام الدولة الفرنسية سوى إشهار إفلاسها؛ إذ كيف لدولة تحمّل هذا العبء المادي، أية دولة، حتى لو كانت أحوالها أفضل منها في فرنسا.

لا، لا أريد أن أتسبب بضرر لفرنسا، إذ لست راغباً في أن يقال عني لاحقاً أني ربما كنت السبب الرئيسي وراء إفلاس الأمة الفرنسية. ولذا كان عليّ أن أرحل عن هذه البلاد. لست أخفي أيضاً أن سبب تفكيري بمغادرة البلاد على وجه السرعة لم يكن دافعه قلقي على سلامة وعافية الدولة الفرنسة وقدرتها على دفع فوائد ديونها بانتظام فحسب، بل لأنه قد تم إنذاري نهائياً أثناء الإفراج عني بوجوب مغادرة البلاد خلال أسبوعين وبعكس ذلك سيجري حبسي لمدة عام، وبعد انقضائه يتم ترحيلي إلى ألمانيا وهو ما كان سيكلّف الدولة الفرنسية المسكينة نفقات كثيرة إضافية، وهو شأن أثار شفقتي الصادقة نحو هذه الدولة المبتلاة.

13

سرت باتجاه الجنوب على طريق قديم قِدم تاريخ الشعوب الأوربية. احتفظت لنفسي برواية كوني ألماني الجنسية كجواب على السؤال حول جنسيتي طرحه كل من لاقيته في طريقي. اكتشفت أن الأمر لم يكن سيئاً ولم يؤاخذني الناس على انتمائي المزعوم، بل منحني المزارعون الذين قابلتهم مأوى جيداً أمضي فيه ليلي وطعاماً أسد به رمقي. لم أجد بينهم من يحبّ الأمريكيين، الكل كان ساخطاً عليهم مكيلاً لهم الشتائم وصابّاً عليهم اللعنات واصفاً إياهم باللصوص والمرابين الذين يمتصون دماء آباء وأمهات من بقي على قيد الحياة من الفرنسيين ومحققين الأرباح على حساب همومهم ودموعهم، لأن الأمريكان جشعون ولا يمكن إرضاء أطماعهم حتى لو غرقوا حتى آذانهم ببحر من

الذهب. اللعنة، لقد حالفني الحظ حقاً.

ـ «ليس ظاهرا عليك انك عانيت مجاعةً، كُلْ، تفضل، خذ أفضل لقمة طالما يلذ لك هذا الطعام. قل لي إلى أين هي وجهتك؟ إلى إسبانيا؟ سيكون خياراً جيداً وعاقلاً فأحوال الأسبان أحسن من أحوالنا هنا، لكن تفضل واستمر بتناول الطعام، خذ راحتك لا يزعجنّك أننا توقفنا عن الأكل فمازال لدينا الكفاية كي نأكل حتى الشبع بين الفينة والأخرى.

وإذا ما حاول أحد المساكين ادخار بعض المال أملاً في السفر إلى أمريكا للعمل وإعالة أهله هنا بإرسال بعض الدولارات إليهم، فإن الأمريكان يوصدون أبوابهم في وجهه، هؤلاء السرّاق. بداية سرقوا الأرض من الهنود الحمر المساكين، وبعد الاستيلاء عليها لم يعودوا يسمحوا لأحد بدخول البلاد حتى ينعموا وحدهم بثرواتها حد التخمة وكأنهم كانوا سيهبون الوافد إليهم شيئاً بالمجان. يا لهم من كلاب مسعورة، عليهم اللعنة.

على أبنائنا المسافرين إلى أمريكا أن يعملوا تحت أقسى الظروف ويقنعوا وأن يقبلوا بأسوأ الأعمال التي لا يقترب منها الأمريكي. هل تعلم أن باستطاعتك مزاولة عمل هنا لبضعة أسابيع أخرى فتعيل بذلك نفسك وتطعمها جيداً حتى تستعيد قواك قبل أن تقصد إسبانيا فهي بعيدة. صحيح أن الأجور ليست عالية ولكنك ستقيم أودك وتجد مكاناً تأوي إليه للنوم مجاناً فالغلاء فاحش جداً.»

قررت مواصلة مسيرتي بعد أن شرحت للناس أن سفري إلى إسبانيا غير قابل للتأجيل، وأنه لم يعد بإمكاني الانتظار لفترة أطول وأن الشرطة قد تأتي لتمنعني من العمل هنا.

الأجر الذي أعطاني إياه المزارع لقاء عملي لديه طيلة ستّة أسابيع كان عشرة فرنكات لأنه لم يكن يملك المزيد كما أخبرني، لكني لو عدت إليه مرة أخرى مطلع العام الجديد فسيمكنه دفع المبلغ المتبقي فحينئذ يكون قد استوفى ثمن

غلّته بعد موسم الحصاد، أما الآن فلا نقود متوفرة، ثم إني أبدو له قوياً معافى بعد ما حظيت به عنده من طعام وفير قال أني أقبلت عليه بشهية مفتوحة ونهم ولم أقتل نفسي بالعمل الشاق لديه.

ـ «أين قلت تقع ديارك؟»

ـ «أنا من زود فالن[2] حيث لا يحتاج المرء إلى العمل الشاق إذ ينمو كل شيء لوحده، لذا فالناس هناك غير معتادين على بذل جهود كبيرة.»

ـ «لقد سمعت الكثير عن زود فالن» (أجابني المزارع) وهي مقاطعة كبيرة للنبلاء حيث المعامل الكثيرة لاستخراج الكهرمان من الجبال.»

ـ «بالضبط» (أجبته مؤكداً)، وحيث توجد الأفران اللافحة العالية حيث يجري تذويب «كونيغسبيرغ كلوبسه»[3] (كريات كونيغسبيرغ)

ـ «ماذا؟ هل تقول إن تلك الكريات مصنوعة من الحديد؟ كنت طوال الوقت أظنها مصنوعة من مسحوق الفحم الحجري.»

ـ «ذاك هو النوع المزّيف الذي يصنع من مسحوق الفحم الحجري مع إضافة قار الكبريت السميك إليه أما الأصلي فيذاب في الأفران العالية وهو أكثر صلابة

2- لا توجد منطقة أو مقاطعة بهذا الاسم في ألمانيا وأنها من اختراع الراوي البحّار.

3- Koenigsberger Klopse أكلة ألمانية مؤلفة من اللحم المفروم الذي يسلق على شكل كرات في الماء المغلي المتبل بطريقة خاصة وبسيطة ليصبح صلصة بيضاء سميكة وتؤكل مع البطاطا المسلوقة، وتنسب إلى مدينة كونغسبيرغ التي كانت عاصمة بروسيا الشرقية، ولكنها أصبحت من ضمن الأراضي الروسية بعد الحرب العالمية الثانية عام 1945 حيث تم تغيير اسمها إلى كالينغـراد، وحاليـاً ضمن الاتحاد الروسي. ارتبط اسمها بأعلام الثقافة الألمانية مثل الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانط الذي ولد فيها، والمؤلف الموسيقي الألماني ريتشارد فاغنر الذي أقام فيها وأصبح مديراً لمسرحها فترة من الزمن.

من الفولاذ الصلب نفسه. لقد استخدمه جنرالاتنا في ملء الطوربيدات التي أغرقت السفن المدرّعة، أنا نفسي عملت في أحد أفران الصهر العالية.»

ـ «أنتم قوم أذكياء واسعو الحيلة، لا بد من الاعتراف بذلك.»

أجابني المزارع. **«إذن أتمنى لك التوفيق في إسبانيا.»**

أحياناً أود أن أسأل شخصاً ألمانيّاً عن ماهية «كونغسربيرغر كلوبسه»، إذ كل من سألته أعطاني جواباً مختلفاً، ولكن كيف لهم أن يعرفوا ولم يكن أيّهم ألمانيّاً.

14

شيئاً فشيئاً صار المكان موحشاً، أرضاً جبلية أتسلقها فيها بات عدد المزارعين في تناقص والأكواخ تصبح أكثر فقراً. هناك الكثير من الماء والقليل جداً من الطعام المتواضع. الليالي باردة جداً سيما دون غطاء بل أغلب الأحيان حتى دون شوال. **«لم تعد الحدود بعيدة»**، هذا ما قاله لي أحد الرعاة هذا الصباح وأنا أهم بمغادرة كوخه البائس حيث قضيت ليلتي بضيافته مقاسماً إياه النزر اليسير من طعامه المؤلف من الجبن والبصل والخبز والنبيذ المخفف بالماء.

وجدت نفسي في طريق يمتد على أرض جبلية تقود إلى وديان، لكن الأرض سرعان ما تعود لترتفع ثم تنخفض بعد فترة من السير عليها لتنتهي بواد آخر وهكذا حتى انتهى الطريق بي عند بوابة ضخمة، بدت أثرية، في وسط جدار ضخم قديم رمادي اللون مائل إلى الصفرة مثله مثل البوابة. الجدار العالي تبدى لي وكأنه يحمي خلفه نفائس عزيزة. كان لا بد من اجتياز البوابة إذ لا طريق آخر أمامي، آملاً أن أجد بوابة شبيهة في الطرف المقابل من الفناء التي تصورت أنه سيفضي بي إلى الخارج لأواصل سيري قُدماً. مشيت عبر البوابة بخط مستقيم دون أن أرى أحداً. فجأة ظهر من زاوية ما جنديان فرنسيان مسلّحان ببنادق

مزوّدة بسلاح أبيض وأوقفاني سائلين عن هويتي. الجنود هنا، على ما يبدو، يسألون بدورهم عن بطاقة البّحار. شرحت قضيتي قائلاً إني لا أملك تلك البطاقة ولا جواز سفر لكنهما قالا أنهما غير معنيين بجواز سفري وإنما يودان فقط رؤية الوثيقة الصادرة من وزارة الحرب الفرنسية بباريس والتي تخوّلني التجوال هنا في أركان هذا الحصن العسكري بمفردي دون مرافقة.

ـ «**لم أكن أعلم أني في حصن عسكري.**» أجبتهما «**كنت أسير على طريق ولم أحد عنه معتقداً أنه الطريق إلى الحدود.**»

ـ «**كان عليك أن تنعطف يميناً منذ ساعة من الزمن قبل وصولك ها هنا، توجد يافطة تدّلك إلى الاتجاهات، ألم ترها؟**»

ـ «**كلا، لم أشاهد تلك اليافطة.**»

أتذكر الآن أني لمحت أثناء سيري طريقاً ينعطف يميناً بل إني رأيت العديد من الطرق التي تنعطف يساراً ويميناً على مدى الأيام القليلة الماضية لكني تمسكت بالمشي في الاتجاه المستقيم متصوراً أنه الأفضل والمباشر إلى هدفي في الجنوب. نعم لقد رأيت العديد من اليافطات، ولكن ما علاقتي بيافطات تحمل أسماء مناطق لا أعرفها ولست أدري أياً منها هي الأقرب إلى الحدود إذ لو تبعتها كنت سأظل سائراً في دائرة ولن أصل إلى إسبانيا، كما لم يكن بحوزتي خارطة توضح لي الطريق.

ـ «**يجب أن نأخذك إلى الضابط المسؤول.**» اقتادني الجنديان إلى الرجل. الضابط المسؤول كان هو الآخر شاباً وبدا صارماً وهو يستمع إلى ما جرى. ثم قال:

ـ «**يجب أن تعدم رمياً بالرصاص خلال أربع وعشرين ساعة، فهذا ما ينص عليه القانون الحربي، المادة ...**» (ذكر هنا رقماً لم أعره انتباهاً).

عندما نطق الضابط الشاب بتلك الكلمات صار وجهه شاحباً جداً واختنق بالكلام فجاهد حتى ينهيه. لم يسمحوا لي بالجلوس ووقف قربي الجنديان مع سلاحيهما في حين حاول الضابط ملء استمارة، لكن ارتباكه الشديد حال دون ذلك فعزف عن المسألة. بعد وهلة التقط سيجارة من محفظة سجائر فضية لكن يده لم تقو على حمل السيجارة فوقعت قبل أن يضعها في فمه، في تلك اللحظة رأيت يديه ترتجفان. وكي يخفي انفعاله حاول أكثر من مرة ولم يفلح إلا بعد أن رفع ذراعه المتيبس ببطء شديد حاملاً السيجارة بيد مرتعشة إلى فمه ثم انطفأ عود الثقاب ثلاث مرات، وقبل أن يوقد عوداً جديداً سألني «**هل تُدخّن؟**» ثم ضغط على زر فظهر على الفور جندي أمره الضابط بشراء علبتي سجائر من مطعم المعسكر وتسجيلها على اسمه. حصلت على سجائر وسمح لي بالتدخين بينما كان الجنديان ما زالا واقفين بلا حراك كصنمين.

عاد الهدوء تدريجياً إلى الضابط فأمسك كتاباً وقلّب أوراقه ثم قرأ مواقع متفرقة فيه وعاد وأمسك بكتاب آخر وقرأ بنفس الطريقة مقاطع متفرقة فيه مقارناً بين ما جاء في الكتابين.

غريب هو المشهد، أنا، الذي هو الضحية، لم أشعر قطعاً بأي ارتباك أو قلق، وحين أخبرني الضابط عن وجوب إعدامي رمياً بالرصاص خلال فترة لا تتجاوز الأربع والعشرين ساعة لم ينتابني هلع ولم أتأثر على الإطلاق وكأنه أخبرني: «**هيا اذهب، سارع بالخروج من هنا.**» نعم لم يُثر الأمر في نفسي أية مشاعر حالي كحال حجر الطريق.

في الواقع، وبعيداً عن المزاح فأنا كنت ميتاً منذ زمن، لم أكن قد وُلدت، لا أملك بطاقة البحّارة ولم احصل في حياتي على جواز سفر وكان باستطاعة كائنٍ من كان أن يفعل بي ما شاء، كنت لا أحد ورسمياً لا وجود لي في العالم أصلاً وبهذا لا يمكن فقدي. فإذا ضربني أحدهم حتى الموت فتلك ليست بجريمة

قتل إذ لست مسّجلاً قط ولا سبب لإعلان فقدي. يمكن إنتهاك حرمة الميت أو سرقته لكن لا يمكن قتله.

أن لا تكون هناك بيروقراطية ولا حدود ولا جوازات سفر، تلك هي مجرد أوهام ومحض تخيّلات بل ضرب من الجنون يستحيل وجوده في الواقع. ففي عصر الدولة فان أموراً كثيرة تصبح ممكنة بل وتمحو هذه أموراً وأشياءً أخرى في الكون أكثر بكثير مما تمحو بعض البشر. الدولة مثلاً تتنكر لأبسط القوانين الطبيعية وأكثرها حميمية من أجل بسط قوتها وتعزيز قوتها الداخلية على حساب الفرد، الذي هو أساس الكون. فالكون مؤلّف من أفراد وليس من قطعان، وهو موجود بسبب تفاعل الأفراد مع بعضهم البعض. الكون كان سيتهدم لو تم تقنين حرية حركة الفرد، فالأفراد هم ذرّات الجنس البشري.

عدم انفعالي لخبر إعدامي المرتقب ربما يعود لكوني تذوقّته سابقاً وخبرت بشاعته. التكرار يُوهن الهمم ويضعفها حتى لو تعلق الأمر بتكرار حكم بالموت، لكن أن تنفذ مرة من الموت يعني أن تنفذ بجلدك دائماً. و مهما كان دافع عدم اكتراثي بمصيري أمام تهديد الموت القادم فلا أثر له البتة بنفسي.

- «**هل أنت جائع؟**». سألني الضابط.

- «**وأيما جوع، لك أن تصدقّني.**» هكذا أجبته. احمّر وجه الضابط ثم بدأ يضحك بصوت عال.

- «**يا لقوة أعصابك يا رجل.**» قال الضابط وسط قهقهته «**هل تظنني أمزح معك؟**»

- «**بأي شأن، بالدعوة على الطعام؟ أرجوك لا أستحب هذا المزاح!**»

- «**كلا!**» أجابني الضابط وأصبح جادا بعض الشيء «**بشأن الإعدام بالرصاص.**»

ـ «لا لقد أخذته على محمل الجد كما قلته وعنيته حرفياً، فطالما هو مثبت حرفياً في قانونكم فعليك الالتزام به. لكنك قلت أيضاً انه وحسب القانون يجب أن ينفّذ خلال أربع وعشرين ساعة وقد مضى منها ربع ساعة فبقى لدي إذن ثلاث وعشرين ساعة وثلاثة أرباع الساعة، ولست أتصورك تراني أقضي تلك الساعات جائعاً فقط من أجل الإعدام. إذا كان عليك أن ترميني بالرصاص فافعل بي معروفاً أولاً وقدم لي طعاماً جيداً، لا أريد أن أتنازل عما أستحقه لدولتكم.»

ـ «لتحصل إذن على طعام جيد، سآمر بأن يقدم لك وجبة مضاعفة من طعام الضباط المخصص لأيام الآحاد.»

حسناً، أود رؤية وجبة الطعام الجيد المخصص للضباط الفرنسيين أيام الآحاد. الضابط المسؤول لم ير ضرورة لاستجوابي أو السؤال عن بطاقة البحّارة، أخيراً أصادف إنساناً لا يعنيه التنقيب في شؤوني الشخصية بل لم يأمر حتى بتفتيش جيوبي. لكن الضابط محّق، فلماذا الانشغال بالاستجواب والتفتيش فالنتيجة ستكون هي نفسها فالإعدام رمياً بالرصاص في انتظاري.

مرّ وقت ليس بالقصير قبل أن يأتوني بالطعام. اقتادوني إلى غرفة أخرى فيها مائدة عليها غطاء لطيف ومصفوف عليها على نحو يثير شهية الجائع، صحون وأقداح وملاعق وسكاكين وأشواك. ورغم أن المائدة كانت معدّة لشخص واحد إلا أن ما عليها كان ليكفي ستّة أشخاص.

في تلك الأثناء انتهت مناوبة الجنديين الحارسين وجاء آخران ليحّلا محلهما حيث وقف أحدهما عند الباب بينما وقف الآخر وراء الكرسي الذي أجلس عليه، كلاهما يمسك ببندقية مثبت أخمصها على الأرض و يشخص سلاحها الأبيض نحو الأعلى. من الشباك كنت أرى جنديين اثنين آخرين يقومان بأداء دورية حراسة بنسق جيئة وذهاباً وهما يحملان سلاحيهما بخفة ومهارة. لا بد

أن هؤلاء هم حرس الشرف، ليس عليهما خشية شيء، بل يمكنهما الذهاب إلى مطعم الحصن وقضاء الوقت بلعب الورق إذ ليس في نيّتي التزعزع من مكاني ولو قيد أنملة قبل أن تحظى معدتي الخاوية بوجبة مضاعفة من الطعام الممتاز الذي يقدم للضباط الفرنسيين أيام الآحاد.

ترتيب المائدة بما عليها من صحون كثيرة مختلفة الأحجام والأشكال، إلى جانب الأقداح العديدة والمخصص كل نوع منها لمشروب معيّن، وكذا الحال مع الملاعق والأشواك والسكاكين، هذا المنظر جعلني أعتقد أن ما أنتظره يستأهل مني القبول بثلاثة أحكام بالموت مقابل ذلك الطعام الموعود، سيما مقارنته بوجبة الجلّاد الأخيرة التي قدمها لي البلجيكيون حين كانوا على وشك أن يشنقوني. ما يؤرقني الآن هو شيء واحد، هل يا ترى سأكون قادراً على التهام كل الطعام أم سأضطر إلى ترك بعض منه مما سيتسبب لي، وأنا في ساعاتي الأخيرة من الوجود، بشعور من الندم شديد المرارة بسبب أفكار لا فكاك منها قد تعذبني حتى آخر لحظة لأني تركت شيئاً لم أستطع أكله.

تمام الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر فُتح باب الغرفة وابتدأ الحفل.

لأول مرة في حياتي أكتشف كم نحن برابرة ومتوحشون وكم هم متحضّرون هؤلاء الفرنسيين، كما اكتشفت أيضاً أن غذاء الإنسان لا يجوز له أن يكون مطبوخاً أو مقلياً أو مشوياً أو محمّصاً، بل يجب إعداده وهذا الإعداد هو فنٌّ، كلا ليس مجرد فن، إنه موهبة يتمتع بها المختارون والمحظوظون فقط، موهبة وضعت معهم في المهد لكي يصبحوا عباقرة فيما بعد.

على التوسكالوزا كان الطعام جيداً، وبعد تناوله كنت قادراً على تسمية ما أكلته وهذا ما لا أستطيع قوله هنا، فما عرفت ما تم تقديمه ولا عرفت ما مذاقه. كان كالقصيدة التي يحلم المرء خلالها ويغوص في أحاسيس من الهناء ثم حين يُسأل المرء لاحقاً «عماذا تحدثت القصيدة؟» آنذاك يعترف المرء وهو في حالة

اندهاش انه لم يتنبه لذلك قط.

الفنان الذي أبدع تلك القصيدة كان مبدعاً بحق، إذ لم يخلّف في نفسي أي شعور بالندم لأني لم أترك في الطبق بيتاً واحداً من قصيدته. فكل طبق أعد بتوازن متناهي الدقة من حيث فائدة قيمته الغذائية ومتعة مذاقه اللذيذ إلى آخر لقمة منه ما جعلني أترقب تقديم الطبق الثاني بشغف أكبر، وحين وصل احتفيت به. استغرقت تلك الاحتفالية قرابة ساعة وربع الساعة وحتى لو استمرت أربع ساعات ما كنت تاركاً لشيء. قدموا أنواعاً كثيرة من الأطعمة واحدة تلو الأخرى حتى الفاكهة المحلاّة بالكراميل والقشدة حتى بت، بعد الانتهاء من طبق، أتطلع إلى الذي يقّدم بعده. لكن كل شيء انتهى بسرعة، إذ من ديدن الأشياء الجميلة أن تمضي سريعاً على عكس الأمور المحزنة! أي نعم، بعد أن انتهيت من المشروبات والخمور الجيدة ثم أخيراً من القهوة الحلوة السوداء والساخنة، شعرت بالامتلاء مثل شوال ثقيل لكن منتشياً وهانئاً تغمرني مشاعر فردوسية مع توق هادئ جداً نحو العشاء.

نعم يا سادتي، كان طعاماً يستحق أن اسميه عملاً فنيّاً، ومن أجل الحصول عليه سأتقبّل بسرور ورضى الرمي بالرصاص مرتين يومياً.

دخّنت سيجارة فاخرة مستوردة تنشقت عبرها كل عطور جزر الكاريبي، ثم استلقيت على سرير معسكر كان في الغرفة ورحت أتابع من الشباك الغيوم البيضاء المسافرة عبر زرقة السماء. أوه يا لجمال الحياة وروعتها، جمال يستحق الرضا بالرمي بالرصاص وابتسامة عرفان مرسومة على الشفاه دون صخب أو نحيب يعكّر صفوها.

15

كانت بضع ساعات قد انقضت حين دخل الضابط إلى الغرفة. وقفت لكنه

قال يمكنني البقاء مستلقياً وأنه جاء لإخباري أن القائد العسكري سيعود مبكراً صباح الغد وليس في مسائه، كما كان أعلمني مسبقاً، أي قبل مرور الأربع والعشرين ساعة، وأوضح أنه سيترك أمر القرار بشأني للحاكم لكنه أضاف **«طبعاً، لن يغيّر ذلك شيئاً في المصير الذي ينتظرك؛ فقانون الحرب هنا واضح جداً ولا ثغرة فيه.»** «لكن الحرب انتهت منذ زمن أيها السيد الضابط.» أجبته.

ـ «معلوم، لكننا هنا في حالة حرب، فتعليمات مواقعنا الحدودية لم تتغير قط، إذ أن وزارة الحرب بباريس مازالت تعتبر المنطقة الحدودية مع إسبانيا منطقة خطر بسبب التهديدات الخطيرة في مستعمراتنا شمالي أفريقيا.»

مناطق الخطر والتعليمات التي يتحدث عنها لا تعنيني، فما شأني بالسياسيين الفرنسيين؟ فما يهمني حقاً بعد هذه القيلولة الهانئة هو شيء آخر وهذا ما أردت قوله له. أراد الضابط الانصراف، وقبل أن يهم بمغادرة الغرفة ابتسم وسألني:

ـ «آمل أنك على ما يرام في ظل هذا الظرف، قل لي هل أعجبك الطعام؟»

ـ **«نعم، شكراً»**. لا، لا يجوز أن أسكت، سأسأله:

ـ «المعذرة يا سيدي، السيد الضابط، هل سأحصل على وجبة عشاء؟»

ـ «بالتأكيد، هل ظننت أننا سنتركك تتضور جوعاً حتى مع كونك ألمانياً، ستحصل على قهوتك خلال دقائق قليلة.»

أبديت له بعض الامتنان إذ لا بد التصرف بأدب مع المضيّف الكبير، لكن مهلاً، إلى الجحيم بكل شيء، ما الذي يدعو إنسانا محكوما عليه بالموت ليكون مؤدبا.

ـ «المعذرة سيدي الضابط، هل سأحصل على وجبة مضاعفة من الطعام الممتاز المخصص للضباط؟»

ـ «بالتأكيد، هذا مثبت في التعليمات. فهذا هو يومك الأخير ولسنا نسعى إلى

أن نجعلك تذهب إلى، إلى...، المهم، وأن تغادر حاملاً عنا ذكرى سيئة.»

ـ «لا تقلق بتاتاً يا سيدي الضابط، سوف أحتفظ بذهني بأجمل ذكرى لهذا الحصن، يمكنك جداً أن ترميني بالرصاص لكن لطفاً ليس حين تكون الوجبة المزدوجة من الطعام الممتاز المخصص للضباط على المائدة، فإن ذلك سيكون فعلاً بربرياً لن أغفره لك بل وسوف يتوجب عليّ الإبلاغ عنه حال وصولي إلى الأعلى.»

لوهلة ظل الضابط يحدّق في وجهي وكأنه لم يفهم كلامي تماماً، حقاً، ليس من السهل فهم ما أعنيه بالطريقة التي أتكلم بها. لكنه فجأة أدرك ما أعنيه فبدأ يضحك بشدة بل واضطر إلى المشي نحو الطاولة ليمسك بحافتها كي لا يسقط أرضاً من شدة الضحك. الجنديان الحارسان فهما جزءاً مما قلته وإن لم يفهما مغزاه الحقيقي. كانا يقفان جامدين كدميتين، إلا أن عدوى الضحك انتقلت اليهما أخيراً فشرعا يضحكان دونما علم بالسبب وبالإنسان الذي سيدفع فاتورة الضحك.

عاد القائد العسكري مبكراً، وفي تمام الساعة السابعة صباحاً تم عرضي عليه.

ـ «ألم تر اليافطات؟»

ـ «أية يافطات؟»

ـ «اليافطات التي كتب عليها أن هذا المكان هو منطقة عسكرية وأن من يدخله سوف يحاسب وفق القانون الحربي، وهذا يعني حكم الموت إعداماً بالرصاص دون محاكمة.»

ـ «صرت أعرف هذا الأمر.»

ـ «إذن أنت لم تر اليافطات.»

- «كلا، وحتى لو كنت رأيتها لما انتبهت لها، فأنا لا أعرف قراءة ما مكتوب عليها، أقصد إني أستطيع قراءة الكلمات لكني لا أفهمها.»

- «هل أنت هولندي؟»

- «لا، أنا ألماني؟»

لو كنت أخبرته بأني الشيطان بشحمه ولحمه وقد وصلت تواً ومباشرة من الجحيم كي أصطحب القائد العسكري شخصياً معي لما كان أبدى دهشة أكبر من تلك التي ارتسمت على قسمات وجهه.

- «اعتقدت أنك هولندي. أنت إذن ضابط في الجيش الألماني أو في الأقل سبق وخدمت فيه كضابط، أليس كذلك؟»

- «لا، لم أكن حتى جندياً في الجيش الألماني.»

- «ولِمَ لا؟»

- «لأني كنت في السجن طوال فترة الحرب.»

- «بتهمة التجسس؟»

- «لا، ولكن لأن الألمان اعتقدوا بأني لن أسمح لهم بشن الحرب، لذا أصابهم هلع شديد لدرجة أنهم حبسوني مع ستّة رجال آخرين رفضوا بدورهم السماح للحرب بأن تقوم.»

- «وكان بمقدورك مع أولئك الرجال الستّة منع نشوب الحرب؟»

- «في الأقل هذا ما ظنّه الألمان. قبل ذلك لم أكن أدرك مدى قوتي وتأثيري لكني فهمت هذا لاحقاً إذ لما كانوا بحاجة لإيداعي السجن.»

- «وأين كان سجن الحصن الذي قضيت فيه مدة سجنك؟»

ـ «في ...في سودفالن»

ـ «في أية مدينة؟»

ـ «في دويتشبورغ»[4]

ـ «لم أسمع بهذا المكان قط.»

ـ «أي نعم، لا يجري الحديث عنه كثيراً، فهو حصن سري جداً لا يعرفه الألمان أنفسهم.»

هنا التفت القائد العسكري إلى الضابط وسأله:

ـ «هل كنت تعلم أن الرجل ألمانياً؟»

ـ «نعم سيدي، لقد أخبرني بذلك فوراً دون أدنى محاولة للتملّص.»

ـ «أخبرك بذلك مباشرة دون أن يحاول الهرب؟»

ـ «نعم سيدي.»

ـ «هل كان بحوزته جهاز تصوير، صوراً، رسوماً تخطيطية، خريطة أو أي شيء من هذا القبيل؟»

ـ «لا يبدو ذلك، كما أني لم آمر بتفتيشه، لكنه كان على الدوام تحت الحراسة ولم تكن له قط فرصة إخفاء شيء؟»

ـ «تصرّف صحيح. سنرى ماذا يحمل معه.»

تقدم نحوي جنديان برتبة رقيب وفتشاني غير أن الحظ لم يكن من نصيبيهما. لم يجدا شيئاً سوى بضعة فرنكات ومنديلاً ممزقاً ومشطاً صغيراً وصابونة

4- دويتشوبورغ لا وجود لها، اسم لمدينة اختلقها الراوي البحّار.

صغيرة، وتلك أحملها معي كدليل شرعي على انتمائي إلى العنصر المتحضّر، وهو أمر أحرص عليه لأن مظهري لوحده لا يوحي دوماً على ذلك الانتماء.

- «**اقطع لوح الصابون.**» هكذا أمر القائد احد الجنديين، لكنه لم يجد شيئاً يبدو أن القائد العسكري ظن أن لوحاً من الشكولاطة داخله. ثم أمروني بخلع بسطالي ليتم تفتيش النعلين. لكن ما الذي يمكن أن يجده هؤلاء حين لم تجد الشرطة شيئاً، ليتني أعلم ما الذي يريده هؤلاء البشر مني، وطبعاً لم يجد الجندي ما كان يبحث عنه. ليتهم أفصحوا عما يبحثون عنه إذ كنت سأعطيهم وبسرور جوابي، سلباً كان أم إيجاباً، ليوفّروا على أنفسهم جهداً. لكنهم بذلك سيصبحون عاطلين عن العمل.

لا بد من أنه شيء ثمين حقاً، ذلك الذي لا يكفّ البحث عنه في جيوبي بكل بلد حططت فيه الرحال. أتراهم يبحثون عن خريطة عتيقة لمنجم ذهب مطمور أو لمنجم ماس أخفته الرمال. لوهلة أوشك القائد العسكري على البوح أمامي بماهية السر حينما ذكر شيئاً ما يتعلق بخطط، لكن الرجل سرعان ما تذّكر أنه لا يجوز إلا لرجال الشرطة والجيش الإطلاع على هذا السر الخطير فأحجم عن الكلام.

- «**أمر واحد لا أفهمه**»، التفت القائد إلى الضابط، «**كيف استطاع هذا الرجل المرور أمام مركز الحراسة ودخول الحصن دون أن يلحظه أحد ويوقفه؟**»

- «**الحركة في الشارع المؤدي إلى الحصن تكون في العادة محدودة جداً في تلك الساعة من النهار، وكنت أيضاً أنفذ أوامر السيد القائد بالإشراف على التمارين العسكرية في الجناح المقابل، لذا لم يتبق هنا سوى أفراد حرس الدورية لمراقبة الحركة في الشوارع. حتماً إن دخوله إلى الحصن جرى في الفترة ما بين مناوبتين للدورية. لو سمحت لي سيدي القائد فاني أتقدم هنا باقتراح يستند إلى تجربتي**

العملية يتلخص بتقليص فترة التمارين إلى الثلث لتلافي الضعف في جانب الحراسة».

ـ «ظننت أن اقتراب شخص من المكان أمراً مستحيلاً وثم كان عليّ الالتزام بالأوامر العليا رغم علمي بوجود ثغرات فيها والتي، كما تعلم جيداً، كنت أبلغت عنها سابقاً، أما الآن، فقد صارت حجّتي أقوى لتمرير مسّودة باقتراحاتنا لتجاوز تلك الثغرات والإصرار على الأخذ بها والمسألة تستأهل ذلك، ألا تشاطرني الرأي؟»

وما شأني أنا بالمسوّدة والاقتراحات، ولماذا يناقشانها بوجودي؟ ولكن ما الضير في ذلك ولماذا يجب عليهم أن يكمموا أفواههم أمام رجل في عداد الأموات.

ـ «من أين أتيت؟» سألني القائد العسكري.

ـ «من لوموج.»

ـ «وما هي نقطة الحدود التي عبرت منها؟»

ـ «شتراسبورغ»

ـ «من شتراسبورغ؟ ولكنها لا تقع أصلاً على الحدود.»

ـ «أقصد من تلك النقطة حيث تعسكر القوات الأمريكية.»

ـ «أتقصد منطقة نهر الموسل؟ إذن عبرت من منطقة السار، أليس كذلك؟»

ـ «نعم، هذا ما أردت قوله، لقد خلطت بين شتراسبورغ وساربورغ؟»

ـ «وماذا كنت تصنع طيلة الوقت في فرنسا، هل كنت تتجول مستجدياً؟»

ـ «لا، كنت أعمل عند مزارعين وكنت حين أجني بعض المال أشتري تذكرة سفر وأسافر إلى منطقة أخرى لأجد مزارعاً آخر أعمل لديه فأجني المال وأقطع

تذكرة سفر وأسافر من جديد وهكذا.»

ـ «والى أين تريد السفر الآن؟»

ـ «إلى إسبانيا.»

ـ «وما الذي تريد صنعه في إسبانيا؟»

ـ «انظر يا سيدي القائد، الشتاء على الأبواب وأنا لم أدخر ما يقيني البرد، لذا خطر ببالي الذهاب إلى إسبانيا حيث الشتاء رحيم لا يحتاج المرء فيه لوقود للتدفئة، بل يستطيع قضاء نهاره جالساً باسترخاء في الشمس يأكل البرتقال والعنب الذي ينمو كالعشب البري إذ ليس عليك إلا أن تقطف وتأكل، فالناس هناك يبتهجون وهم يرونك تفعل ذلك كي تخلصّهم من تلك الأثمار التي يعتبرونها عشباً برياً ضاراً لا بد من اجتثاثه.»

ـ «إذن تشد العزم إلى إسبانيا؟.»

ـ «نعم، هذا ما أردته لكن لم يعد ذلك ممكناً الآن.»

ـ «ولماذا؟»

ـ «لأنني سأعدم رمياً بالرصاص.»

ـ «لو أنني أخبرتك بأنك لن أدعك تعدم رمياً بالرصاص، وأطلب منك العودة حراً وعلى وجه السرعة ومباشرة إلى ألمانيا بشرط أن تفعل ذلك فوراً، فهل تعدني بتنفيذ ذلك؟»

ـ «لا.»

ـ «لا؟» نظر إليّ الضابط باستغراب.

ـ «أفّضل الإعدام رمياً بالرصاص على العودة إلى ألمانيا. لقد عقدت العزم

على الذهاب إلى إسبانيا وليس من مكان سواها، إذا قررت الذهاب إلى مكان ما فسأذهب إليه وإذا تم إعدامي فلن أذهب إليه، إسبانيا أو الموت، فافعل بي ما شئت.»

ـ «سآمر بإيصالك فوراً وسّرياً إلى منطقة الحدود» قال القائد فجأة «فانطلق من هناك بالطريقة التي تراها تناسبك إلى أبعد نقطة ممكنة داخل إسبانيا. وبالمناسبة أيها البحّار، فإن برشلونة ميناء كبير حيث الحاجة دائمة لبحّارة وأظنني لست بحاجة إلى تذكيرك بمصيرك السريع المحتوم لو تم ضبطك بالقرب من هذه المنطقة حتى لو كانت ليست عسكرية بحتة، هل فهمت تماماً معنى كلامي؟»

ـ «نعم سيدي القائد.»

ـ «جيد، سوف تنطلق فوراً.» لكنني بقيت متسمراً في مكاني.

ـ «هل من شيء آخر؟» سألني القائد.

ـ «هل يمكنني توجيه سؤال إلى السيد الضابط؟» لم تَعْلُ الدهشة ملامح القائد العسكري، بل الضابط في الأساس؛ إذ حدّق القائد بوجه الضابط بطريقة بدت وكأنه يحيله بهذا إلى محكمة عسكرية، لقد فطن القائد بأن الضابط متواطئ معي فعلاً.

ـ «تفضل ووجّه سؤالك إلى السيد الضابط.»

ـ «المعذرة سيدي الضابط فأنا لم أتناول فطوري بعد.»

انفجر القائد العسكري والضابط بنوبة عارمة من الضحك، وصاح القائد محدّثاً الضابط:

ـ «الآن زال كل شك حول الرجل.»

ـ «لقد تلاشت شكوكي تماماً منذ الأمس» أجاب الضابط «وذلك حين سألته إن كان جائعاً.»

ـ «جيد، ستحظى بفطورك.» قالها القائد مواصلاً ضحكه.

«أيها السيد الضابط، بما أنها ستكون وجبتي الأخيرة هنا، لنقل وجبة الوداع، فهل لي بطلب وجبة فطور مضاعفة من تلك المخصصة للضباط؟ سيترك هذا للحصن صدى جميلاً في ذاكرتي.»

جلجلت ضحكات القائد العسكري والضابط حتى خلت الحصن يهتز من دوي عاصفة الضحك. ومن فرط الضحك، وجد القائد العسكري صعوبة في ترتيب كلماته ليقول:

ـ «إنه الألماني الأكثر جوعاً على الإطلاق، فحتى حين كاد حبل المشنقة يلتف حول عنقه أراد الأكل ثم الأكل قبل الموت، يا لهذا الشيطان المفجوع الذي لا يمكن إشباع نهمه.»

آمل أن يشيّد لي الألمان يوماً نصباً تذكارياً معتبراً تكريماً للأثر الطيب الذي خلّفته لدى ضابطين فرنسيين عنهم.

16

رجلان مدججان ببندقيتين شاهرتي سلاحيهما الأبيض عالياً، رافقاني. هكذا رحلت إلى إسبانيا مصحوباً بتشريف عسكري رفيع.

أسعدني الحظ بالوصول إلى برشلونة، وبطبيعة الحال فقد صادفتني بين الحين والآخر، هنا وهناك، بعض المعوقات بسبب الأوراق الثبوتية التي لم أستطع إبرازها عند الطلب. وبما أن السجون كانت مكتظة بالمساجين السياسيين فلم يبق فيها متسع لسجين أجنبي لا يشكل خطراً سياسياً، لذا سُمح لي بأن أظل

طليقاً أعيش يومي على طريقتي التي خبرتها واعتدتها.

حقاً كانت برشلونة تعج بالسفن القادمة من كل أصقاع الأرض، عشرات السفن كانت ترسو والكثير منها بحاجة إلى أيد عاملة، بل أن البعض منها كان يبحث عن طاقم بأكمله لكن **«هل لديك بطاقة بحار أو دفتر بجداول عملك على السفن؟»، «للأسف كلا.»، «لا يمكننا تشغيلك، ولو فعلنا فسنعرّض أنفسنا للعقوبة، فالقوانين باتت متشددة جداً، ربما حاولت على متن سفينة أخرى، فقد يحالفك الحظ»**.

وهكذا حاولت وحاولت لكن المحاولات لم تعد علي حتى بحبة بطاطا مسلوقة، والحاجة للحصول على تلك الحبة جعلني أجوب الشوارع والطرقات بحثاً عنها.

في أحد الأيام وأثناء مروري أمام بناية كبير تناهي إلى مسمعي صراخ ونحيب وأنين. **«ماذا يحدث هنا؟»** سألت رجلاً سائراً في الدرب، فأجابني **«هذا هو السجن العسكري»**.

ـ «لكن لماذا يصرخ الناس بداخله صراخاً يقطع نياط القلب؟»

ـ «ناس؟ أولئك ليسوا ناساً، إنهم شيوعيون.»

ـ «كونهم شيوعيين أمر لا يستوجب الصراخ.»

ـ «ألا تفهم يا رجل؟ يجري الآن ضربهم وتعذيبهم.»

ـ «ولماذا؟»

ـ «أقول لك أنهم شيوعيون.»

ـ «نعم، أخبرتني ذلك ثلاث مرات.»

ـ «ولذلك يُعذّبون حتى الموت، وفي المساء تُنقل جثثهم وتُطمر.»

- « هل هم مجرمون؟»

- «كلا، هم شيوعيون.»

- «ولهذا السبب يجري تعذيبهم حتى الموت؟»

- «أجل، إنهم يريدون تغيير كل شيء إذ لا شيء هنا ينال رضاهم، يريدون تحويلنا إلى عبيد فلا نعود أحراراً نفعل ما نريد بل الدولة وحدها تفعل ما تشاء أما نحن فنصبح عمالاً لدى الدولة. لكننا لا نريد ذلك، بل نريد أن نقرر نحن العمل الذي نريده وأين ومتى، وحتى لو امتنعنا عن العمل وفضّلنا أن نجوع فلا نريد لأحد أن يتدخل في حياتنا. الشيوعيون يريدون التدخل في كل شؤوننا وأن تنفرد الدولة بالتحكّم بنا. نعم قتلهم أمر صائب جداً.»

لكل عصر وعهد ولكل بلد، مهما كانت درجة تحضّره، محاكماته التفتيشية ومطارداته للمارقين والسحرة. معاملة المارقين في أمريكا مثلاً ليست بأفضل منها هنا في إسبانيا لكن المحزن حقاً هو أن ضحايا الأمس القريب صاروا اليوم جلادين بشعين وهذا ديدن البشر. الشيوعيون بشكل خاص هم اليوم ضمن الجلادين البشعين.

أولئك الذين دأبوا على الإلحاح سيكونون باستمرار عرضة للملاحقة. المهاجر إلى أمريكا منذ خمس سنوات والذي حصل بالأمس فقط على هويته وجنسيته الجديدة بات اليوم من أشرس الزاعقين أن «أحكموا إغلاق الحدود، لا تدعوا أحداً يدخل» ومع ذلك فالكل مهاجر، الجميع مهاجرون أو أبناء مهاجرين بدون استثناء رئيس البلاد.

لماذا الركض وراء العمل؟ عندما يقف المرء في حضرة من يمنحه إياه فإنه يتلقى المهانة وكأنه شحاذ لجوج. «لا وقت لدي الآن، تعال فيما بعد.» لكن لو قال العامل مرةّ «لا وقت لدي أو لا رغبة عندي في العمل عندك.» فتلك ثورة وإضراب وزعزعة لأسس المجتمع وتهديد لاستقراره، فتأتي الشرطة وأفواج

الميليشيات وتُنصب المدافع الرشاشة. حقاً إن استجداء لقمة خبز هي أحياناً أقل مدعاة للخجل من السؤال عن فرصة عمل. لكن هل يستطيع القبطان أن يسير بدلوه العائم لوحده دون عمال؟ هل يستطيع المهندس بناء القاطرات بمفرده بدون عمال؟ لكن على العامل أن يظل يستجدي العمل حاملاً قبعته بيديه مطأطأ الرأس ومنكسر القلب، واقفاً مثل كلب استحق الزجر والعقوبة وأن يضحك على النكات التافهة التي يرويها رب العمل ليقهقه مضطراً مجاراة له وهو الحزين، إذ ما من شيء في حياته يدعو للضحك. يفعل كل ذاك كي لا يفسد مزاج الربان أو المسؤول عن العمال أو أي شخص آخر بيده الأمر آملاً أن يسمع منه «**سوف يتم تشغيلك**». إذا تحتّم علي إذلال نفسي لاستجداء عمل فيمكنني ذلك أيضاً وأنا أستجدي فضلات الطعام من أحد المطاعم؛ فطباخ المطعم الذي يجود عليَّ ببعض الأكل لم يعاملني بذلك الازدراء الذي قوبلت به باحثاً عن عمل.

17

وفّقتني الأيام في تجاوز الصعوبات التي يمكن تخّيلها وتلك التي يُعجز عن تخيّلها. المهم، فقد استقر بي الحال بشكل ما في ميناء صغير. يوماً استشعرت رغبة في أكل سمك وفكرت بأن أسهل طريقة لأكل السمك هي اصطياده. أن يتصدق عليك أحد بصحن حساء أو قطعة خبز أو يهبك قميصاً تستر به جسدك كان أمراً سهلاً أما أن يخطر ببالك استجداء صنارة صيد مع عّدتها فتلك ستكون سابقة عصرية جداً. لذا مكثت أراقب حركة الميناء في انتظار فرصة للقيام بعمل ما لأجني بعض النقود. وحين رست باخرة ركاب وخرج المسافرون عبر حاجز الإجراءات الجمركية سلّمني أحدهم حقيبة لأحملها برفقته إلى فندق، وهناك أعطاني الرجل مبلغاً من المال لقاء خدمتي.

قصدت متجراً واخترت صنارة فيما كنت أثرثر مع البائع محدّثاً إياه عن قصتي، عن البحّار الذي فقد سفينته. لفّ البائع الصنارة بورق جميل وبعناية فائقة وقدّمها لي. وفيما كنت على وشك أن أعطيه قائمة الدفع لأسدد ثمن ما اشتريت أخذها مني الرجل مبتسماً ثم مزّقها بهدوء وأناقة ورمى من فوق كتفه بالقصاصات الورقية الصغيرة إلى سّلة المهملة خلفه، وقد فعلِ ذلك بحركة لم تقل أناقة ورشاقة عن سابقتها، ثم انحنى أمامي بأدب جمّ قائلاً أن الحساب قد سُدّد وشكرني وتمنّى لي وقتاً طيباً مع الصيد.

رميت بصنارتي في البحر وجلست أنتظر. لم تلتقط أية سمكة الطُعم الدسم الذي صنعته من بقايا قطعة اللحم التي جادت بها عليّ سفينة هولندية، حيث كنت ذلك النهار أشارك البحارة طعامهم. السفن التي ترسو في الميناء تجود ببعض الطعام على أمثالي بالسماح لهم بمشاركة عمالها الأكل، وهو شأن لا يخلو من هوان ومذلّة في أغلب الأحيان. العامل الحاصل على فرصة عمل جيدة، أقلّها حسب اعتقاده، يرى نفسه متفوقاً على العامل الذي لا عمل له بل ويجتهد في إيصال شعوره بالتفوق إلى العامل العاطل عن العمل. العمل هو الشيطان الأكبر للعمال «**هه أيها المتسكعون، يا من تذرعون بخطواتكم رصيف الميناء جيئة وذهاباً، أهذه المرة أيضاً ليس لديكم ما تفترسونه؟**» «**حتماً تريدون الصعود إلى صندوقنا العائم لتحصلوا على ما تأكلونه، أليس كذلك؟ وينبغي علينا من جديد أن نقدم لكم ما تفترسونه، هه؟؟ اثنان منكم فقط يمكنهما الصعود، أنتم ترهقوننا وتخلّفون الفوضى.**»

في أغلب الأحيان لا يُسمح لنا بالدخول إلى قاعة طعام البحارة، بل يتوجب علينا الوقوف عند الباب ثم يقوم رفاق لنا من أبناء البروليتاريا بسكب كل ما تبقى في أطباقهم من فضلات طعام، بعضها ما سبق مضغه، في إناء كبير من الصفيح فيه بقايا حساء، فيدفعون به بإقدامهم إلينا فيتحتم علينا جلوس القرفصاء لنأكل. وإذا طلب أحدنا بأدب الحصول على ملعقة فتسمع فوراً من

يزجرك قائلاً: «**لا ملاعق**» وهكذا نبدأ بغرز أصابعنا في الخليط اللزج أمامنا لنأكل. أما أنا، فقد علّمتني تجارب الحياة الساخرة أن أحمل ملعقتي دوماً في جيبي. أولئك البحارة لم يكونوا الأسوأ على الإطلاق فقد كان بحارة آخرون على سفن أخرى يطردوننا لنغادر سطح السفينة باعتبارنا شرذمة من الحثالة في حين يتسلى طاقم بحارة آخر بإثارة حنقنا، وذلك برمي بقايا الطعام من اللحم والبطاطا والخضر والفواكه إلى البحر ثم يُتبعونها برمي أرغفة كاملة من الخبز وعلى مرأى منا. لكن بعض الأحيان كان مسلياً أن نرى أن أحدهم فقد عمله لسبب أو لآخر فينضم إلى جوقة الجائعين المستلقين على الشاطئ ويضطر لاستجداء لقمة الخبز معنا، ويلمس بنفسه المعاملة المزرية التي يلقاها من رفاق طبقته العاملة.

لم يكن الجميع بذلك السوء. فقد حدث ومنحني رفيق من بروليتاريا السفن نقوداً من تلقاء نفسه دون سؤال، وآخر وهبني كميات كبيرة من الطعام من بطاطا وخضروات ومعلبات من اللحم وأكياس القهوة، بل، واثنتي عشر دجاجة مقلية أعطيت بدوري عشراً منها لرفاقي؛ فما كنت قادراً على التهامها كلها أو حفظها ليوم آخر إذ لم أكن املك ثلاجة في جيب بنطالي. كل ما يملكه المرء من متاع الدنيا يحمله معه وهو جزء منه.

يلتقي المرء بصنوف كثيرة من البشر خلال جولاته في موانئ العالم البرتغالية، والإسبانية، والهندية، والإفريقية، والمصرية، والصينية، والاسترالية، والأمريكية الجنوبية ويتعلم فيها كل ما يخطر على البال من وسائل وطرق تعينه على البقاء حياً يرزق، لكن لا أحد يتركك تعاني الجوع القاتل بدم بارد كالعامل. والعامل من أبناء جلدتك هو أسوأ وأقسى جميع الشياطين. كأمريكي غالباً ما رمى بي البحارة الأمريكيون خارج سفنهم حين قصدتها جائعاً بينما عوملت كأمير على سفن فرنسية حين أدعيت أنني ألماني الجنسية. طاقم البحارة أصر على

دعوتي إلى كل وجبة عشاء وغداء وفطور طوال مدة وجودها راسية في الميناء، كان ذلك في برشلونة. وقبل أن أهم بالصعود إلى سفينة ألمانية كان طاقمها يلفت انتباهي بالإشارات الواضحة إلى اليافطة المثبّتة عند السّلم المتحرك المدلى منها «ممنوع الدخول».

18

في برشلونة قيل لي أن سفناً أمريكية كثيرة راسية في ميناء مرسيليا بحاجة ماسة إلى عمال، ومنها من يحتاج لطاقم بأكمله لأن عدداً كبيراً من العمال فضلّوا البقاء في مرسيليا على عملهم في البحر حبّاً بالفتيات الفرنسيات الجميلات. لكن ولا سفينة أمريكية واحدة كانت في الميناء كما أن أياً من السفن الأخرى لم تكن بحاجة لعامل جديد. رحت أجوب أزقة المدينة حائراً ومحبطاً ثم دلفت إلى حانة يؤمها الكثير من البحارة آملاً أن التقي وجهاً أعرفه قد يمكنه أن يساعدني في محنتي إذ لا بنساً واحداً في جيبي. حين كنت أجول بنظري باحثاً عن مقعد شاغراً اقتربت مني نادلة شابة وسألتني ما طلبي من الشراب فأخبرتها بأني لا أملك نقوداً وإنما جئت الحانة لعلّي أعثر على شخص أعرفه.

ـ «**ماذا تعمل؟**» سألتني النادلة.

ـ «**بحار ألماني**» هكذا أجبتها.

ـ «**أجلس وسوف أحضر لك ما تأكله.**»

ـ «**لكني لا أملك مالاً**» كررت القول.

ـ «**لا تبال، حالاً ستجني الكثير من المال.**»

لم أفهم ما قالته ولوهلة فكرت في الفرار لأني خشيت أن يكون في الأمر فخاً ما. بعدما انتهيت من طعامي وواصلت شرب النبيذ من الزجاجة التي أمامي،

قالت النادلة بصوت جهوري من مكانها خلف البار: «**أيها السادة، هنا بيننا بحار ألماني مسكين بدون سفينة هل تريدون أن تعطوه شيئاً؟**»

أصابني شحوب الموتى وأنا أسمعها، وتصورته الفخ الذي خشيته وأن هناك من يرغب بالسخرية مني وبالتالي ضربي. غير أن شيئاً من ذاك لم يحصل، كل ما جرى إن الجميع توقف فجأة عن الحديث والتفتوا صوبي ثم نهض واحد من الحاضرين وتقدم نحوي حاملاً كأسه ورفعها قائلاً: «**أشرب نخبك أيها الألماني!**» قالها بكل احترام. ثم أخذت النادلة طبقاً وطافت به على الحاضرين وفي نهاية جولتها أفرغت ما في الطبق من قطع معدنية على طاولتي فاستطعت دفع ثمن ما أكلته وشربته وطلبت زجاجة نبيذ ثانية ومع ذلك تبقى ما يكفي لشراء فطور اليوم التالي.

أغلقت الحانة أبوابها في ساعة متأخرة جداً وسألتني النادلة الجميلة إن كان لدي مكان أبيت فيه ليلتي. طبعاً أخبرتها بالحقيقة، أن لا مكان.

ـ «**سوف تأتي معي هذه الليلة**» كان هذا ردّها «**يمكنك أن تنام في غرفتي.**»

لم أر في غرفتها الصغيرة سوى سرير واحد، لذا أردت النوم على الأرض، كما يحدث غالباً في الأفلام التي شاهدتها، لكي أثبت لها بأنني جدير بثقتها لكن سلوكي كفارس لم يرق للفتاة إذ خاطبتني: «**أصغ لي جيداً أيها البحار التافه بدون سفينة، لماذا برأيك قد ساعدتك وأحضرتك إلى هنا؟ هل للصلاة مثلاً؟ لا تدعني أحمّر خجلاً، أم هل يا تراني بالغت بتقييمك وبقدرتك على تسديد الحساب؟ عليك أن تدفع ثمن العشاء الجيد والنبيذ والمبيت. وبمناسبة الحديث عن الدفع، فأنصحك بأن تُحسن فعل ذلك و إلا فسأندم في الصباح ندماً شديداً لو خاب رجائي فيك كمُبحِر ممتاز.**»

ما العمل في هذه الظروف؟ لقد أُسقط بيدي ولا بد لي طاعتها من والانصياع لطلبها على أفضل وجه.

في الصباح الباكر قالت لي: «الآن غادر بهدوء تام ولا تحدث ضجة وأنت تنزل السلالم، إذ لو لمحتك تلك الساحرة الشمطاء، صاحبة البيت، فسترفع إيجار الغرفة لأنها تعتقد أني أتقاضي مالاً عن عمل إضافي. اسمع، إذا زرت مرسيليا مرة أخرى فتعال لزيارتي فسيسرني أن أراك ثانية وسيكون عشاؤك ونبيذك ومكان مبيتك في انتظارك.»

في تلك اللحظة فكرت أن أصارحها بأنها على خطأ حين تظن أن الألماني هو وحده القادر على تسديد الفاتورة، لكنني واثق أنها ستكتشف تلك الحقيقة يوماً ما لأن سفناً أمريكية كثيرة تأتي إلى مرسيليا وعلى متنها بحارة شبان مؤهلون لتسديد فواتير كهذه لو وجدوا لذلك فرصة.

وكما جئت على ظهر مركب شحن صغير، عدت في نفس النهار إلى برشلونة.

اللعنة يكاد الطُعم أن ينفد ولم تقترب سمكة لعينة واحدة من صنارتي، هذا جزاء سرحان البال وتشتت الأفكار بدلاً من التركيز على المهمة بيدي. سأكتفي بسمكات قليلات، أشويهن كلّهن مرة واحدة وأتمتع بمذاقهن اللذيذ؛ فقد سئمت مذاق السردين المعلّب الطافح بالزيت. لكن لا سمكة تأتي، ومنذ متى جالس أنا هنا؟ حتماً قرابة الثلاث ساعات، الصيد يرّوح عن النفس ويهدأ الأعصاب ولا يشعر المرء معه أن الوقت يضيع هباء. الصيد عمل مفيد وإسهام من الفرد في تغذية الشعب إذ أني حين آكل السمك الذي اصطاده هنا بنفسي فلا حاجة لي بطبق حساء يجود به آخرون وباستطاعتي أيضاً بيع السمكات التي سأصطادها، فقد أجني منها ما يكفي لكي أحظى بنوم على سرير لليلتين. أخيراً اصطدتك يا صويحبي، لقد التهمت طعم اللحم كله. لا يبدو وزنه ثقيلاً، ربما نصف كيلو غراماً أو ربما أقل، آها لكنك قادر على أن تنتفض وتتلوى بشدة من أجل حياتك، كم أعرف ذلك الشعور، فكم مرة انتفضت وتلويت حين كان شرطي ما يمسك بي من رقبتي. ومع ذلك فشهيتي للسمك قوية جداً.

نعم، كان الماء بارداً وشعاع الشمس دافئاً وهنا في هذا المكان لم يمسك بي شرطي من رقبتي. آه لو كان وزنك كيلو غراماً واحداً.

لأنك جئتني ولم تدعني أنتظر عبثاً، ولأنني أفضّل ألف مرة أن أكون حراً على أن أكون شبعاناً ولأن الشمس تبتسم وماء البحر أزرق زاه فهيا اذهب، لن يتم إطلاق النار عليك، عد إلى الماء يا صاحبي حراً طليقاً وكن مسروراً بحياتك واحذر أن تلتقط طعماً آخر أو تعلق بشبكة صياد، هيا أسرع وحيّ فتاتك عني. ها هو يسبح سعيداً باستعادة حريته وها أنا اسمع صدى ضحكته وكلماتي: لا تنس أن تحيي فتاتك عني. .

ـ «**يا لك من صياد سمك**» قالها صوت جاء من خلفي. حين التفت إلى مصدر الصوت لأجده شرطي جمارك تبين أنه كان يراقبني طيلة الوقت وصار الآن يضحك بصوت عال مما شاهده.

ـ «**مازال هناك الكثير من السمك في هذه البقعة من الماء**» أجبته وأنا أغرز قطعة من اللحم المعلّب في صنارتي.

ـ «**حتماً هناك المزيد منه، وتلك السمكة كانت ممتازة ومكتنزة.**»

ـ «**حقاً كانت كذلك. لقد التهمت معظم اللحم المعلب فكيف لا تكون مكتنزة**»

ـ «**ولماذا تصطاد إذن إذا كنت ترمي بالسمك الذي تصطاده إلى الماء؟**»

ـ «**حتى يمكنني أن أقول لمن قد يسألني عما كنت أفعله طوال اليوم، بأني كنت أصطاد السمك.**»

ـ «**واصل عملك إذن.**» قالها الرجل وهو يبتعد عني.

فقط القليلون يعرفون أن صيد السمك هو فعل فلسفي، هو انك لا تحيا لأن

تكسب وتفوز بل لأنك تجرؤ وتتمنى وتتحدي وتلعب.

ها هي سمكة أخرى علقت في الصنارة. لو أني احتفظت بالأولى لكان عندي الآن ما يكفي لوجبة دسمة، لكني لن أبدأ بتطبيق تمييز طبقي، فقد أفلت السمكة الأولى ولذا لن أحكم على هذه الأخرى، لمجرد غبائها في الاقتراب من صنارتي، بالموت. في الواقع، الغباء عاقبته الموت في كل عصر ومكان لكن عقوبته مؤقتاً هي العبودية فقط. لو كنت اصطدت ثلاث سمكات أخريات مثلك لحكمت عليهن بالموت، كم كبيرة شهيتي لأكلها. لكنك معجزة لذيذة حية، هيا عودي إلى البحر الواسع، هيا! الحرية هي حقاً أعظم وأجمل ما في الحياة. نعم، اللعنة هل عليّ أن أمد يدي أصافحكم جميعاً؟ ها هي سمكة أخرى تعلق، لو احتفظت بك هنا الآن لما اقتربت سمكة ثانية من صنارتي، إذ سيعرف الجميع أنه لا يمكن الاعتماد عليّ، وبما أنك وحدك لا تكفيني ولا يستأهل الأمر الذهاب إلى مكان بعيد لإيقاد نار من أجلك، ثم كم من الزمن استغرقت الحياة كي تصنعك، كي تجعلك بهذا الحجم؟ ست أو ربما سبع سنوات؟ وهل علي الآن أن أطفئ فيك الحياة بلمح البصر؟ اذهبي بعيداً وسّري نفساً بزرقة البحر، اسبحي فأنت تعرفين طعم الحرية فاسعدي بها ولا تفرطي بها.

ما هذا الدلو العائم الغريب الذي يطفو نحوي مترنحاً ومهتزاً لا يبدو انه يلوي على شيء. جرجر نفسه بجهد جهيد ملامساً الرصيف. مركب يتردد في الخروج إلى الماء وكأنه يخشاه، أجل يا سيدي هناك سفن تخشى الماء وتنفر منه. نعم يا سيدي، هذا هو الخطأ الذي يقع فيه الناس حين ينكرون على السفن امتلاكها للشخصية والمزاج والتفرّد مثلها مثل البشر تماماً. لقد رأيت من النظرة الأولى بقايا الشخصية المتفردة لهذه السفينة العجوز. أي نعم، كانت بلا شك سيدة صعبة المنال.

19

الآلهة وحدها تعرف كم من السفن ركبت وأكثر من ذلك بكثير رأيت، لكنني في حياتي لم أر سفينة كهذه الراسية في حظيرة البناء والتصليح. مظهرها العام بل طرازها، كي ابتدأ من نقطة، كان بدعة متميزة، كلا لم يكن مجرد بدعة بل كان غير المعقول بعينه. الرائي لهذا الإناء سيشك كثيراً في قدرته على العوم والسير فوق الماء، بل قد يصدق كونها واسطة نقل صحراوية تنزلق على الرمال بسرعة يجرّها فريق من الجمال الرشيقة. تصميمها غريب، لا هو بالحديث ولا هو بالقديم، وعبثا تحاول تصنيفها حسب فن بنائها. اسمها «يوريكه» كان مرسوماً على مقدمتها لكنه كان باهتاً لدرجة تجعلك تظن أن صاحبته تخجل من التسمي به. ورغم أن قوانين البحر تقضي بأن يكون اسم موطنها ظاهراً للعيان لكن ما من أثر له، فهي تأبى أن تفشي بذلك لمخلوق بل وحتى جنسيتها كانت سراً عظيماً، يبدو أن أوراق منشأها ليست سليمة تماماً. على أية حال فالعلم المرفوع على ساريتها كان قديماً وعديم اللون بحيث يمكنه تقمص أي لون يطرأ على الخاطر وكان متهرئاً أيضاً وبحال شديد البؤس وكأنه كان يرفف على ساريات سفن أساطيل حربية وهي تخوض حروب البحر على مدى الأربعة آلاف سنة الأخيرة.

ما كنت لأحزر لون ثوبها حتى، مع كونه يصب في صميم اهتماماتي، لكن الدلائل كلها تشير إلى أنه في وقت ما سحيق مضى كان أبيض ناصعاً ونقياً مثل نقاء الوليد. أما الدرابزين فكان يومها مطلياً باللون الأخضر. ومذ ذاك اليوم البعيد كانت اليوريكه تطلى مرة بعد مرة بعد أخرى كلما بهت لونها مع مرور الزمن. العمال على سطحها لم يبذلوا جهداً في إزالة طبقة الطلاء القديم عنها قبل أن يقوموا بصبغها من جديد، ربما أنهم مُنعوا من عمل ذلك فأتى طلاء جديد فوق طلاء قديم وهكذا دواليك حتى ازدادت السفينة سمكاً لحد

صارت فيه تبدو ضعف حجمها الأصلي. لو كانوا أجادوا عملهم وكشطوا عنها طبقات الطلاء القديم قبل أن يضعوا الجديد لكان المرء عرف على وجه الدقة نوعية الطلاء المستخدم في كل عهد من العهود. وحتى لا نُتهم بالمبالغة، فان مقدمتها ما كانت بحاجة لكشط اللون عنها فهي ما زالت تتمتع بشيء من اليناعة لم يختف تماماً وإثر عمليات تجميل حصل عليها هذا الجزء منها بين الفينة والأخرى. كان عليك أن تنزع طبقات الطلاء واحدة تلك الأخرى في أروقتها الداخلية إذا أردت مثلاً معرفة اللون الذي طليت به قاعة الكبيرة للاحتفالات في عهد الملك نبوخذنصر، وهو ما سنظل نجهله وسيسبب لنا أنواعاً من الهّم والأرق. نعم كان ثوبها بائساً وبحال يرثى لها، بقعة كبيرة حاول العمال أن يصبغوها بلون بلشفي أحمر قان لكن بدا لمالك السفينة أو قبطانها أن اللون لا يروقه، لذا أكمل العمال طلاء المكان باللون الأزرق كدم الملوك. أما الأحمر فقد ظل في مكانه، ولم لا؟ فقد كلّف مالاً. ماء البحر المالح لا يهمه الأمر فهو ينخر وينخر كل طبقات الألوان، الأحمر البلشفي أو لون الحرية الأخضر. المهم أن يكون للريح والموج ما يفترسانه و إلا فسيفترسان السفينة. المالك التالي للسفينة ظن بدوره أن سفينة بلون أسود سيكون أجمل وأكثر قدرة من أي لون آخر على تمويه عيوبها أمام العيون المرتابة لممثلي شركات التأمين.

في كل ميناء كانت اليوريكه تلقي بمرساها، يكتشف قبطانها أن الأصباغ قد نفدت، فيكتب في سجلاته «تم شراء أصباغاً جديدة». ورغم أن العمال ظلوا يستخدمون الطلاء القديم لكن القبطان يواصل التدوين مرة بعد أخرى وبخط جميل راقص «تم شراء أصباغاً جديدة» إذ لا يمكن أن يقيم المرء أوده مما يحصل عليه من أجر لقاء عمله وحسب. لكن لا أصباغ جديدة اشتُريت، بل استمر العمال يصبغون بالألوان القديمة الموجودة سيان كان لونها أحمر أو أصفر أو أرجوانياً. باختصار يا سيدي هكذا كانت اليوريكه حين رأيتها لأول مرة. لقد

أصابني الفزع حين أبصرتها وأوشكت الصنارة أن تفلت من يديّ لهول منظر وحش البحر ذاك. فغالباً ما يكون المظهر الخارجي للمخبول وتعابير وجهه هو معيار تقييم درجة جنونه ويصبح لباسه وهندامه أكثر غرابة كلما ازدادت درجه الخبل، هذا لو تُرك له أن يختار لباسه بنفسه. بصراحة، لا يمكن الادعاء أن اليوريكه كانت سفينة طبيعية المظهر أو سليمة العقل قط إذ لكان ذلك إهانة لكل السفن الأخرى قاطبة في بحور الدنيا السبعة. مظهر اليوريكه كان متلائماً مع مضمونها، مع عقلها وروحها وكيانها كله بل ومع تصرفاتها، فكلها مجتمعة كانت تجعلك تشك بسلامة قواها العقلية. كلا، لم يتعلق الأمر بغرابة مظهرها أو بألوانها وحسب وإنما بها هي بمجملها وبتفاصيلها، إذ كل ما فيها كان يشي بالجنون. صواريها كانت مثل أغصان خريفية نحيفة ومتيبسة تتمايل مع الريح، أما عنق مدخنتها فكان طويلاً ومعوجاً وملتوياً مثل مفتاح سدادات الفلين.

كنت منشغلاً بصيد السمك حين وقع بصري على اليوريكه لأول مرة فلم أمتلك نفسي ورحت أضحك بصوت مرتفع أدخل الخوف على قلب اليوريكه المسكينة ودفعها للتراجع والانكماش. لم تكن تريد الخروج إلى الماء الواسع، بل ظلت تضرب حافة الرصيف الخشبي كأنها تنتحب، وصار منظرها يدعو للشفقة حقاً. بدت مثل سيدة عجوز لم تغادر قريتها قط لكنها أرغمت يوماً ما على الخروج لتقارع العالم الواسع القاسي المليء بالبشر الشرسين والمخاطر، نعم خافت اليوريكه أن تترك المياه الهادئة للمأوى ليزج بها في عرض المحيط بلا رحمة لتصد عنها الأعاصير والأمواج العالية وكل القساوات التي قد تصادفها وهي عزلاء تحت السماء، نعم لقد بدأت أرثي لحالها. لكن لا أحد غيري شعر بالشفقة نحوها إذ كان الرجال يركضون على ظهرها وتعلو أصواتهم وهم يطرقون معدنها المعّوج يصلحون مظهرها الخارجي رغماً عنها، بل انصب همّ الرجال على أن تظهر تلك الأنثى المنهكة بشكل معقول قبل أن تدركها عيون

الناظرين المحدقين بها من السفن الأخرى. لكن ما كان لفتاة عجوز بمفردها أن تقف بوجه كل هؤلاء الحمقى الثملين وتتجنب أياديهم الخشنة الكريهة، نعم قد تتمنع وتخربش وتعض هنا وهناك لكنها في نهاية المطاف ستجد نفسها منصاعة إليهم. نعم يا سيدي، فقد أدركت متأخراً أن اليوريكه ما كانت لتستعيد شبابها وهي في عرض البحر وما كانت السعادة لتغمرها ولا لأوجاعها لتتلاشى وهي تركض فوق الماء البارد كبنت فتيّة تتذوق حريتها للمرة الأولى. لم تكن تفعل ذلك إلا لتصل بأقصى سرعة إلى ميناء آخر ترسو وتستكين فيه وتنعم ببعض الهدوء والراحة وتحلم بمجدها العتيق متناسية كدّها المر الطويل وقسوة الآخرين. ليس هناك من يلومها، فقد ثقلت قدماها ولم يعد الدم يجري حاراً في عروقها وشاخ جسدها فما عاد قادراً على حملها، كلا يا سيدي لم تعد اليوريكه تلك الفتاة اليانعة التي كانت يوماً ما شاهداً على مهرجان الترحيب الذي أقامته كليوباترا لاستقبال حبيبها أنطونيو، كلا يا سيدي.

20

هناك من يعتقد أنه يفهم حياة السفن والبحّارة والبحار والمحيطات لمجرد أنه خبر السفر كثيراً على متن بواخر لنقل المسافرين عبر محيطات العالم ومياهها المالحة. الحقيقة يا سيدي أن المسافر لا يفقه عنها شيئاً البتة، فذاك محض خيال وجهل، فالمسافر لن يعرف شيئاً عن البحر أو السفينة ناهيك عن طاقمها وحياتهم. العاملون في مطاعم بواخر نقل المسافرين ليسوا بحارة ولا ينتمون إلى طاقمها بشيء، هم بين نادل وخادم ومضيّف. أما الضباط، فهم موظفون يتمتعون بالضمان والحق في الحصول على التقاعد. القبطان يعطي الأوامر على السفينة لكنه لا يعرفها. منْ يمتطي الجمل ويأمر الجمّال بوجهة المسيرة لا يفهم الجمل ولا يعرف عنه شيئاً. الجمّال هو وحده من يفهم الجمل، يتحدث معه

وينصت إليه ويعرف همومه ويدرك ضعفه وآلامه ويشعر بأمانيه الصامتة. نعم هكذا هو الحال أيضاً مع السفينة. القبطان يأمرها ويريدها أن تقوم بما لا تريده أو تقوى عليه، وهي لهذا تمقته تماماً كما يمقت البشر من يأمرهم ويركلهم. وحين يظن الحاكم أنه محبوب أو يقال له أن الناس يحبونه فذلك كذب ونفاق، إنهم يخشونه وذاك الطريق الأمثل لاتقاء شّره.

البحّارة يا سيدي هم من يحّب السفينة، هم وحدهم رفاقها بصدق، فهم يسهرون على راحتها، يغسلونها على الدوام ويطلون ما زال من أصباغها وما بهت من ألوانها ويفصحون عمّا يكنون لها من مشاعر بل ويقبّلونها! فالسفينة وطنهم وغالباً ما تكون هي بيتهم الوحيد الذي يأوون إليه. للقبطان وطن في مكان ما على اليابسة وله فيه بيت جميل وزوجة وعائلة يتوق إليها. نعم يا سيدي، ولبعض البحارة في أماكن ما على اليابسة بيت وزوجة وأطفال. ورغم أن أولئك في الحقيقة ليسوا ببحارة حقيقيين بل هم أشبه بعمال المعامل، ولكن مع ذلك فإن العمل الشاق المضني على السفينة يجعلهم ينسون أهاليهم تماماً إذ لا يترك التعب والعمل المضني المستمر فسحة في تفكير البحّارة لشيء آخر أو لبشر سوى للسفينة، أية سفينة يجد أحدهم نفسه على سطحها، للسفينة وحدها إذ لو سمح أولئك الرجال لأنفسهم بالتفكير بزوجاتهم وأطفالهم كان النوم سيغلبهم من شدّة التعب والإرهاق. السفينة تعرف بدورها أنها بدون طاقمها لا تستطيع التململ إنشاً واحداً على الماء. لكن يمكنها ذلك بيسر لو غاب القبطان. وقد رأيت سفنا عدة تفعل ذلك لكنني لم أر ولم أسمع بواحدة تبحر مع قبطان دونما طاقم، كلاّ يا سيدي. هي تتحدث إلى رجالها وتروي لهم القصص والحكايا الرائعة. بل إني سمعت أن بعضهن يضحك ويكركر وهن يصخين السمع منتشيات بثرثرة رجالهن المستلقين على سطوحهن بكسل أوقات العصر في أيام الآحاد، يرتاحون ويتبادلون النكات ويتبجحون بسرد المغامرات. كل

حكايات البحر التي أعرفها روتها لي سفن عاشرتها. لقد رأيت سفناً تبكي وهي تصغي للقصص الحزينة التي تفطر القلب، بل شهدت سفينة وهي تنتحب وتشهق مختنقة بدموعها لأنها أدركت أن رحلتها القادمة ستكون الأخيرة وأن مصيرها سيكون الغرق. وفعلاً لم تعد تلك السفينة إلى موطنها وظهر اسمها بعد أربعة شهور على قائمة جرد شركة الملاحة مع تعليق صغير «فُقدت في مياه مجهولة».

السفينة تنحاز لبحارتها دائماً وأبداً ولا تنحاز يوماً للقبطان، فهذا لا يعمل لصالحها بل لصالح شركة الملاحة التي غالباً ما يجهل البحارة اسمها بل إنهم غير مهتمين بمعرفة تلك التفاصيل، كل ما يشغلهم هو السفينة والخبز الذين يحصلون عليه من عملهم معها. وحين يغضب الطاقم بسبب الإجحاف ويضرب عن العمل ويعلن تمرده على الشركة، تنضم السفينة للتمرد فوراً. السفينة تكره كاسري الإضراب أكثر من كرهها لقاع البحر. كنت تعرّفت على سفينة استشاطت غضباً من كاسري الإضراب على متنها، وحين رُفعت مرساتها وانسابت في الماء وبينما هي ما تزال في مرأى النظر غير بعيدة عن الساحل رأيتها تغوص بغتة بكل طاقمها من كاسري الاضراب وتجرّه معها إلى الأعماق! قادتهم إلى القاع فلم ينج منهم أحد. أما هي فقد فضّلت الموت على أن تمّسها أيادي القطيع، أي نعم سيدي.

لم أفهم حقاً، وأنا أتفحصها بناظري، كيف استطاعت اليوريكه العجوز أن تفوز بطاقم بحارة كامل غير منقوص يبحر معها مغادراً بلداً مشمساً بهيجاً. لماذا ترى فضّل أولئك الرجال الإبحار معها على البقاء في هذا المكان الجميل، إنه أمر عصي على الفهم. هناك سرّ خفي في مكان ما. هل كانت هي يا ترى سفينة م....؟ ولـم لا، ممكن جداً أن تكون كذلك، نعم قد تكون سفينة موتى، لكن كيف يحدثُ هذا في ميناء متمدن تغادر منه سفينة موتى تحمل أوراقاً

صحيحة لا شائبة فيها. هذا هو سرّها إذن. اللعنة إنها كذلك.

تباً! كيف لم أفطن لحقيقتها من النظرة الأولى، كم كنت غافلاً، اللعنة. ما من شك الآن أنها سفينة موتى، أي نعم سيدي. غير أن شيئاً آخر فيها مازال غامضاً غير مفهوم ولابد لي من اكتشافه وأنا عازم على ذلك.

أخيراً بدا أن اليوريكه قد قررت التحرك طواعية، لتك الأنثى شخصيتها. لم يكن قبطانها ليفهمها إذ كانت أذكى منه بكثير، ذلك الأحمق. إنها، كما بت أراها، مثل فرس مدرّبة وخبيرة من ذلك النوع القادر الذي يظهر أفضل مزاياه حين يترك وشأنه ويكون سيد نفسه. ليس على القبطان سوى إبراز شهادة تقول أنه اجتاز الامتحان بنجاح ليحظى بمنصبه ويكون قبطاناً لسفينة متفردة الطباع ومرهفة كاليوريكه. ودليل آخر على غباوة القبطان هو انشغاله طيلة اليوم في السير جيئة وذهاباً في التفكير بأحابيل لتقليص المصاريف، وغالباً على حساب أرزاق طاقم البحارة لصالح الشركة ولصالح جيبه الخاص أيضاً. هذا القبطان الجاهل الذي يدفع باليوركه للإبحار عكس الموج والريح، الغبي لا يحسن معاملة سيدة عجوز ويرغمها على السير في الموج العالي. اللوم سيقع على اليوركه في كل الأحوال لو أن مكروهاً أصابها.

سمعت صريرها وهي تزحف بمحاذاة الرصيف حتى إني سارعت لسحب رجلّي من الماء مخافة أن تجرفهما. ظلت اليوريكه تترنح وتتخبط في الماء وأثار محرّكها بدورانه رغوة طينية من حولها، لكنها أفلحت أخيراً في الانسياب وجاهدت كي لا تصطدم بأعمدة الضوء. نعم أفلح الربّان لجلبها للرصيف لكني واثق أنها فعلت ذلك بمفردها بعد أن أدركت أن لا سبيل لها للنجاة سوى بالاعتماد على نفسها، وربما أرادت عن طيب خاطر أن توفر على صاحبها بضعة دلاء من الأصباغ. الآن وقد اقتربت وصرت أعاينها عن كثب، أرى كم

هو بائس ومريع منظرها! ولو كان الجلاد واقفاً خلفي ينصب لي المشنقة وكان خلاصي الوحيد هو الصعود إليها لما فعلت و لفضّلت الموت شنقاً. نعم، أفضّل أن أكون بحاراً عادياً ضائعاً وجائعاً على أن أكون عاملاً على ظهر تلك السفينة.

21

بينها كانت اليوريكه منشغلة بنفسها منقطعة الأنفاس منشغلة بحفظ توازنها، كان عدد من طاقمها ممن لا عمل له في تلك اللحظة، متجمعين في مقدم السفينة يتفرجون على الرصيف وكأنهم يريدون أن يحفظوا في عيونهم ورؤوسهم ما أمكنهم من منظر الأرض اليابسة الثابتة وكل ما يدّب عليها قبل أن يغادروها في رحلة طويلة. آه يا سيدي، شاهدت في موانئ العالم الكثير من البحارة القذرين والنتنين والذين غزاهم القمل ونمت على جلودهم الأوساخ، والسكارى، ومن لفظهم البحر من سقط المتاع، لكني لم أر في حياتي مثل أفراد طاقم البحارة، الملتصقين بدرابزين اليويركه والمحدّقين بأرض الميناء. هؤلاء يا سيدي بزّوا في بؤسهم كل من رأيت في حياتي. لم يكن ذلك الطاقم قد عاد على التو من رحلة شهدت أهوال البحر، أو كانوا وجدوا طريق العودة إلى هنا بعد أن ظلّوا وجنحت بهم سفينتهم صوب جزيرة مهجورة نائية عاشوا فيها على مدى سنتين كالبهائم، كلا يا سيدي انه طاقم على وشك الإبحار من مرفأ في مدينة متحضّرة. لم أظن يوماً أن شيئاً مماثلاً يمكن أن يحدث. أنا يا سيدي لست قطعاً بأنيق الملبس بل العكس، أنا أبعد ما يكون عن هذا المظهر. بل لو أن اسكتلندياً بخيلاً رآني فلربما تصدّق عليّ بقطعة نقد. لكني، مقارنة مع هؤلاء، بدوت ثرياً. لباسهم كان في منتهى الغرابة: فهذا من يعتمر قبعة نسائية

متهرئة أو بلوزة نسائية ممزقة، وذاك لف رأسه بعمامة كانت يوماً ما قميص داخلي نسائي من الدانتيلا الخضراء، وآخر يعتمر قبعة عتيقة طويلة العنق كالتي يرتديها الأغنياء ويضع مثيلاتها منظفو المداخن على رؤوسهم. هل كان يمارس تلك المهنة في آخر نصف ساعة له على اليابسة أم أن مهمته في تنظيف مدخنة السفينة تتطلب الالتزام بهذا اللبس؟ هل كان ذلك من شروط العمل الخاصة على اليوريكه؟ كلا السبب الوحيد هو أن الرجل لم يجد غير تلك القبعة ليغطي بها رأسه. لا يا سيدي، اليوريكه لم تكن من تلك السفن التي تحرص على إتباع تقاليد خاصة بها، لأني عرفت ذلك النوع من السفن أما هذه فإنها ضاقت ذرعاً بكل ذاك والعاملون عليها لا همّ لهم سوى إبقائها عائمة، نعم سيدي. ولو كانوا قراصنة كنت سأتوسل إليهم ليأخذوني معهم حيث المال والمجد، لكن القرصنة ما عادت تجدي نفعاً هذه الأيام ما لم يكن بحوزة اللصوص غواصة واحدة في الأقل. كلا ما كانوا بقراصنة ولهذا أفضّل صحبة الجلاد على الإبحار معهم. على السفينة القادرة على إغرائي بترك هذا المكان المشمس الجميل أن تكون أجمل بكثير من التوسكالوزا، آخ كم مضى من الزمن مذ تركتني؟ هل يا ترى وصلت إلى نيوأورلينز. حالما صارت وجوه البحارة تطل على رأسي مباشرة صاح أحدهم من الأعلى منادياً نحوي: «**يا صاح، ألست بحاراً؟**»

- «**نعم يا سيّد.**»

- «**أتريد عملاً؟**» قالها بإنجليزية لا تصلح إلا للتفاهم العائلي الداخلي فقط.

يا للهول، هذا يسألني عن حاجتي لعمل، هل هذا ما يقصده حقاً؟ هل الرجل جاد بتوجيه السؤال؟ لقد ضعت وحق السماء، ها هو السؤال الذي أخافه، قد حانت ساعة الحساب. من المألوف أن يبحث المرء بنفسه عن عمل، هذا قانون ثابت لا يتغير طالما هناك عمل وعمال، وأنا نفسي لم أبحث قط ولم

أسأل خشية أن اسمع كلمة نعم.

وككل رجال البحر فأنا أؤمن بالطالع، فمصير المرء رهن بالصدف سواء كان على الأرض أو في عرض البحر ولكن بالطالع أيضاً وإلا ما كان ممكناً لأي منا أن يتحمل حاله وسيجّن حتماً، خاصة حين تكون السفينة على وشك الغرق والقبطان يأمر بإنزال قوارب النجاة إلى الماء فلا يبقى للبحار سوى الصلاة والتمسّك بالحظ والصلاة. الإيمان بالطالع هو الذي يرغمني أن أقول نعم لمن يسألني إن كنت راغباً في العمل؛ إذ لو قلت لا فأكون قد جلبت سوء الطالع لنفسي ولن أصعد في حياتي إلى ظهر سفينة وبالذات حين أكون في أمسّ الحاجة إليها وقد لا أعود أبداً إلى نيوأورلينز. ثم قد يأتي يوم تصبح فيه بحاجة شديدة لمال وتلاقي مثل تلك الفتاة الجميلة التي تحتاجه لعلاج والدتها المريضة، حينها ستندم أيما ندم لأنك أضعت الفرصة للحصول على عمل. ثم ليس سوى سفينة تهرب إليها إذا ما طاردتك الشرطة يوماً بتهمة جرم لم تقترفه.

22

كان بديهياً أن أجيب بنعم عندما سألني البحار عن رغبتي بالعمل على سطح اليوريكه. كنت مرغماً داخلياً على قول نعم، فلم يكن بوسعي البتة الإفلات من الشعور بالإرغام رغم علمي بأنَّ سيشحب لوني من الهلع حين يتوجب علي الصعود إلى هذا الدلو العائم.

ـ «بحار مرّخص؟»

سألني الرجل. الحمد لله جاء الفرج. إنهم بحاجة إلى بحار يحمل رخصة وأنا لست كذلك، كما لم يكن من الحكمة أن أصدقه القول جداً وأقول الحقيقة

«مجرد عامل» لأني أعلم أن ذلك سيفي بالغرض أيضاً، ففي حالات الاضطرار سيما حين يكون البحر هادئاً، يمكن لأي عامل على سطح السفينة أن يدير الدفّة. لذلك قلت:

- «**كلا، بل من العصابة السوداء (العاملين بالفحم والتسخين)**»

- «**ممتاز**» صاح الرجل مبتهجاً «**هذا هو المطلوب تماماً، هيا أسرع واقفز إلى السطح**»

الآن اتضحت الصورة. إنهم يأخذون كائناً من كان يجدونه في طريقهم، يبدو بسبب نقص اليد العاملة على المركب فلو إني قلت «طباخ» أو «نجّار» أو حتى «قبطان» لكانت الإجابة ستكون نفسها «**عز الطلب، هو ما نبحث عنه، هيا اصعد**». اللعنة فرغم كل هذه الأمور المريبة بشأنها لا تبدو اليوريكه سفينة للموتى. حاولت اللعب بالورقة الأخيرة، فقلت:

- «**ما هي وجهتكم يا رجال؟**»

- «**إلى أين تريد أنت؟**»

يا لهم من قوم أذكياء، لم أحسب لهذا الجواب حساباً. لا فكاك منهم، فلو قلت إني أريد الذهاب إلى القطب الجنوبي أو إلى جنيف لأجابوني دون تردد «**هي في خط رحلتنا**». خطر ببالي بلد لا يجرؤ هذا الدلو على التوجه إليه:

- «**إلى إنكلترا.**»

- «**يا لك من محظوظ**» صاح الصوت «**لدينا حمولة صغيرة إلى ليفربول**».

لا مجال للتملص ولم أقدر أن اثبت احتيالهم، فأنا الذي ناديت بأعلى صوتي «إنكلترا».

يا للمهزلة، ما كان لأحد قط أن يجبرني على العمل على أية سفينة وأكون تحت رحمة قبطانها طالما أنا هنا على اليابسة، لكنه القدر يا سيدي. فقد قلت نعم، وكبحّار يحترم كلمته فلا بد لي من الإلتزام بها، نعم الملك قد يكسر كلمته لكن البحّار لا يفعل ذلك. إذن العمل على اليوريكه حتى لو قادتني، هذه السفينة التي سخرت بشدة منها وضحكت عالياً لمنظرها، إلى قاع البحر. ما كنت أتصورني على سطحها ومع طاقمها لكنها انتقمت مني ومن هزئي بها وبطاقمها. في حقيقة الأمر نلت الجزاء الذي أستحقه، إذ ما الذي جعلني أجلس هنا ليراني كل من هب ودب على السفن التي تغادر الميناء. لا يجوز للبحّار أن يفكر بالسمك أو صيده، فذلك يجلب سوء الحظ، كل سمكة في البحر أو بالقليل أمها أو جدتها كانت تذوّقت يوماً جثة بحار غريق لذا على البحار أن يبتعد دوماً عن صيد السمك وأن يحذر منه. وإن اشتهى يوماً أكلة سمك فليشتريها من بائع السمك، فصيده هو عمله وحده. لم يبق غير أن أسأل:

ـ «والدفع؟»

ـ «مالاً إنكليزياً.»

ـ «والطعام؟»

ـ «وفير.»

حوصرت من جميع الجهات، فلا مفر ولا منفذ للهرب قط، ولم يبق أمام ضميري عذراً واحداً للتراجع عن قول نعم.

رمى الرجل إلي بحبل أمسكت به بقوة وصرت أمشي على جدار السفينة، فيما كان الحبل يرفعني إلى أعلى إلى أن استطعت القفز على السطح.

لكني، ما لبثت أن وقفت على ظهرها، حتى انطلقت اليوريكه بكل قوّتها

وكأنها كانت تنتظرني. لحظتها غمرني شعور غريب بأني قد اجتزت للتو تلك البوابة الضخمة التي خطّ القدر على رأسها كلمات كأنها الوعيد:

من يجتاز هذا الممر

فإن اسمه ورسمه سيمحى

وهو سيزول!

الكتاب الثاني

فوق باب المهجع نُقشت هذه الكلمات:

من يمر عبر هذا الباب

سيمحى اسمه ورسمه

سيزول عن الوجود

ولا نفحة واحدة

منه تبقى في هذا العالم

الواسع الرحيب

هو

لن يعود أبداً

ولن يخطو قدما قط

مصيره حيثما يقف

لا إله يتعّرف عليه

ومجهول هو في الجحيم

هو

ليس الليل ولا النهار

هو

اللاشيء

المحال

العدم

هو أكبر من الخلود

وأصغر من حبة رمل

تلك الصغيرة لها مكان في الكون

أما هو

فغير كائن

ولم يخطر كفكرة ببال

23

عمال السفن لا يتساوون منزلة مع الربان أو القبطان، هذا هو الحال على جميع السفن حتى البلشفية منها، إذ فما هو المآل لو تساوى الجميع؟ تصور ما سيحدث لو خلط المرء بينهما يوماً واكتشف بالصدفة أن العامل على ظهر السفينة قد لا يقل ذكاء عن القبطان نفسه! لكن ذلك لن يصلح قطعاً كبرهان على تمتع العامل بالذكاء. على ظهر اليوريكه ساد نظام واضح للرتب والدرجات حتى بين العمال، فهذا العامل الأول وذاك العامل الثاني والثالث والرابع، أما الرجلان الذي بدا أنهما نشَّالان؛ فكانا على الأغلب من الدرجة الخامسة. لست أعلم أي سلالة من البشر هي التي تعتبر حالياً غير متحضرة، لأن معايير التحضّر تتبدّل كل عام حسب قيمة أو لا قيمة بلاد تلك السلالة البشرية بالنسبة للآخرين. لم تفلح اليوريكه في استئجار عدد من العمال يكفي ليمثلوا كل درجة ورتبة؛

والنتيجة الغياب التام لممثلي الدرجات الأولى والثانية والثالثة والرابعة تماما. فقط اثنان من ممثلي الدرجة الخامسة، وقد وصفتهما لك، أما ممثلا الدرجة السادسة فإني عاجز عن الشرح؛ إذ ليس على الأرض ما يمكنني المقارنة به. حقاً كانا فريدان نوعاً بلا منازع ويجب أن اكتفي بالاعتراف بأنهما يمثلان بامتياز الدرجة السادسة، ولم يكونا بحاجة إلى إبراز دليل إثبات مصداقية ذلك الانتماء.

ـ «مرحبا.»

قالها رئيس النشالين ومحتالي الأسواق وهو متوجه صوبي مع رفيقه، وليتك سمعت لغته، لكني فهمت ما يريد قوله حين قدّم نفسه وأنا هنا أترجم كلامه يا سيدي ليصبح مفهوماً:

ـ «أنا المهندس الثاني، وجاري هذا هو ميكانيكي المحرّكات.»

أراد بذلك أن يخبرني بأنه رئيسي المباشر باعتباري نكرة. فأجبت:

ـ «شكراً أيها السيدان، وأنا رئيس الشركة المالكة للسفينة وقد صعدت إليها كي أراقبكم أيها الشبان وأسوقكم للعمل الحقيقي بعيداً عن التكاسل».

يُخطئ هذان بالتلاعب بي، لست ذاك الشخص وعليهما أن يجدا رجلاً آخر ليجربا معه اللعبة. غير أن الرجل لم يفقه ما قلت إذ واصل:

ـ «اذهب إلى مقر البحارة وجد لنفسك مهجعاً.»

رغم صدمتي مشيت إلى العلبة الصغيرة لأجد بضعة رجال بأسمال بالية مستلقين بكسل على أسرّة من طابقين. لم يلق أحد بالاً لشخصي وكأنهم اعتادوا رؤية وجوهاً جديدة لا تستحق منهم الانتباه ولم تعد تثير في نفوسهم أدنى فضول. لاحقاً علمت أن عاملاً أو أكثر من المتسكعين والنكرات ينضم باستمرار إلى طاقمها كلما رست اليوريكه في ميناء ما. إنني متيقن الآن أن اليوريكه لم تغادر أي ميناء بطاقم متكامل. وهناك قصة خبيثة عنها يتناقلها

الرجال، تقول أن قبطانها كان في أحيان كثيرة يتفقد الجثث المعلقة على أعواد المشانق، ممن كانوا أُعدموا تواً، آملاً أن يكون بأحدهم بقايا نفس كي يستأجره للعمل على سفينته. أعرف أنها حكاية بغيضة لكنها حتماً لم تأت من فراغ خالص أو محض خيال.

سألت الرجال عن سرير خال ليكون مهجعي. أجابني أحدهم بأن أومأ برأسه صوب فراش علوي، فسألت إن كان أحد قد قضى نحبه فيه فأجابني بنعم، ولكنه أضاف أن سريراً غير ذاك سفلياً متوفر أيضاً، ثم أشاح بوجهه عني وأنهى الكلام. اخترت ذلك المهجع السفلي الذي لم يمت فيه أحد بعد. لم يكن على السرير الخشبي الضيّق والمتآكل بفعل سوس الخشب غير الفراش العاري، فلا ملاءة ولا غطاء ولا بطانية ولا وسادة. قبالتي سريران بطابقين منثور عليهما خرق وشوالات ممزقة، وبدل الوسائد وضعت حُزُمٌ قديمة من حبال السحب الغليظة، تلك كانت أسرّة الحراس الخافرين.

في كل مرة حين يتغيب رجل في الميناء وتتركه السفينة أو يسقط آخر في البحر ويبتلعه الموج، يستميت الباقون للفوز بما خلّفه هذا وذاك من خرق قذرة بالية أو كومة من حبال قديمة، ويتقاتلون كالنسور الجائعة التي تهاجم ضباعاً تفترس جيفة حيوان نافق.

24

لم تعرف اليوريكة المصباح الكهربائي؛ فلا مضخة لتوليده بل بدا أنها لم تعلم بوجوده أصلاً. فانوس عتيق كان مصدر الضوء الوحيد في مقر البحارة. مثل هذه الأمور أعانتني على اكتشاف عمر اليوريكة بالضبط، واحدة منها كانت طريقة الإضاءة بواسطة ذاك الجهاز، إبريق معدني صغير تعلوه انبعاجات وخدوش من طول الخدمة، مظهره أوحى لشاريه يومها أنه مصنوع من النحاس

وربما من البرونز، لكن حتى الطفل يعرف أن النحاس لا يصدأ هكذا كالحديد والصدأ المتراكم عليه هو كل ما تبقى من الإناء. ومع ذلك ظل محتفظاً بشكله كشبح يؤدي واجبه الذي دأب عليه لخمسة قرون طويلة. كل قادم جديد يتعلم أن يترفق بالفانوس وهو يملئه بالكيروسين خوفاً من أن يضمحل ويتبخر فلا يعود للرجال ما يضيء ظلمة مرقدهم. المدخنة الزجاجية للفانوس ظلت سوداء متسخة على الدوام، ولم أر رجلاً جرؤ على إزالة السخام القديم العالق بها، ولذا بقي السؤال الصباحي للقبطان «من يقوم اليوم بتنظيف الفانوس؟» دون جواب. إنه يا سيدي ذات الفانوس الذي حملته العذراوات السبع قبل قرون ليلة خرجن للغابة ليحرسن عذريتهن، أما فتيلة الصوف فلم تتغير قط منذ أن صنعتها إحداهن بعد أن اقتطعت طرفاً من سروالها الداخلي. قل لي يا سيدي، كيف للأيادي الخشنة والقذرة للبحارة أن تجازف بلمس هذا الفانوس، وكيف لنوره الخافت الذي حرس في الغابة فضيلة تلك العذراوات أن ينير حجرة بحّارة اليوريكه البائسين بنور يكفي ليرى الرجال وجوه بعضهم البعض؟ فلو حصل ذلك لتسبّب بكوارث في هذه الغرفة الضيقة ما كان سيسرني أن أقصّها على مسامعك.

كيروسين الفانوس كان اسمه زيت الماس، هكذا كان القبطان يسميّه في سجلّ المصاريف التي يقدمها للشركة المالكة. لكني رأيت كيف كان الصبي، خادم القبطان، ينزل إلى غرفة المحركات في نفس اللحظة التي يستدعي فيها القبطان المهندس المسؤول، ولحظة يغادر هذا يتسلل الصبي ليجمع كل قطرات الزيت والكيروسين المتساقطة من مفاصل وصمامات المحركات والمكائن ويجلبها خلسة إلى القبطان الذي يخلطها بالغاز فتتحول بقدرة قادر إلى ما يدّونه لاحقاً في دفاتره، زيت الماس.

وكما هي الحال على متن سفن طبيعية، سألت فور وصولي اليوريكه:

ـ «أين أستلم فرشي لآخذه للمهجع؟»

ـ «لا تزويد بفرش.»

ـ «أغطية؟»

ـ « ولا بأغطية.»

ـ «وسادة؟»

ـ «ولا وسادة.»

ـ «بم يزوّدوننا إذن؟» سألت أخيراً.

ـ «بالعمل» قالها أحد الرجال بلامبالاة.

أستغرب أن تلك الشركة قد زودتنا بسفينة بل، إني لأعجب أنها لم تشترط أن يأتي كل بحّار بسفينته كي يعمل لديها. وماعدا زوج الأحذية المتهرئ، فإن هندامي العام، ساعة التحقت باليوريكه، كان نظيفاً ومنظري العام مقبولاً، لذا كنت الثري الأنيق في الطاقم، بل تبين أني أكثر أناقة ممن كان يرتدي بذلة سهرة سوداء عندما رأيت البنطلون المقصوص حد الركبتين.

من الأيام الأولى عرفت أن المعدمين تماماً هم المفضلّين لدى القبطان الذي يعلو العبوس وجهه لمرأى بحّار عاد للتو من إجازة على اليابسة وقد تحسّن وضعه قليلاً، لكنه لا يأبه قط لعودة بحار آخر بحال بائسة من السُكر والوساخة .بل ويحدث أحياناً أن يسدّد طواعية ديون ذلك البحّار لدى بارات المرفأ ويكافئ من يساعده على إيجاد طريق العودة إلى السفينة، لكنه لا يدفع بنساً واحداً، عربوناً من الأجر لبحار يريد شراء قميص جديد يحتاجه بشدة.

التعليمات القانونية تقول أنه لا يجوز للعمال تناول طعامهم في نفس المكان الذي ينامون فيه، وإنما يفعلون ذلك في مطعم السفينة المخصص لهم. لكن لا

مكان كهذا على اليوريكه، لأنه حين تم بناء تلك السفينة فان عبيد السخرة في مصر واليونان وبلاد فارس هم من كان ينجز العمل؛ ولذا فإن بناء غرفة طعام خصيصاً لأولئك العبيد كان سيعتبر عملاً نقابياً تخريبياً وجرماً يستوجب أقسى العقاب. وكما أنه من النادر جداً، ماعدا بموانئ قليلة في العالم، يحدث أن يصعد مفتشون مختصون ليتفقدوا ظروف العمل على السفن، وبالأساس ليفنّدوا مزاعم وأكاذيب الشيوعيين الذين ما فتئوا يصرخون بأن الطاقم يُعامل كالحيوانات.

مفتشو السفن هم في الغالب قوم شديدو التهذيب في تعاملاتهم مع شركات الشحن ومتعاطفون ومتفهمون لمشاكلها، وينظرون بعين الرضا للقبطان الذي بدوره يحرص على ذر الرماد في عيونهم. في حال اليوريكه، فإن الرماد المستعمل كان اختراع مطعم للبحارة قبيل صعود المفتشين. اللوح الخشبي السميك الواقع بين مقصورتي البحارة لم يكن ليفصلهما تماماً من الطول للطول، حيث ينتهي هذا عند طرفي السريرين المثبتين فبقيت فسحة صغيرة حشر القبطان في وسطها طاولة قديمة ضيقة ووضع على كل جانب منها مصطبة أضيق. حقيقة أن ذلك المطعم هو جزء من عنبر النوم لم يكن بحاجة إلى دليل، فلا باب له سوى باب العنبر ذاته. لكن إذا كانت أدمغة البحّارة قادرة على تخيّل باباً مستقلاً فأن المفتشين أوسع خيالاً. والمحصلة هي باستمرار تقرير يرضي الشركة. أما غرفة الحمام فكانت عبارة عن دلو معدني قديم عانى طويلاً من ويلات الأمطار والعواصف فاستقر به الحال في ركن المطعم، ليكون المغسلة والمغطس والدش وسطل التنظيف، بل وتنوعت خدماته خاصة حين يهرع الرجال إلى ذلك السطل ليتسقبل ما قد يلفظه جوف زميل سكران عاد تواً من إجازة قضاها في خمارات الميناء. أما الخزانات المعدنية الضيقة الأربع المخصصة للملابس، فلم يكن أحد من الرجال الثمانية الذين يقاسمونني المقصورة بحاجة إليها.

مرة واحدة في الأسبوع كنّا نغرق المكان بماء البحر على سبيل تنظيفه، لكننا نفعل ذلك بلا صابون ولا فرشاة لفرك الأرضية. فمن ذا الذي سيزودنا بها؟ الشركة لا تفعل ذلك والبحارة أنفسهم لا يملكون صابوناً يغسلون به ملابسهم القذرة، فكيف بأرضية المهاجع؟ بل سعيد الحظ منّا من يحمل في جيبه كشطة من لوح صابون يغسل بها وجهه بين الفينة والأخرى، وإذا سهى ونسي أن يعيد تلك الكشطة إلى جيبه بعد استعمالها فانه لن يجدها ثانية قط.

من يغادر العنبر عليه أن يسير في ممر طويل ومعتم وضيق جداً. في الجدار المقابل كان باب يقود إلى مقصورات تشبه بشكلها وتقسيمها تلك التي يسكنها البحارة لكنها أكثر قذارة. أحد نهايتي الممر كانت تقود إلى السطح فيما تقود نهايته الثانية إلى حفرة. عند نهاية الممر، ليس بعيداً عن الحفرة، خصصت حجرتان صغيرتان جداً للنجار والمهندس ومساعده ولرجل رابع غير واضح المهام والمنصب؛ فتارة يتقاسم السلطة مع القبطان في مراقبة كل شيء وأخرى تراه مساعداً للمهندس الثاني أو للنجار. الحفرة ذاتها كانت تؤدي إلى قمرتين، الأولى هي قمرة السلاسل حيث تجد كل أنواع وأحجام السلاسل وعدد من مراسي الطوارئ وأدوات لتصليح كل ما يستخدم على السفن.

أما الثانية؛ فكانت تسمى غرفة الرعب! كان بابها موصداً على الدوام ولم يجرؤ أي من الرجال على الادعاء أنه دخل إليها يوماً، كما لم نفلح في العثور على ثقب أو صدع نرى من خلاله ما بداخلها. وحين سألت يوماً، لسبب ما عدت أذكره عن المفتاح، علمت أن حتى الضباط أنفسهم لا يعرفون شيئاً عنه وتناهى إلى سمعي أن القبطان وحده يملكه. لكن القبطان أقسم بأغلظ الأيمان وبحياة أولاده الذين لم يولدوا بعد أن لا علم له بمكان المفتاح، غير أنه لم ينس أن يحذرنا من مغبة الفضول وأنه بنفسه سيطلق النار على كل من يحاول فتح ذلك الباب وسيرمي بجثته إلى قاع البحر.

لم ألتق طوال عملي في البحر قبطاناً خال من الأمزجة والنزوات، لكن قبطان اليوريكه فاقهم كلهم في غرابة الأطوار وتقلّب المزاج! منها: امتناعه عن دخول مقار البحارة لمعاينتها، خلافاً للتعليمات التي تلزمه بالقيام بهذا مرة كل أسبوع في الأقل. الرجل كان يجد عذراً لنفسه ويعد بأنه سيفعل ذلك في الأسبوع القادم إما لأنه لا يريد أن يفسد شهيته الآن بمرأى تلك الأماكن، أو لأن عليه أن يهرع إلى أمر طاريء.

25

ثمة إشاعة تجوب الشواطئ الغربية لأفريقيا والبحر الأبيض المتوسط تقول أن رجلين دخلا يوماً غرفة الرعب وشاهدا بأم عينيهما ما فيها. الرجلان لم يعودوا يعملان على اليوريكه؛ فقد طردهما قبطان ذلك الزمان فور ضبطهما بالجرم المشهود. لكن القصص تبقى إلى حين يتغير الطاقم بأكمله دفعة واحدة. البحارة يغادرون أي نعم، لكن قصصهم لا ترحل معهم بل تبقى وتعشش في كل ركن من أركان السفينة، حديداً كان أم فولاذاً أم خشباً، وفي مهاجع البحارة وغرفة المرجل البخاري وخزان الفحم؛ إذ حين تسمع السفينة قصة يرويها بحّار ما فإنها لا تنساها مطلقاً وتظل ترويها وترويها لرجالها في هدأة الليل ولا تغفل عن ذكر أي تفصيل مهما كان صغيراً، وليس على الرجال سوى أن يصيخوا السمع ويملؤوا قلوبهم بمحبتهم للسفينة ليفهموا ما تخبرهم إياه. وهذا يا سيدي شأن يفهمه البحّارة والعاملون على السفن وحدهم دون غيرهم من العمال أينما اشتغلوا على اليابسة، فأولئك يعتقدون أنهم أذكى من أن يصدّقوا خرافة أن سفينة تروي قصصاً وحكايات. قصة الرجلين ظلت محفوظة على اليوريكه مثلها مثل كل الحكايات. الدخيلان اللذان غلبهما الفضول شاهدا عدداً من هياكل عظمية بشرية، لكن هول المنظر منعهما من عدّها وما كانا

بقادرين على ذلك أصلاً لأن العظام كانت مختلطة ببعضها ومبعثرة هنا وهناك. فيما بعد أُكتشف سر تلك البقايا البشرية التي كانت تعود لأفراد كانوا يوماً من طاقم اليوريكه وقد أكلت أجسادهم جرذان ضخمة كان الرجال يشاهدونها أحياناً خارجة من جحور خفية عند غرفة الرعب. لم يكن من السهولة في بادئ الأمر معرفة السبب الذي قاد أولئك البائسين إلى ذلك المصير المرعب، لكن سرعان ما انتشرت شائعات كثيرة في جميع الموانئ التي نرسو فيها، وبمرور الوقت تبلور جوهر وحيد لقصة تفيد بأن الضحايا المساكين قد لقوا حتفهم بتلك الطريقة البشعة والبطيئة لكي تتمكن الشركة المالكة لليوريكه من خفض نفقاتها ولتبقى أرباح حاملي أسهمها أو أرباح مالكها الوحيد مرتفعة.

تبدأ الحكاية حين يقرر بحار ما ترك العمل، والترجل في الميناء ويطالب القبطان بأجره المستحق عن العمل لمئات الساعات الإضافية؛ فالأجر الشهري المنتظم عادة ما يستنفده البحار أولاً بأول على شكل سلفة، لكن التأثير السيئ لنقابات العمال على الأعمال التجارية للسفن أوجد قوانين صارمة تلزم القبطان بدفع أجور تلك الساعات الإضافية، والبحار بات يعرف طريق اللجوء إلى النقابات العمالية العالمية أو إلى قنصل بلاده في أضعف الأحوال. والنقابات كانت ستنتصر له حتماً وترغم القبطان على الالتزام بالقانون، وبعكسه توضع الشركة على القائمة السوداء ويُمنع نشاطها، بل إن الشيوعيين في النقابة سيسهرون على أن تبقى السفينة عالقة في الميناء من أجل نصف دولار مستحق يرفض القبطان دفعه للبحّار. ودائماً يحدث هذا في الميناء. طبعاً لم يحدث قطعاً أن أراد بحّار ترك العمل والسفينة في عرض المحيط. وفي الميناء لا يمكن للقبطان أن يرمي بالبحّار إلى الماء أمام مرأى دوائر الميناء؛ إذ سيتوجب عليه أيضاً دفع غرامة مالية جراء رمي الأوساخ في المياه. مسؤولية الدوائر لا تتعدى الميناء ومياهه، وما يفعله القبطان برجاله على السفينة ليس من شأنها البتة. فلا يبقى والحال هذا للقبطان سوى الالتزام بتعليمات الشركة بتقليص النفقات إلى أدنى

حد ممكن وإلا فإنه نفسه معرّض للطرد ولا يجد المسكين بُدّاً من حبس البحّار في غرفة. لم يكن القبطان يسعى إلى إنزال الأذى بعامله إنما أراد التملص من المتاعب وتجنب التأخير في الميناء بما يعنيه من رسوم إضافية إذا لم يأمر برفع مرساة سفينته في الوقت المحدد. وحين تصبح السفينة مجددا في عرض المياه كان القبطان يذهب إلى ذلك البحّار ليطلقه من سجنه لحاجته الماسة إلى يد عاملة، خاصة وأن في كل ميناء ترسو فيه السفينة عادة ما يهرب عامل أو أكثر أو يتخلف آخر لأنه ظل موقوفاً في مخفر للشرطة بسبب شجار نشب بين سكارى في إحدى خمارات الميناء. لكن في تلك الأثناء كان شيء غير متوقع قد حدث؛ إذ وجدت الجرذان في المسكين وليمة لم تتخل عنها رغم محاولات القبطان الخجولة لإبعادها، ولم يجرؤ هذا على إطلاق النار أو يصرخ طالباً النجدة من الطاقم لأن سّره سينكشف وسيخسر خياره الوحيد في التملص من دفع أجور العمال عن ساعات العمل الإضافية. لا يمكن لمخلوق أن يقنع كل من أبحر على اليوريكه بأن القصص المريعة حول سفن العبيد وعمل العبيد هي محض خرافات وكذب، لا يا سيدي، فلم يسبق لعبيد أن حُشروا في مكان صغير كما حُشرنا ولم يكن العبيد ليعانوا من الجوع أكثر منّا أو ليعملوا حد الإعياء كما كنا نعمل نحن على اليوريكه. للعبيد مهرجاناتهم وأغانيهم ورقصاتهم وأفراحهم وأعراسهم وزوجاتهم الحبيبات وأطفالهم وسعادتهم في إيمانهم الديني، ولهم الأمل أيضاً. أما نحن فلم نكن نملك شيئاً سوى أن نحتسي الخمر حتى فقدان الوعي ونحظى بدقائق معدودات من الحب الرخيص، ذاك هو قمة الترفيه والفرح الذي كنا نحصل عليه. العبيد كانوا سلعة ثمينة يُدفع ثمنها مالاً حقيقياً، بضاعة تُعامل معاملة أفضل من معاملة الجياد الأصيلة للحفاظ على قيمتها التجارية؛ إذ من ذا الذي يشتري عبداً أنهك مظهره الجوع والعمل المرهق وظهرت على جلده آثار السياط.

البحارة هم عبيد غير قابلين للبيع والشراء وليس هناك من يأبه لمصير بحّار

نفق مثل حيوان مريض أو سقط في البحر وضاع. لا أحد سينفق مالاً من أجل إنقاذه لو أصابه مرض أو ألّم به مكروه، فهناك آلاف آخرون ممن ينتظرون أن يحلّوا محله.

البحارة قطعاً ليسوا عبيداً، فهم مواطنون أحرار، ولو كان لأحدهم سكناً ثابتاً على اليابسة لحّق له التصويت والانتخاب، نعم يا سيدي البحّارة يد عاملة حرة عاطلة عن العمل وجائعة ومرهقة ومسحوقة الضلوع ومكسّرة الأطراف ومحروقة الظهر والذراعين. وبما أنهم ليسوا عبيداً فهم مرغمون على القبول بأي عمل حتى لو عرفوا مسبقاً بأن أوامر قد صدرت بإغراق السفينة ليحصل مالكو الشركة على قيمة التأمين. لكن سفناً مازالت تجوب البحار السبع ترفرف على صواريها أعلام أمم متقدمة بينما تلهب السياط ظهور بحّارتها إذا هم ما رفضوا مضاعفة ساعات عملهم المضني. والعبيد يجب أن يُطعموا جيداً كما الجياد الأصيلة، وعلى البحّار أن يأكل ما يوضع أمامه حتى لو كان الطباخ الذي أعد الطعام لا يفقه شيئاً في الطبخ، لأنه مثلا كان يمتهن الخياطة قبل يوم واحد فقط فالشركة لا تدفع أجراً عالياً لطباخ حقيقي على حساب أرباح حاملي أسهمها.

نعم، نصوص القانون بشأن حقوق البحّارة على السفينة جميلة حقاً في كافة أرجاء العالم. كلها تبدو رائعة على الورق، نصوص تحدد جودة الطعام ونظافته وصلاحية المعّلب منه، وفي الحقيقة فإن بطوننا لم تعرف الشبع.

قصص البحر لا تنضب أبداً. وإذا تمعن المرء بها يرى أنها تحكي عن مغنين في الأوبرا متنكرين بلباس بحّارة. أولئك المغنين هم من الذين يشّذبون أظافرهم ولا همّ عندهم سوى التغنّي بقصص الحب السخيفة. وحتى أمهر مؤلفي روايات البحر فإنه لا يجيد سوى الكتابة عن شخص القبطان الشجاع والرجل النبيل الشهم، لكن البحّارة هم دوماً الكسالى والقذرون والعراة من الصفات النبيلة. نعم، البحّارة هم حقاً كذلك. لكن لماذا؟ فأي هدف وطموح يسعى

إليه أولئك البائسون ولمن؟ نعم للقبطان طموح لأن اسمه يظهر في الصفحات الأولى للجرائد والمجلات، وقد تخّط الشركة اسمه بحروف مذُهّبة داخل إطار يُعلّق على جدار مكتب رئاسة إداراتها. أما البحّار فليس له في الدنيا سوى الأجر الذي يتقاضاه، ولقمة الطعام وصحته، باختصار عمره هو رأسماله فلا تقدّم يلوح في أفق حياته ولا أرباح تأتيه؛ فهو ليس من حملة الأسهم فلماذا يكون عليه أن يطمح لتحقيق شيء؟ ورغم أن البحّارة لا يفشلوا قط في أداء واجبهم كبشر، إذّ يفلحون دوماً في إنقاذ حياة المسافرين الذين جنحت سفنهم، لكن على القبطان تقليص نفقات الشركة. ولأن البحّارة يعلمون ذلك لذا هم قادرون على فهم قصص البحر بالطريقة الصحيحة ويدركون حقيقة ما تكتبه الصحف عن الشجاعة المزعومة للقبطان. البحّار هو الذي يجازف بحياته لأنه الأقرب إلى الخطر الحقيقي ساعة يقف القبطان في برج القيادة مثله مثل الجنرال بغرفة العمليات، بعيدان كل البعد عن الخسارات، أي نعم يا سيدي.

26

لم أتبادل مع الرجال المستلقين على أسرّتهم، وهم يئنون من شدة التعب، سوى كلمات قليلة. حينما أخبرني أحدهم، يوم صعدت على السفينة، أن لا تجهيز للبحّارة بأغطية أو وسائد أو فرش، لم يعد هناك ما يقال. كنت أسمع الضجيج قادم من أعلى. جلجلة السلاسل ورنة حديد المرساة وارتطامها بأرضية السفينة وصرير الرافعات ووقع الأقدام الثقيلة وشتائم ولعنات البحّارة والرؤساء. تلك الضوضاء كانت تدخل الحزن والمرض إلى روحي ولم أكن لأرتاح وتستكين نفسي حتى تصبح السفينة في عرض البحر، فهي عندما تكون راسية في الميناء تتوقف عن كونها سفينة وتتحول إلى مجرد صندوق يجب تحميله بالبضائع أو تفريغه من حمولته. والبحّار في الميناء ليس بحّاراً بل هو

مجرد أجير يعمل تماماً كعامل في مصنع. في العادة لا أترك مهجعي طالما كانت الضوضاء مستمرة، فليس من الشطارة أن يكون المرء مرئياً حين يكون العمل على أشدّه لأنهم لن يعتقوك وأنت واقف في الجوار تتفرج، لذا فمن الأفضل التواري عن الأنظار حتى تهدأ الأمور ونغادر الميناء.

انتظرت حتى تلاشى الضجيج وتأكدت من انتهاء الأعمال الإضافية على سطح المركب وصارت اليوريكه تسير بنعومة على الماء، حينها غادرت المقصورة وخرجت أروم استنشاق الهواء على السطح. ما لبثت أن خرجت حتى تلّقاني النشّال الذي كان قدّم نفسه على أنه المهندس الثاني **«أين أنت يا رجل؟ كنت أبحث عنك، الرجل الكبير يريد أن يراك ويسجّلك في دفتر البحّارة ضمن طاقم السفينة، هيا اتبعني.»**

التجارب الغنية علّمتني أنه حين أسمع من يقول «اتبعني أو تعال معي» فإن ذلك يعني دائماً «نحن سنعتني بك وستبقى معنا لفترة طويلة، خذ الأمور ببساطة ولا تقاوم».

اليوريكه كانت تركض كأنها شيطان يستعجل الوصول إلى الجحيم، والقبطان كان ترك البرج في عهدة الضابط الأول، الربّان الفعلي، الذي يقوم بتجديد الإحداثيات. القبطان كان شاباً متوسط القامة حسن المظهر أنيق الملبس جداً لم يكد يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر. مظهره اللطيف لم يكن ليدّل قط على كونه قبطاناً لسفينة تجارية كبيرة وبائسة كاليوريكه، بل لمركب بخاري صغير لنقل البضائع. لغته الإنكليزية كانت نقية سليمة النطق كتلك التي يتعلمها طلاب المدارس الراقية في بلد لغته ليست الإنكليزية، كما كان يحرص على اختيار كلماته بعناية فائقة، وحتى يتجنب الوقوع في أخطاء لغوية كان يتوقف أثناء الكلام مما يوحي للآخرين انه يفكر بعمق.

التناقض كان على أشدّه بين مظهره ومنظر المهندس الثاني، وهو الضابط

الثاني في ذات الوقت.

ـ «أنت إذن عامل نقل الفحم؟» سألني القبطان بعد أن حيّاني حين دخلت مقصورته.

ـ «أنا ماذا يا سيدي؟»

ـ «العامل الذي يسحب عربة الفحم الحجري إلى غرفة المرجل.»

ـ «كلا يا سيدي، لست من يسحب الفحم. أنا من يوقد النار.»

بدأت الحقيقة تبزغ كالفجر الآن.

ـ «أنا لم أذكر ذلك قط» قاطعني النشال، المهندس الثاني «الحديث كان عن المجموعة السوداء وسحب عربة الفحم يعود إليها، هذا ما جرى. أليس كذلك؟

ـ «هذا صحيح» أجبته مؤكداً «لكني لم أتصور قط أن المقصود أن أعمل أنا ساحباً لعربة للفحم.»

هنا بدا الضجر على وجه القبطان ووجّه كلامه للنشال «هذه مشكلتك الآن سيد ديلس، من جانبي اعتقدت أن الأمر كان محسوماً وواضحاً وعليكما الآن تسوية الأمر بينكما لكن خارج مقصورتي.»

ـ «أريد مغادرة السفينة فوراً سيدي القبطان لأني لن أقبل قط بهذا النوع من العمل، أنا أحتج بشدة وأطلب النزول من السفينة وسوف أشتكيكم لدى سلطة الميناء بتهمة الشروع بالنصب والاحتيال.»

ـ «من الذي احتال عليك؟ أنا؟ يا لها من كذبة شنيعة!» صرخ النشّال محتجاً. «ألم أذكر العمل في غرفة المرجل؟»

ـ «هذا صحيح لكنك لم تقل...»

- **«أليس سحب الفحم جزء من عمل عمال غرفة المرجل.»**

قاطعني بحدّة.

- **«بالتأكيد هو كذلك، لكني...» هنا قاطعني القبطان حاسماً النقاش «لقد حُسم الأمر إذن. فلو أنك قلت موقد النار لتوجب عليك قول ذلك بصراحة ووضوح ولأخبرك السيد ديلس بعدم حاجتنا لهذا، حسناً يمكننا الآن البدء بتسجيلك.»**

ثم تناول قائمة العمال وسألني عن اسمي. أضع اسمي، اسم بحّار جيد، على قائمة عمال في سفينة موتى؟ مستحيل، لم أنزل بعد إلى هذا الدرك الأسفل ولن يتسنى لي أبداً العمل على باخرة محترمة. شهادة إطلاق سراح من سجن محترم هي أفضل من تسجيل الاسم في دفتر سفينة موتى. كلا يا سيدي. وهكذا تخليت عن أسمي الكريم وتبرأت من انتمائي العائلي ولم يعد لي اسم حقيقي أحمله.

- **«تاريخ ومكان الولادة؟»**

أسمي أضعته، ولكن مازال عندي الوطن. ثم تكرر السؤال:

- **«أين ولدت ومتى؟»**

- **«في ...في»**

- **«أين؟؟»**

- **«في الإسكندرية.»**

- **«تلك التي في الولايات المتحدة؟»**

- **«كلا، في مصر.»**

ها ضاع الوطن أيضاً وأصبح وجود اسم انتحلته على قائمة أجور عمال

اليوريكه هو كل ما أحمل من هوية لما تبقى من عمري.

ـ **«الجنسية، بريطانية كما أظن؟»**

ـ **«لا، بدون جنسية.»**

هل كنت لأضع اسمي وجنسيتي لتبقى مثبّتة على تلك القائمة البائسة؟ أنا الأمريكي جميل الطلعة والمتحضّر، الذي يحمل معه فرشاة للأسنان ويغسل قدميه يومياً. إن كان مقدّراً لي أن أكون على اليوريكه وأخدمها حتى تقول أن أمريكياً قد سحب عربة الفحم؛ فليبق إذن اسمي واسم موطني خفياً. ومع أن ممثلي وطني قد أنكروني وتخلّوا عني، لكني لن أمثّله بهذه الطريقة، فكيف لي أن أتنكر للأرض التي لامستها أولى أنفاسي. ليس من أجل القنصل أو الحكومة وليس حتى بدافع الوطنية. تخليت عن اسمي وجنسيتي حباً بوطني ببساطة لأنه وطني بغض النظر عن الفساد والنفاق الذي فيه، ورغم كل لصوصه وساسته الجهلة. بعيداً عن الرايات الخفاقة والشعارات الحماسية فإن حبي لوطني هو تماماً مثل حبي لأمي. نعم يا سيدي، انه ببساطة الحب الذي لا دواء يُشفي منه ولا عقوبة تردع عنه ولا الموت نفسه يا سيدي. ولهذا كررت جوابي للقبطان **«لا جنسية، بدون وطن بعُرف عصبة الأمم في جنيف»**.

القبطان لم يسألني عن هوية البحّار أو جواز السفر ولا عن أي ورقة أخرى، فهو يعلم حق العلم أن تلك الأسئلة لا تطرح على الرجال الذين يصعدون إلى اليوريكه؛ إذ ماذا سيحدث لو أجابوا **«نحن آسفون يا سيدي فلا أوراق عندنا»** عندها لن يجوز له تشغيل الرجال ولن تحصل اليوريكه على طاقمها قط؛ لأن أيّ بحّار يملك أوراقاً، حقيقية أو مزوّرة، لن يصعد للعمل على اليوريكه. ثم يتوجب على السفينة أن تقصد قنصلية البلد الذي تبحر تحت علمه للتصديق على قائمة عمالها. وبما أن العامل منهم قد صار فعلاً في عرض البحر فلا يمكن للقنصل الرفض ولا يتبقى أمامه سوى الاعتراف بالقائمة وتصديقها سواء

امتلك الرجال بطاقات بحّارة أو جوازات سفر أم لا، ويصبحون عملياً من المقيمين في ذلك البلد لكن دون أن يمنحهم ذلك الإجراء وطناً أو جنسية أو حقاً بالحصول على جواز سفر.

رسمياً لا يعلم القنصل شيئاً عن سفينة موتى. أما بشكل غير رسمي؛ فهو لا يعتقد بوجودها. نعم فلا بد للمرء من مواهب معينة ليصبح قنصلاً مفيداً. القناصل لا يعتقدون أيضاً بأن شخصاً ما قد وُلد فعلاً وأنه موجود إذا ما عجز هذا عن تقديم شهادة بميلاده.

كل قبطان خدم على اليوريكه يعرف جيداً كيفية الحصول على طاقم عمل، ولا يمكنه قط تسجيل عامل طالما كانت السفينة راسية في ميناء؛ إذ لو فعل ذلك كان يتوجب عليه اصطحاب البحّار إلى القنصلية وسيكون لزاماً على القنصل سؤاله عن جواز سفره أو بطاقتة البحرية، وهذا لا يملك أياً من ذلك. وهكذا لن يكون في وسع القنصل الموافقة على تسجيل الرجل في قائمة العمال. القبطان ينتظر دوماً حتى ترتفع الراية الزرقاء، والتي تعني أن السفينة ستكون قد أبحرت في غضون ساعتين على الأكثر، لكن قانونياً فإن رفع العلم الأزرق يعني أن السفينة قد غادرت الميناء وتعد مسافرة وليست راسية. من تلك اللحظة لا تعود السفينة خاضعة لسلطات الميناء ولا لأحكامها القضائية إلا في حالات استثنائية. كل من يصعد إلى اليوريكه بعد ذلك يُعتبر مسّجلاً قانونياً على قائمة الطاقم وفق قانون طوارئ خاص يسمح للسفينة باستئجار عمالاً وهي في عرض البحر باعتبارها غير مكتملة الطاقم، وسيحّق للقبطان تسجيل ما يشاء من الرجال دون حاجة الذهاب بهم إلى القنصلية، وسيتوجب على القنصل المصادقة على تلك القائمة وإلا فان سلطات الميناء سوف تبلّغ عنه.

كان القبطان ما يزال منشغلاً بالكتابة في الدفتر.

بعد أن تخليت عن اسمي ووطني وجنسيتي لم يعد لي سوى حقي في العمل، والعمل هو ما تريده اليوريكه، لذا أردت بيع قوة عملي بأعلى سعر ممكن.

- «**أجر عامل الفحم خمسة وأربعين بيسو**» قالها القبطان دون أن يرفع عينيه عن دفتر البحّارة.

- «**ماذا؟ خمسة وأربعين بيسو؟**» صحت محتجاً.

- «**نعم، ألم تعلم ذلك؟**» سألني القبطان وقد بدا عليه الضجر.

- «**قيل لي أن الدفع بالجنيه الإسترليني.**» أجبت مدافعاً عن حقي.

- «**يا سيد ديلس**»، سأل القبطان المهندس الثاني موجّهاً إليه نظرة غاضبة.

- «**هل وعدتك بالدفع بمال إنكليزي؟ هيا، هل قلت ذلك؟**»

سألني لص الخيول بامتعاض شديد. وددت لو استطعت ضرب هذا الكلب على وجهه، لكني لم أشأ أن ينتهي بي الحال مقيداً بالأصفاد على اليوريكه لتأكلني الجرذان حيّاً ولا يمكنني صدّها عني.

- «**نعم. لقد وعدتني بدفع أجري بالجنيه الإسترليني؟**» صحت غاضباً مدافعاً عن آخر ما أملكه، أجري، هذا الأجر الضئيل. فكلما زاد العمل مشقة ضعف أجر العامل وبالذات أجر العمل المضني في جر عربة الفحم. ولكن قل لي يا سيدي أين يتقاضى العامل في العالم أجراً حقيقياً يوازي ما يبذله من جهد، أين؟ كل من يبخس العامل حقه هو كلب مصاصٌ للدماء، كل ما عليه هو الاتفاق مسبقاً مع العامل المضطر على الأجر وبعدها يكف عن كونه مصاصاً للدماء. لو لم تكن هناك قوانين لما كان هناك أصحاب المليارات.

- «**كفّ عن الصراخ.**» قالها القبطان رافعا بصره عن القائمة التي في يده ثم ملتفتاً إلى مهندسه الثاني، سارق الخيول المحتال.

ـ «يا سيد ديلس، لقد سئمت هذه الفوضى، أليس من المفترض أن يكون عملك في استئجار العُمَّال صحيحاً تماماً؟»

كان القبطان يتصرف بكياسة وإنصاف، نعم يحق لليوريكه أن تفخر بقبطانها.

ـ **«لم أذكر شيئاً عن أجر بالمال الإنكليزي.»** أجاب المحتال.

ـ **«نعم قد فعلت، وأقسم على ذلك.»**

أجبته بإصرار مدافعاً عن حقي القانوني مهما كان صغيراً وإلى النهاية.

ـ «تُقسم زوراً وكذباً يا رجل؟ أنا أعرف جيداً ما قلته لك وما كان جوابك وعندي من الشهود ما يكفي ممن كان واقفاً قربي على السطح وأنا أستأجرك للعمل، فقد قلت «مالاً إنكليزياً» ولم أنطق بكلمة واحدة حول الأجر بالعملة الإنكليزية».

الكلب الماكر على حق. فهو حقاً لم يتفوه بكلمة «أجر» بل تحدث عن مال إنكليزي وحسب، وأنا تصورت أنه يتحدث عن دفع أجري بالعملة الإنكليزية.

ـ «إذن كل شيء على ما يرام، فنحن ندفع أجرك الشهري البالغ خمسة وأربعين بيسا محّولاً إلى العملة الإنكليزية وحسب سعر الصرف الآني. أما للأوقات الإضافية فندفع أربعة بنسات.» علّق القبطان بهدوء.

كان فاتني في تلك اللحظة أن أستفسر عن الأوقات الإضافية وهل كان المقصود أربعة بنسات للساعة أم اليوم أم الأسبوع أم الشهر أم السنة. حين اكتشفت أن المقصود هو الأسبوع ما عاد الاعتراض المتأخر سيجدي نفعا قط. ثم كيف الاعتراض وهم لن يدفعوا بنساً واحداً للعمل الإضافي، ومن يطالب به سيكون مصيره غرفة الرعب. وبعد وهلة سألني القبطان دون أن يلتفت

نحوي إذ كان مازال منشغلاً بتسجيل أرقام وحروف في دفتره:

ـ «**وأين تعتزم النزول؟**»

ـ «**في أول ميناء قادم نرسو فيه.**»

ـ «**لن يمكنك ذلك**» قال المهندس الثاني المحتال وهو يبتسم بخبث.

ـ «**طبعاً يمكنني ذلك.**»

ـ «**لا لن تفعل**» كرر الرجل القول وابتسامته تزداد خبثاً.

ـ «**لقد سجلّت نفسك للعمل حتى ليفربول.**»

ـ «**نعم هذا ما أعنيه**» استدركت القول «**ليفربول هي الميناء القادم الذي سنرسو فيه.**»

ـ «**لا**» أجاب القبطان «**كانت الوجهة الأصلية الرسمية هي سالونيكي في اليونان لكني غيرت قراري، لذا فنحن متوجهون الآن إلى شمال أفريقيا.**»

هكذا كان الأمر يا سيدي، التصريح باليونان هدفاً رسمياً والذهاب إلى شمال أفريقيا، أي نعم. بدأت أفهم القصة، أيها القبطان **لقد** حزرت حقيقتك ولن تتمكن من إخفاء شيء عني بعد الآن. أنا البحّار المحنّك. فأنت لست أول قبطان يعمل على سفينة تهريب أصعد إليها. سألت سارق الخيول، المهندس المحتال:

ـ «**لكنك قلت ان ليفربول هي الميناء القادم، أليس كذلك؟**»

ـ «**ليس صحيحاً ما يقوله الرجل يا سيدي القبطان، قلت أن لدينا شحنة بضاعة نسلّمها في ليفربول وأنه يستطيع مغادرة السفينة هناك.**»

أجاب المهندس الثاني مخاطباً القبطان الذي أكّد على الفور:

- «إذن كل شيء على أحسن ما يرام كما أرى. لدينا خمسة صناديق من السردين الإسباني إلى ليفربول، شحنة ثانوية دون الحد الأدنى لأجور الشحن يمكننا إيصالها خلال ثمانية عشر شهراً. لذا لن أتوجه فوراً إلى ليفربول من أجلها فكلفة الماء الصالح للشرب اللازم لتلك الرحلة ستكون أعلى بكثير من محتوى الصناديق الخمسة، غير أني لن أتردد بالتوجه إلى ذلك الميناء خلال الستّة شهور القادمة في حال توفرت حمولة كبيرة.»

- «لم تخبرني بتلك التفاصيل من البداية؟» سألت المهندس الثاني، سارق الخيول المحتال.

- «أنت لم تسألني.» أجابني المحتال. يا للرفقة الراقية.

تهريب وتزوير تصاريح شحن والكذب حول وجهة السفينة الحقيقية وتغيير مسارها بعد مغادرتها الميناء، هكذا كان حال اليوريكه البائس حيث تصبح معه سفن القراصنة اللصوص سفناً للنبلاء. العمل على سطح سفينة لقراصنة البحر لم يكن عاراً، فلن يكون علي أن أتخلى عن اسمي وعن هويتي وجنسيتي. لكنه عار وشنار العمل على اليوريكه، عار سيظل لزمن طويل عالقاً كغصة في حلقي.

- «هلا سجلّت اسمك هنا؟» قال القبطان وهو يناولني قلماً.

- «مستحيل، غير ممكن» أجبته بانفعال وانزعاج.

- «كما تشاء، يا سيد ديلس من فضلك، اكتب اسمك كشاهد.»

هذا المحتال، هذا الوغد والنشّال وسارق الخيول، هذا الرجل يكتب اسمه نيابة عني. كلا لا يجوز لهذا المخلوق أن يضع اسمه حتى تحت اسمي المزور لذا صحت محتجاً:

- «حسناً يا سيدي القبطان سأضع توقيعي بنفسي. فالحال كله هراء في هراء.»

- «هيلمونت ريغبي، الإسكندرية في مصر.»

صار الاسم مدوّناً بوضوح، فأذهبي إلى الجحيم أيتها السفينة، الآن صار كل شيء سيّان لديّ ولم يعد يهمني شيء. حيثما تذهبين أذهب أنا، وأي مكان تغادرين أغادر معك، وحتى إذا ذهبت إلى الشيطان فسأذهب معك. لقد حلّت عليّ اللعنة ولم يعد لي وجود بين الأحياء، وتبخرت أنفاسي ولم يبق لها أثر في العالم الواسع.

هيلا هوب أيتها السفينة

هيلا هو يا يوريكه

لست مُسَجىً على الشعاب المرجانية

بل أطوف على سفينة موتى

بعيداً عن نيوأورلينز المشمسة

بعيداً عن لويزيانا الجميلة

أهلاً بك أنت البعيد هناك، نعم إياك يا صاحبي أعني فقد صرنا الآن رفاق درب، أنت يا مقاتلاً حتى الموت، أيها المجالد الروماني في حلبة الموت. هيلا هوب، المصارعون حتى الموت، مجالدو العصر الحديث يحيّونك أيها القيصر «أوغسطس كابيتاليسموس»، أيها القيصر الرأسمالي المصارعون الموشكون على الموت يحيونك أيها الإمبراطور العظيم، المحتضرون يحيونك أيها القيصر. نحن مستعدون للموت من أجلك ومن أجل بوليصة التأمين المقدسة والمجيدة. أرسلنا من فضلك إلى المرفأ الكبير أيها الإمبراطور، نعم أرسلنا إلى الميناء

العميق، إلى القرار، نحن نشكرك.

آه أيها الزمن وآه أيتها الأخلاق، كم تغيرت الأشياء، أيها الشبان! أنتم المقاتلون الرومانيون يا من تدخلون حلبة الموت وسط هرج ومرج وقرع طبول وإعجاب نسوة جميلات فقط لتموتوا في حضرة القيصر المنتشي بدمائكم. دعوني أخبركم عنا، نحن المجالدين حتى الموت في العصر الحديث. يجب علينا أن نتمرغ في القذارة والبؤس أولاً وقبل أن نموت. نحن منهكون لدرجة لا نستطيع معها أن نغسل الأوساخ عن وجوهنا، وننام على الطوى ونحن جالسين على مائدة الطعام المتعفن أمامنا من شدة التعب. نحن جوعى أصلا لأن الشركة لن تكون قادرة على منافسة الشركات الأخرى على أجور الشحن إذا هي ما قدمت لطاقمها طعاماً يليق ببني البشر، كلا يا سيدي. على السفينة أن تغور إلى الميناء السفلي العميق وإلا فإن الشركة ستضطر إلى إعلان إفلاسها إذا لم ينقذها من ذلك المصير تعويض التأمين. نحن، مجالدو العصر الحديث، لا نموت مثلكم في أجواء احتفالية؛ فلا موسيقى مارش عسكري ترافق موتنا ولا ابتسامات سيدات جميلات تلقى إلينا ولا تحظى أيادينا بلمس مناديلهن المعطرّة تلك التي يرمينها إليكم في حلبة الموت. نحن بلا أهمية، بلا أسماء، بلا هوية، بلا جنسية، نحن نكرات. مرحى أيها الإمبراطور لن يكون عليك أن تدفع رواتب تقاعدية للزوجات الأرامل وللأبناء الأيتام، ولن تحتاج أجسادنا لتوابيت أو قبور في الثرى. نحن أيها القيصر العظيم أكثر خدمك وفاءً وولاءً، وسنموت بصمت ونتوارى عن الحياة بلا أدنى ضجيج.

27

في المساء تمام الساعة الخامسة والنصف دخل رجل أسود يحمل طعام العشاء في وعائين معدنيين بائسين ووسخين. حساء خفيف جداً وبطاطا مسلوقة وماء

ساخن بني اللون باعتباره شاياً.

ـ «**أين هو اللحم؟**» سألت الزنجي.

ـ «**لا لحوم اليوم**» أجابني بلا اكتراث.

رفعت نظري نحوه لأكتشف أن الرجل لم يكن زنجياً، بل أبيض يعلو وجهه سخام الفحم. علمت منه فوراً أنه عامل جرّ عربة الفحم من مناوبة أخرى.

ـ «**ثم أن جلب العشاء اليوم هو من نصيبك**» خاطبني مؤنباً ومعاتباً بصوت نعسان.

ـ «**لست الصبي الخادم هنا، لعلمك.**»

ـ «**اسمع. لا يوجد هنا خدم. عمال جر عربات الفحم هم من يقومون بكل هذه الأعمال، مفهوم؟**»

سأتوقف عن عدّ ضربات القدر وخيبات الآمال.

ـ «**من يجلي الصحون؟**»

ـ «**عامل جر الفحم.**»

ـ «**من ينظف المهجع؟**»

ـ «**عامل جر الفحم.**»

كان الأمر سيصبح هيناً لو لم يكن هناك عمل آخر يؤديه هذا العامل، أما في حالتنا فتلك لعنة. على السفن المحترمة يوجد عامل إضافي للاحتياط خصيصاً للمساعدة هنا وهناك في كافة الأعمال، وفي نهاية الشهر يقبض راتبه وهو مرتاح وراض. هو رجل كل ما يستجد من عمل وكل فشل يلقى على عاتق ذلك المسكين، فهو المذنب وكبش الفداء باستمرار لأنه من صلب وظيفته. لو شَبَّ

حريق مثلاً في أحد المهاجع فإنه الملوم حتى لو لم يكن دخل المهجع قط، لكنهم سيجدون دوماً سبباً لتحميله الذنب. و لو سهى الطباخ وشاط الطعام فإن ذاك العامل سيتحمل الذنب والتأنيب فقط لأنه ذاك العامل الاحتياطي ليس إلا. أما على اليوريكه؛ فان عمال الفحم يقومون مقام ذلك العامل، يؤدون كافة الأعمال ويتحملون ذنب كل الإخفاقات، نعم يا سيدي. من أجل إنجاز عمل مستحق قذر ومزعج وخطير وطارئ فإن المهندس الأول كان يكلف المهندس الثاني القيام به فوراً، وهذا بدوره يأمر ميكانيكي المحرّكات به وعلى الفور يمرر الميكانيكي الأمر إلى عامل تنظيف وتشحيم المحركات حتى يصل الطلب إلى العامل المسؤول عن التسخين الذي سيصيح: «**يجب على عامل جر عربة الفحم القيام به**» وهو بالضبط ما يحصل في نهاية المطاف. المهمة القذرة والصعبة والخطيرة والملحة ينجزها عامل الفحم الجائع والمنهك ذو الكدمات والجروح والحروق، هو ولا أحد غيره. وبعد أن يتم العمل على أحسن ما يكون، يذهب المهندس الأول إلى القبطان ويطلب منه إدراج تفاصيل إنجاز المهمة الخطيرة في صحيفة الشركة هكذا: «**في ظل ظروف صعبة وحرجة للغاية، حيث المرجل في قمة الغليان، قام المهندس الأول بتصليح كسر من الدرجة الأولى أصاب أنبوب أساسي في غرفة المحركات، معّرضاً بذلك حياته وسلامته للخطر المباشر مما ضمن للسفينة الحفاظ على سرعتها ومواصلة رحلتها إلى هدفها بأمان.**» لاحقاً سيقرأ مدراء مجلس إدارة الشركة تلك الصحيفة فيقول أحدهم «**دعونا نعطي المهندس الأول سفينة أكبر، فهذا الرجل أهم من أن يعمل على اليوريكه.**»

ولو حدث وأظهر المهندس الأول تعاطفاً مع العامل وناداه:

ـ «**أيها العامل، يا أنت، هل تريد قدحاً من الرم**»؟

ـ «**نعم يا سيدي شكراً.**»

لكن يده المتألمة من الحروق الكثيرة ما كانت لتقدر على الإمساك بالقدح

فيفلت منه وينسكب الشراب على الأرضية.

حين صار طعام العشاء على المائدة، كان الجوع قد داهمني فعقدت النية على أن آكل ما استطعت، لكن النيّة هي غير القدرة على التنفيذ. حين هممت بأخذ صحن وملعقة سمعت:

- **«اتركْ الصحن والملعقة، هما لي.»**

- **«حسناً وأين أحصل على صحن لنفسي؟»**

- **«إذا لم تكن قد جلبت صحنك الخاص معك فلن تجد واحداً هنا.»**

- **«ألا يحصل المرء هنا على صحن؟»**

- **«أنت تحصل على ما تجلبه معك فقط.»**

- **«وكيف سيمكنني أن أتناول طعامي بدون صحن ولا شوكة ولا ملعقة؟»**

- **«هذه مشكلتك، اخترع شيئاً لنفسك.»**

- **«اسمعْ أيها العامل الجديد»** صاح احد الرجال من المقصورة متدخلاً بالنقاش **«يمكنك أن تستخدم صحني وملعقتي وكوب الشاي أيضاً، لكن في المقابل عليك أن تتولى جليها باستمرار.»**

البعض كان يمتلك صحناً مصدعاً، ولكن لا كوباً لشرب للشاي أو القهوة، فيما عامل آخر عنده شوكة فقط، وحين كان يؤتى بالطعام فغالباً ما تنشب معركة حول من يحظى أولاً بالصحن والملعقة وسيكون بإمكان ذلك الطائر المحظوظ انتقاء أسمن ما في القصعة تاركاً البقية الشحيحة للآخرين.

وكلما غادرت اليوريكه ميناءً فإن باراته سرعان ما تكتشف اختفاء الكثير من أطباقها ملاعقها وشوكها.

السائل البني الذي يدعى شاياً لم يقدم يوماً ساخناً، بل كان على الدوام فاتراً

أما طعمه، فكان يشبه، يشبه نعم نعم يا سيدي هو تماماً كما تقول، هكذا بالضبط كان طعمه. السائل الآخر الذي يدعى القهوة كان يقدم صباحاً مع الفطور وفي الساعة الثالثة عصراً أيضاً، وهي التي لم أتذوقها في تلك الساعة سوى نادراً، لأني غالباً ما أكون مشغولاً عند المرجل، وحين أعود بعد مناوبتي لا أجد شيئاً منه. لكننا ننسى لوهلة رداءة الطعام وشحته، وحرماننا من الشاي والقهوة الحقيقية حين يحدث أن يتكرم القبطان على كل رجل فينا بكأسين محترمين من الرم الجيّد وعلبة صغيرة من المربّى، ذلك يحدث حين تكون صفقة ما مشبوهة قيد التنفيذ.

سوء التغذية وقذارة المكان كانا على وشك التسبب بمرضي، لذا قررت أن أنظف المقصورة بنفسي بينما استلقى الرجال بعد الطعام على أسرّتهم وراحوا في سبات عميق كأنهم جثث هامدة. هرعت إلى رئيسي وطرقت بابه:

ـ «أحتاج صابوناً وفرشاة لأني أريد تنظيف المكان من القذارة».

ـ «ماذا تريد؟ هل تظن أنني أنفق مالاً لشراء صابون التنظيف للبحّارة؟ أتظن ذلك حقا؟ ليس لدي ما تطلب هيا اذهب للقبطان.»

ـ «حسناً يا سيدي، لكن هناك أمر يخصني شخصياً حيث لم أستلم أية قطعة صابون أغسل بها وجهي، وأنت تعرف مكان عملي؟»

ـ «أنت لست بحّاراً مستجداً، لا تبدو كذلك لي، أنت بحّار قديم ومن المفترض أنك تعلم حق العلم أن أي بحّار محترم يشتري لنفسه صابونته الخاصة لأنها جزء من أغراضه الشخصية.»

ـ «ربما يا سيدي، قد ينطبق ذلك على الصابون المعطر الغالي ولكن ليس على الصابون العادي الرخيص الذي يجب على الشركة أن توفره للعاملين في غرفة الفحم، هذه هي التعليمات. وكذلك الحال بالنسبة للمناشف التي نحتاجها

لمسح عرقنا أثناء العمل، أي نوع من السفن هذه بربك؟ إن أي سفينة محترمة تقوم بتزويد طاقمها بالأفرشة والأغطية والبطانيات النظيفة، وقبل كل شي بلوازم الطعام من صحون وملاعق وسكاكين وأشواك، فنحن لسنا بخنازير.»

- «المرء وحده يعرف نفسه.»

- «كل تلك الأشياء هي جزء من تجهيزات الشركة للطاقم وليست جزءاً من الأغراض الشخصية الخاصة به.»

- «ليس هنا، ليس على اليوريكه معنا، ثم إذا كان الحال هنا لا يروقك فلماذا لا تعود من حيث جئت بحق الجحيم.»

- «يا لك من قذر.»

- «اخرج من مقصورتي فوراً. سوف أشتكيك للقبطان وسيقيّدك..»

- «بالحديد، ماذا؟»

- «كلا، ليس الأمر كما تظن، لسنا مجانين لهذه الدرجة. فأنا بحاجة ماسة لعمال جر الفحم. القبطان سيقيدك مالياً بخصم أجرة شهر كامل إذا أنت ما عاودت فعلتك هذه معي.»

- «يا لكم من قوم نبلاء، حقاً! إنكم كذلك! فحتى الأجر القليل تحتالون كي لا تدفعوه.»

لا فائدة من الجدال فلو واصلت احتجاجي فسوم يحرمونني أجر شهرين.

- «قل ذلك لجدتّك الكبيرة» أجابني مستهزئاً «ستصغي لقصتك بكل تأكيد لكني لن أفعل ذلك، هيا اغرب عن وجهي فوراً وعد إلى مهجعك فمناوبتك ستبدأ تمام الحادية عشر.»

ـ «مناوبتي تبدأ في الثانية عشر وحتى الساعة الرابعة.»

ـ «ليس معنا وليس لمناوبة عمال جر الفحم، هؤلاء يبدؤون في الساعة الحادية عشر لإخراج الرماد من الموقد حتى الساعة الثانية عشر حيث يبدأ عملهم الأساسي.»

ـ «وهذا يحتسب كساعة عمل إضافية بالطبع، أليس كذلك؟»

ـ «بالتأكيد لا. إخراج الرماد لا يحتسب كساعة عمل إضافي، إنه جزء من عملك وهو ما وقّعت عليه.»

أي عصر هذا الذي أعيش فيه؟ وأي قوم هؤلاء الذين وقعت عليهم؟ حتى في روما القديمة واليونان كان للعبيد حقوقاً واضحة. سرت مثقل الرأس وحائر الفكر محاولاً العودة إلى نفسي وفهم ما يجري في العالم حولي.

هذا البحر هو نفسه الأزرق المنبسط الرائع الذي عشقته دوماً والذي تبحر فيه آلاف السفن المحترمة والنظيفة، لكني عكس عقلاء الأرض والبحر اخترت هذه السفينة التي ابتليت بالجذام. سفينة لا تبحر إلا ابتغاء لشفقة البحر، لكني شعرت أن البحر لن يأخذها إليه بكل أمراضها وقيحها خشية أن تصيبه العدوى. في الأقل ليس بعد، فالبحر مازال ينتظر اليوم حين يصدف أن تكون اليوريكه راسية في ركن قصي من ميناء ناء ما وان تنشب النار فيها لسبب أو لآخر، أو تنفجر وتتمزق أشلاؤها على اليابسة كي ينجو الماء من ان يصبح مقبرة لهذا الطاعون.

متكئاً على الدرابزين ومحدّقاً في السماء المليئة بالنجوم وأمامي يمتد البحر بأمواجه التي ترتطم بلا هوادة بجسد اليوريكه وهي تشق طريقها في الماء، فكرت في نيوأورلينز وبإسبانيا المشمسة واعتراني شعور غريب لم أختبره من

قبل فقلت لنفسي: «ما المغزى من كل هذا، اتركْ عربة جر الفحم ودَعْ هذه القذارة خلفك، هيا أنه المسألة يا فتى واختصر الطريق واقفز إلى البحر ما دمت بحاراً أمريكياً محترماً وقبل أن يلحقك العار وينكرك البحر ويشعر بالخجل منك حين تقترب منه تريد توديعه، لكن أين سيكون الخلاص في هذا؟ . لا يمكنه أن يكون سهلاً لهذه الدرجة، فلن يظل بعدي سوى عامل واحد مسكين ومنهك حد الإعياء ليشقى بمفرده وليجر عربة الفحم، وسيتحتم على أخي وزميلي البائس هذا أن يضاعف ساعات عمله ويقوم بمناوبتك بدلاً عنك. معرفة ذلك ستجعل من محطتي الأخيرة جحيماً ولن يهنأ لي الرقاد في قاع البحر بل قد أنهض من رقدتي وأعود إلى السفينة فقط لأقول له: يا أخي البحّار، أنا آسف، اغفر لي، أرجوك سامحني حتى أرقد في القاع بسلام. لنفترض أنه رفض مسامحتي فماذا كنت سأفعل آنذاك؟

اللعنة، اللعنة على كل شيء! اسمع أيها الفتى! لا يمكن لهذه المريضة المبتلية بالطاعون، هذه اليوريكه، أن تقضي عليك ولا يمكن للقنصل أن يفعل ذلك بك. هيا ارفع رأسك وواصل الحياة. ابتلع القذارة واهضمها فتلك أسرع طريقة للتخلص منها. ستكون هناك دوماً الكثير من الأسباب، ففي يوم ما سيكون هناك صابوناً وفرشاة للتنظيف بل والكثير منها وتكون هناك مدناً أخرى سواء كانت نيوأورلينز أم غيرها؛ فالقذارة هي خارجنا فقط فلا تدعها تدنو منك وتتغلل إلى روحك وفؤادك. هيا ابتعد عن الدرابزين وعن الوحش الذي يلاحقك، هيا اركله بقدمك والفظْ الغصة التي تخنقك، فهذا هو كل ما تستطيع فعله حالياً، والآن عد إلى مهجعك أيها الفتى.»

في المهجع المليء بالدخان الكثيف للكيروسين أدركت، بشكل لا تشوبه شائبة بعد الآن، بأني على سفينة للموت. كما أدركت أيضاً وبنفس الوضوح إنها لن تكون سفينة موتي أنا مهما كان سيحلّ بها. لن أساعد اليوريكه لتحصل

على ثمن بوليصة تأمينها. كلا يا سيدي، لن أكون لها المصارع حتى الموت في حلبتها. لقد خسرت أحد عبيدك الذين يهللون لك صائحين «الموشكون على الموت يحيّونك.» وفّري صابونك لنفسك أيتها اليوريكه فلم أعد بحاجة إليه. إنني أبصق عليك وعلى خبزك المرّ اللعين. سأبتلع كل شيء، فتعالي أنا جاهز الآن للقتال.

28

بقيت لفترة مستلقياً على لوح السرير العاري ولم أستطع النوم بسهولة بسبب دخان الكيروسين المحترق المنبثق من فانوس العذارى السبع، فضاقت أنفاسي وأصابني ألم كالوخز في الرئتين، كما كنت أرتجف لأن ليالي البحر قد تكون شديدة البرودة ولا من بطانية تقي جسدي شر البرد. وحين رحت في إغفاءة خفيفة أيقظتني هزة يد ورمتني خارج السرير بالقوة.

ـ «انهض، الساعة الحادية عشرة والنصف، لا تغط في نومك ثانية فلن أستطيع المجيء مجدداً لإيقاظك، وقبل أن تحل الساعة الثانية عشر عليك أن تكون أيقظت عامل الفرن في مناوبتك وجلبت له القهوة.»

ـ «لا أعرفه ولا أعرف أين مهجعه.»

ـ «هيا قم وسوف أريك مكانه.»

نهضت ورافقته فأرشدني إلى مهجع عامل التسخين في مناوبتي. وقبل أن يختفي مسرعاً كشبح صاح بلهجة آمرة:

ـ «هيا أسرع واذهب إلى الونش، فهناك كمية كبيرة من الرماد يجب رفعها.»

عامل الفحم من المناوبة المنتهية، ستانيسلاف، حاول أن يشرح لي كيفية

استخدام الونش الذي يرفع صفيحة الرماد الثقيلة. لم أفهم ما يدور لذا سألت:

ـ «انظرْ يا ستانسيلاف. لست أفهم ما يجري هنا حقاً، لقد خبرت العمل في البحر وظننت نفسي خبيراً لكني لم أشهد بحياتي دلواً كهذا يجعل عامل جر الفحم ينجز أشغالاً إضافية كهذه، فلماذا ومن أجل أي شيء؟»

ـ «أعرف هذا جيداً فلست بحاراً مبتدئاً. وصدّقني، لقد خدمت على سفن كثيرة ورأيت عامل الفرن نفسه يساعد في نقل الرماد لكنه هنا غير قادر على إنجاز كل العمل بنفسه، بل إنه لا يرتاح لحظة واحدة، وإذا لم يهرع عمال الفحم لمساعدته أحياناً فستنخفض سرعة السفينة ولن تواصل رحلتها بالشكل اللازم.»

ـ «أراهنك على حياتك الحلوة كبحّار أني لن ألعب دور الملاك على هذا الدلو.»

ـ «تريد النزول في المرفأ القادم؟ سألني «ما تفعله ليس صحيحاً لكنك سوف تفهم ذلك قريباً. تعرّف على السفن، أقصد على الحياة فيها وتفحصها بإمعان ثم اختر بذهنك واحدة من بينها، تلك التي تود العمل عليها حين تتوفر الفرصة. تحدث مع الطباخ فهو سيكون معيناً لك لو عرفت كيفية التعامل معه ولعلمك، فهذا الرجل يمتلك سُتْرَتيْ نجاة لوقت الحاجة.»

ـ «لماذا؟ أليس هناك سترات نجاة للجميع؟»

ـ «هل رأيت واحدة منها؟»

ـ «لم أنتبه.»

ـ «من الأفضل أن لا تعتمد على المسلّمات هنا، فليس على السفينة طوق نجاة في حال سقط أحد إلى عرض البحر. طبعاً أنتَ رأيت أربع منها معلّقة

على سور المركب لكنني أنصحك بعدم لمسها فهي، للزينة فقط! وإذا حاولت أن تُدخل رأسك فيها فستكون قد فقدت كل أمل بالنجاة، لأنك ستكون أقحمت جسدك بحجر رحى سيقضي عليك.»

ـ «كيف يمكن لهؤلاء الأوغاد فعل هذا؟ لكثرة ما تعودت على رؤيتها معلقة على جدران المهاجع في السفن الأخرى لم أنتبه لعدم وجودها هنا.»

أطلق ستانيسلاف ضحكة طويلة: «أنتَ لم تبحر سابقاً على سفينة كهذه، أما أنا فاليوريكه هي رابع سفينة موت أعمل عليها! فمنذ انتهاء الحرب صار انتقاء سفناً كهذه عشوائياً.»

ـ «أنت يالافيسكي.» ناداه رجل التسخين، مارتين، مطلا برأسه من الأسفل.

ـ «ماذا تريد؟» أجابه ستانيسلاف صائحاً.

ـ «هل تنويان المساعدة أم ماذا؟»

ـ «بالطبع ننوي ذلك. لكن يتوجب عليّ تدريب العامل الجديد أولاً، فهو لا يعرف الونش.»

ـ «هيا انزلا بسرعة إلى هنا فقد سقط أحد القضبان الحامية.»

أجاب مارتين غاضباً.

ـ «دعونا نرفع الرماد أولاً والحديد الحامي يمكنه الانتظار. ثم يتوجب عليّ تعليم هذا الجديد أيضاً.» صاح بنسانيسلاف.

ـ «ما أسمك؟» سألني الرجل.

ـ «اسمي أنا؟ اسمي بيبه.»

ـ «اسم جميل، هل أنت تركي؟»

ـ «مصري.»

ـ «لطيف جداً، مصري هه؟ هذا بالضبط هو ما ينقصنا لنكتمل؛ إذ لدينا ممثلي كافة الجنسيات على سطح هذا الدلو العائم.»

ـ «كل الجنسيات تقول؟ يانكي أيضاً.»

ـ «أعتقد انك مازلت نائماً، فسؤالك سخيف للغاية. وحدهم ممثلو اليانكي والبلاشفة الشيوعيون هم من لا يسافر على سفن للموتى والجثث. الأمريكان لا يصعدون مطلقاً إلى سفن كهذه لأنهم سيهلكون من القذارة خلال أربعة وعشرين ساعة، إضافة إلى أن الأمريكان يتلقون مساعدات مالية جيدة من قناصلهم على اليابسة، تماماً كالبريطانيين»

ـ «والبلاشفة الشيوعيون؟» سألته.

ـ «أولئك قوم شديدو الفطنة ولا يمكنك خداعهم قط! فهم يشمون الحقيقة فوراً لدى رؤيتهم مسمار في الصارية. والسفينة التي يعمل عليها بلشفي لا يمكن لها الاحتيال وقبض ثمن بوليصة التأمين، ثق بذلك. وإذا عرفوا أن أمراً يشوب السفينة فإنهم يتمردون فوراً ولن يتمكن حينها أي مفتش من الميناء غض الطرف عن ذلك مقابل رشوة. اسمعْ، كلما شاهدت سفينة عليها أمريكان وبلاشفة فاعلم انك بأمان وبخير. أنا شخصياً لا أركب البحر سوى بحثاً عن فرصة لأجد سفينة آمنة كتلك وحينها لن أتركها أبداً بل ولن أغادرها، حين ترسو في ميناء، حتى لشرب كأس في حانة خشية أن أخسرها. إن من أفضل السفن في العالم هي الأمريكية من نيوأورلينز؛ فهي الفردوس لمن يجد الفرصة للصعود إلى واحدة منها.»

ـ «لم أر سفينة من نيوأورلينز البتّة.» قلت معلّقاً.

ـ «ولن تراها.فسفينة أمريكية من نيوأورلينز لن تأخذك أبداً على سطحها،

أنت المصري، حتى لو بلغت المائة عام من العمر ورأيت كل أنواع السفن، وحتى لو كنت تحمل أفضل بطاقة نظيفة وقانونية يمكن أن يحملها بحّار فهم لن ينظروا إليك قط. وبالنسبة لي فقد مضى الحلم أيضاً؛ فمن عمل على اليوريكه لن يصعد إلى سفينة محترمة في حياته، لأنها كالطاعون ستصبح جزءاً من تاريخك الشخصي الذي يعلق بك لبقية حياتك. اللعنة هيا لنسرع الآن للعمل.»

ـ «**هل الحبل مثبت؟**» صاح ستانيسلاف نحو الأسفل.

ـ «**جاهز. هيا ارفع.**» صاح عامل الفرن.

ضغط ستانيسلاف على زر في الونش فتحرك وعاء الفحم المتدلي من سلسلة نحو الأعلى محدّثاً ضجيجاً وحين وصل الارتفاع المطلوب، ضغط الرجل مرة أخرى على الزر فتوقف الوعاء عن الحركة تدريجياً وبقي معلقاً في فتحة النفق العمودي. ثم طلب مني أن أكمل العمل برفع الدلو ونقله إلى مكان معين ومن هناك إفراغ ما يحويه من رماد في البحر، وقال أننا سنعمل من الآن فصاعداً سوياً لإنجاز هذا العمل باستيقاظنا مبكرين بساعة قبل بدء مناوبتنا. الدلو كان ثقيلاً يزن ربما خمسين كيلوغراماً وساخناً جداً بالكاد يمكن لمسه وبين الرماد كان الكثير من الجمر المتقد لكن ما باليد حيلة إذ رفعته وسرت به عبر الممر الضيق وأفرغته عبر زلاقة خشبية في الماء ثم قمت بإعادته وربطته بسلسلة الرفع بالونش ليبقى معلقاً جاهزاً للإنزال عبر النفق العمودي إلى الأسفل عند فرن التسخين لنقل حمولة جديدة من رماد وجمر الفحم المحترق وهو ما فعله ستانيسلاف على الفور وهو يخبرني كأنه يكلّم نفسه:

ـ «**طبيعي أن تختفي سترات النجاة. أنا واثق من أن القبطان قد باعها وقبض ثمنها. لكنه حتماً لم يفعل ذلك لمجرد الرغبة في التكسب الجانبي بل للقضاء على فرص نجاة أي فرد من أفراد الطاقم يمكنه أن يصبح شاهداً ليروي ما حدث لمجلس الملاحة، هل فهمت ما يجري؟ لن يكون هناك من قد يكشف شيئاً يمكنه**

أن يمنع شركة التأمين من صرف قيمة البوليصة. أظنك فهمتني. ثم الق نظرة في ضوء النهار على قوارب النجاة فسترى أن الثقوب التي فيها تتسع لبسطالك أن يسقط من خلالها إلى البحر. ماذا قلت كان اسمك؟ آه بيبه، نعم يا بيبه عليك أن تراها في ضوء النهار والنتيجة شهود أقل وأقل.»

ـ «هراء ما تقوله» أجبته غير مقتنع بكلامه «فالقبطان نفسه سوف يريد النزول من المركب ساعتها.»

ـ «لا تقلق على القبطان، بل فكّر بإنقاذ جلدك. فالقبطان سينجو بكل الأحوال.»

ـ «لكنك نفسك قد نزلت من ثلاث سفن موت حتى الآن، أم ماذا؟»

ـ «مسألة حظ، عليك أن تكون محظوظاً قليلاً وإلا فابتعد عن الماء ولا تقرب البحر بتاتاً ثم إني نجوت من آخر سفينة موت لأني تأخرت عليها في الميناء فذهبت دوني لحسن حظي.»

ـ «لافيسكي. ماذا يجري عندك في الأعلى بحق الجحيم؟» صاح عامل الفرن مجدداً.

ـ «السلاسل إنفلتت من العتلة وعلي إعادتها إلى مكانها. اللعنة.» صاح ستانيسلاف.

ـ «سيكون يومنا طويلاً إذا بقيتما على هذا الحال.» أجاب الصوت من الأسفل.

ـ «هيا جرّب أنت الونش الآن، لكن كن حذراً ومتيقظاً حين تستخدمه.»

ستانيسلاف ذهب إلى الأسفل ليرفع الرماد ويضعه في الدلو ويربطه بسلسلة الونش ويصيح يطلب مني أن أرفعه بدوري إلى الأعلى. بعد رفع خمسين وعاء من الرماد صاح ستانيسلاف إن عملنا لليوم قد انتهى، وإن رفع بقية الرماد

سيكون من حصة عمال المناوبة التالية.

جرجرت نفسي إلى المهجع في العتمة، فسطح السفينة لم يكن مضاءً توفيراً للوقود، وتعثرت في طريقي بكل ما هو ملقى على السطح وآذيت عظم ساقي الأيمن. نجار السفينة السكران كان من بين الأشياء الملقاة التي تعثرت بها. وعلمت لاحقاً أن نجار اليوريكه ذاك كان يسكر حتى الثمالة في كل ميناء ترسو فيه السفينة ويكون غير قادر على القيام بأي عمل في اليومين التاليين، غير أن القبطان ما كان ليأبه بذلك؛ فما يهمه هو أن مساعديه الأساسيين يقومون بعملهم كما هو مطلوب ولا يشاركون النجار متعته. ومع ذلك فالنجار وثلاثة آخرون ممن يعتمد عليهم القبطان كانوا ليستحقون الحصول على سترات النجاة من القبطان دون مخافة أن تقود شهاداتهم أمام شركة التأمين إلى حرمان أرباب السفينة من قبض قيمة البوليصة، ذلك أن أولئك الرجال فقدوا منذ زمن القدرة على التفكير المستقل وتمييز ما يرونه، مما لا يرون وصار كل ما يعرفونه هو سعر كأس الويسكي في بارات الموانئ المختلفة التي ترسو فيها اليوريكه، بينما كان القبطان يردد بمناسبة وبلا مناسبة أن أولئك الرجال الأربعة هم بحّارة من الطراز الأول.

حملت وعاء القهوة من المهجع إلى المطبخ وملأته بالقهوة الساخنة التي كانت على الموقد وعدت به عبر الممر المعتم إلى المهجع. في تلك الأثناء كانت ركبتاي تدميان من كثرة ما ارتطمت به من صناديق وسلاسل وقضبان وأغرض أخرى في طريقي، وبالطبع لم يكن ثمة ما أداوي به جروحي؛ فلا إسعافات أولية متوفرة لمثل هذه الجروح البسيطة، وما هو متوفر من أدوية ولوازم العلاج محفوظة للحالات الصعبة لدى الضابط الأول الذي يقوم بدور الطبيب أيضاً والذي كان سيسخر مني لو أني لجأت إليه لمعالجة جرح تافه كالذي أصابني وسيطردني ناصحاً إياي بفرك الجرح برماد الفحم لإيقاف الدم.

كان علي أن أوقظ رجل الفرن لمناوبتي، لكنه استشاط غضباً وأراد أن يدق عنقي لأني أيقظته مبكراً وحرمته من نوم دقيقتين كاملتين! إلا أنه، حين سمع صوت الجرس يعلن بدء المناوبة وهو لم يكن قد شرب قهوته بعد، أراد دق عنقي للمرة الثانية لأني تأخرت في إيقاظه.

الحمقى وحدهم هم من يهدرون طاقتهم في النقاش. قل دائماً رأيك فحسب، إن كان لك رأي أصلاً، ثم اصمت ودع الآخرين يثرثرون حتى تجف أفواههم، وقل دائماً نعم لآراء الآخرين حين يسألونك عن رأيك فيما يقولون وإن كنت تنصت لكلامهم.

أسبوع واحد من تلك المناوبة يجعلك تفقد لسنين عديدة القدرة على التفكير واستيعاب ما يدور حولك في العالم.

القهوة كانت سوداء وساخنة ومرّة، فلا سكّر ولا حليب. الخبز كان وفيراً ولكن كنا نأكله خبزاً حافاً وجافاً لأن الزبدة النباتية الرخيصة كانت عفنة الرائحة. جاء رجل التسخين ليجلس عند طاولة الطعام، رمى بجسده على المصطبة وحاول أن يعتدل بجلسته وهو يرفع كوب القهوة إلى فمه، لكن رأسه الثقيل المتعب هوى على الكوب فجأة فمال واندلق شيء من السائل الحار. كاد النعاس يغلب الرجل وهو يمد يده إلى رغيف الخبز السميك ليقضم قطعة منه بأسنانه لأن يده ما كانت لتقوى على حمل السكين من شدة التعب. جسده كله كان يشارك بكل حركة يقوم بها لأن لا اليد ولا الذراع ولا الفم ولا حتى الرأس كان بقادر لوحده على إنجاز ما يريده منه. دق الجرس فأصابته نوبة غضب لأنه لم يكن قد انتهى من شرب قهوته، فخاطبني:

ـ «اسبقني أنت إلى الأسفل وسوف الحق بك.»

في طريقي إلى هناك مُررت بالمطبخ ورأيت ستانيسلاف يبحث خلسة عن قطعة صابون ليسرقها أملاً في أن يكون الطباخ قد نسيها هناك. الطباخ كان

سرق الصابونة من المضيّف الذي كان سرقها من حقيبة القبطان وهو ينظف قمرته فخاطبته:

- «**هيا أرني الطريق إلى غرفة التسخين يا لافسكي.**»

خرج ورافقني فتسلقنا إلى طابق علوي وسطي ثم أرشدني إلى فتحة نفق أسود يمتد نحو الأسفل.

- «**من هنا تقودك السلالم مباشرة إلى مكانه، لا يمكنك أن تخطئ الطريق إليه.**» أخبرني بذلك وعاد إلى المطبخ.

ورغم عتمة الليل البحري الصقيل لاح لي، وأنا أنظر في فتحة النفق العميق، ضوء أحمر متوهج ودخان. مشهد أثار الرهبة في نفسي وكأني أنظر إلى الجحيم. في ذلك النور تعرفت على هيئة عارية لإنسان وقد رسم العرق على جسده خطوطاً لامعة عريضة. وقف الرجل أمام الفرن اللاهب يحدق بلا حراك في مصدر الضوء الأحمر وقد عقد ذراعيه على صدره، وبعد برهة تحرك فأمسك بمحراك حديدي طويل وثقيل ثم عاد فركنه ثانية إلى الجدار ثم تقدم إلى الأمام وانحنى وغاب ولوهلة بدا وكأن النار قد التهمته! لكنه عاد واستقام بقامته في حين خمدت ألسنة اللهيب ولم يتبقَ من الضوء سوى شبح باهت الحمرة.

لم أكد اضع قدمي على أول درجات السلّم وأنا أهمّ بالنزول، حتى صفعتني غمامة من الدخان الحار وغبار الفحم والرماد المتطاير ممزوجة برائحة الزيت والبترول الخانق وبخار الماء. عدت إلى الأعلى سريعاً لاستنشق الهواء البارد ملء رئتيّ. لكن لا جدوى. فلا بد من العودة إلى هناك. في الأسفل كان هناك رجل حي يرزق ويتحرك، وحيث يمكن لإنسان أن يبقى على قيد الحياة يمكن ذلك لآخر أيضاً لكني لم أصبر طويلاً فتسلقت السلالم سريعاً لآخذ جرعات من الهواء. وتكرر الحال لخمس أو ست مرّات. السلم كان مصنوعاً من الحديد وبدون سياج والدرجات كانت عبارة عن قضبان حديدية رفيعة كالأصابع.

السلم الأولي ينتهي في فسحة صغيرة تؤدي إلى سلم ثان يقود نحو الأعمق غير أني لم أتمكن من الوصول إليه، لأن بخار الماء الحار والكثيف المتسرب من تصدع في أحد أنابيب الماء الساخن جعلني أعتقد أني ضللت الطريق فعدت إلى الأعلى.

ستانيسلاف كان مازال في المطبخ يبحث عن لوح الصابون ليسرقه، وحين لمحني قال طوعاً:

- «**هيا سأرافقك، سأنزل معك.**» وفي طريقنا إلى السلم سألني:

- «**لم تعمل في حياتك في غرفة التسخين، هه؟، لا تقل أنك فعلت. لقد حزرت أمرك منذ أن وقع نظري عليك لأول مرة.**»

لم أكن في مزاج رائق لأتحدث عن نفسي وأخبره قصتي، فاكتفيت بالقول:

- «**نعم لم أعمل قط في غرفة التسخين ولم أقترب منها في حياتي. كنت دوماً عاملاً على سطح السفينة، اسمع يا صاحبي هلا ساعدتني في مناوبتي الأولى؟**»

- «**كفّ عن الثرثرة، طبعاً سأساعدك فتعال معي ولا تقلق. أعرف مشكلتك أكثر مما تتصور. أنا خبير بمراكب الموت ولكنه الأول لك. أخبرني كلما احتجت لمعونتي وسوف أخرجك دوما من الوحل، ففي نهاية المطاف نحن جميعاً موتى ولا يمكن للأمور أن تسوء أكثر.**»

لكن الأمور ساءت، ساءت حقاً. نعم، يمكن للمرء أن يكون على متن سفينة موت وأن يكون ميّتاً بين الأحياء وأن يختفي تماماً ويتلاشى عن الوجود برمّته، ومع ذلك يمكن للمصائب التي لا مفر منها أن تترى ولن يتمكن هو من الإفلات منها مهما كان ميّتاً فحين تكون كل سبل الهرب معدومة لا يبقى أمامه سوى التحمّل.

29

مضى ستانيسلاف إلى النفق الذي كنت تركته تواً ظناً مني أني أخطأت الطريق. نزل على السلالم وتبعته إلى أن وصلنا نهاية السلّم الأول. وفي الفسحة الصغيرة حيث بخار الماء الحار والكثيف قلت:

ـ «لا يمكننا المرور من هنا، فالبخار سيسلخ جلدنا ولحمنا.»

ـ «في الغالب ينسلخ بعض الجلد، في الغد أريك ذراعيّ. لكن لابد لنا من المرور» أجابني ستانيسلاف **«لا مفر، فلا طريق آخر يقود إلى غرفة التسخين، فالمهندسون لا يسمحون لنا بالمرور عبر غرفة المكائن بسبب قذارتنا، ولأن ذلك مخالف أصلاً للتعليمات.»**

وأثناء ما كان يحدثني ويشرح لي شاهدته يحمي بذراعيه رأسه ووجهه وعينيه وأذنيه من السيوف الحادة لبخار ورذاذ الماء الساخن، وسار مسرعاً يلوي جسده كبهلوان ماهر وهو يشق طريقه بين الأنابيب الساخنة الصدئة. تعلمت أن إجادة تلك الرقصة البلهوانية الأنيقة هي السبيل الوحيد لرجال الفحم كي ينجوا بحياتهم يومياً وفهمت أيضاً حرص الشركة أن يبقى الطاقم جائعاً وهزيلاً ولا يحصل على طعام نظيف أسوة ببقية السفن النظامية؛ إذ ما من رجل ضخم الجسد كان بقادر على أداء الحركات البهلوانية ورقصة الأفعى. شركة الملاحة ما كانت لتنفق لتجديد تلك الأنابيب لعلمها مسبقاً بالمصير الذي ينتظر اليوريكه. كل ما فعلته الشركة هو التصليح الرخيص المؤقت الذي يضمن عدم غرقها مبكراً فتثير بذلك الشكوك.

ـ «هكذا تصل يا أخي إلى غرفة الفرن» قال ستنايسلاف **«لا تتردد قط. فإن فعلت، انتهى أمرك ولن تكون الأول! فلو كنت رأيت في حياتك رجلاً مسلوخ الجلد فسوف تتعلم فوراً أن تكون ماهراً في سلك طريقك.»**

لم أفكر إطلاقاً بل اجتهدت بتقليد ما أراه وحسب.

- «لا تضجر من تعلّم هذه الحركات البهلوانية فهي نفيسة جداً وقد تنقذ حياتك يوماً.»

السلّم الثاني كان شبيهاً بالأول وبلا درابزين يقيك من سقوط محتمل قد يدق عنقك ومع ذلك كان الأمر ليهون كثيراً لو كانت الإضاءة كافية في المكان. كنت أتحسس موقع قدمي سلّمة سلّمة وصرت أشعر بحرارة الدرجات الحديدية أكثر وأكثر وأنا أقترب من النزول، وصار الهواء خانقاً للغاية. ثم رأيت رجلاً يغسل العرق والسخام جسده شبه العاري، كان ذلك هو رجل التسخين. حين لا يكون بني الإنس أو حتى الشياطين نفسها قادرة على المكوث في هذا الجحيم؛ فإن هذا الرجل ورفاقه قادرون ويجب عليهم أن يكونوا قادرين. هم رجال بلا أوطان ولا جنسية ولا جواز سفر يثبت أنهم ينتمون لبني البشر، أو حتى للأحياء على وجه الأرض التي منحها الله للانسان والطير والشجر. إنهم غير قادرين على إثبات وجودهم المجرد أمام القناصل ودوائر الهجرة. لا ياسيدي لا يمكن للشيطان أن يعيش هنا لأن للشياطين بعض الانسانية والتمدّن، إسألوا **فاوست** فقد خبر ذلك شخصياً. لكن الرجال الذين بدون أوراق يساقون للعمل بلا رحمة لدرجة ينسون معها كل ما يمكن نسيانه، بل ينسون أكثر من هذا، ينسون أنفسهم ويتخلون عن الروح.

هل لي الحق أصلاً بذّم الشركة التي تدير هذه السفينة والتي تمتهن طاقمها أيّما امتهان من أجل خفض نفقاتها ومصروفاتها إلى أقصى حد، لتحتفظ بقدرتها التنافسية في السوق؟ لا حق لي في الكره إذ لم يرغمني أحد على العمل في هذا الجحيم، أنا أخفقت في أن أكون سيد نفسي ومصيري، لماذا سمحت لهم بتعذيبي؟ أنا المسؤول لأني سمحت لهم بفعل هذا بي لأني كنت آمل أن أعود

إلى الحياة ثانية. نعم، الأمل: تلك النعمة والنقمة واللعنة وذلك الذنب الذي يتمسك به البشر حتى النهاية. أملي كان أن أعود إلى الحياة من جديد وأن أصل إلى نيوأورلينز لأرى حبيبتي فعلّها ما زالت في انتظاري. كلا لن أتخلى عن أملي ولن أرمي به إلى قاع البحر ومن أجل ذلك سيهون عليّ التهام كل هذه القذارة. لا تقلق أبداً أيها القيصر، سيكون لك في كل عصر مصارعون بل سيزيد عددهم عن حاجتك لكن أقواهم وأشجعهم سيكونون من نصيبك، إنهم يتوسلونك لتأذن لهم بالقتال حتى الموت من أجلك، وهم يلهجون باسمك ويهتفون بحياتك. المحتضرون يحييونك أيها القيصر. هل أنا سعيد؟ أنا أسعد رجل على وجه الأرض حظي بشرف القتال والموت من أجلك أنت أيها الإله الإمبراطور.

30

حتماً يمكنني العمل هنا فآخرون يعملون هنا أيضاً وهذا ما أراه بأم عينيّ، وما يقدر على فعله فرد يقدر على فعله آخرون. الغريزة البشرية للمحاكاة هي التي تصنع أبطالا وعبيدا أيضا. واذا لم يمت ذلك الرجل هنا بجلد السوط فلن أموت أنا كذلك. «**هيا إنظر إلى ذلك الرجل الذي يرمي بنفسه في أتون الحرب غير مبال، ياله من رجل شجاع**» طبعاً سأحذو حذوه، نعم هكذا تستمر الحرب وهكذا تواصل سفن الموت سيرها. الكل يعمل وفق وصفة بعينها وعلى الدوام. نموذج واحد فقط عند البشرية وفكرة واحدة، فهي لا تجهد دماغها باختراع أفكار ولا استنباط نماذج جديدة؛ فلا ضرورة لها طالما النموذج القديم مازال يعمل بنجاح ويشعر البشر فيه بالأمان لماذا عليهم إذن أن يخاطروا بسلك درب جديد غير مطروق! فليس أسهل على المرء من المشي على درب سالك مألوف. الدليل أن البشر، رغم ما أنجزوه من اختراعات علمية ومن انشطار الذرة، ما زالوا برابرة.

ـ «ماذا تفعل يا أنت؟ ما كان اسمك شليبه؟» خاطبني موقد الفرن في مناوبتي الذي بدا عكر المزاج.

ـ **«اسمي بيبه.»** يبدو أن اسمي خفف من تعكير مزاجه.

ـ **«آها، أنت فارسي إذن؟»**

ـ **«كلا، أنا حبشي. أمي كانت فارسية من أولئك القوم الذين يرمون بجثث موتاهم للعقبان تفترسها بدل من أن يدفنوها في الأرض.»**

ـ **«ونحن نرميهم للأسماك. من حديثك يبدو أن أمك كانت أمرأة محترمة، أما أمي فقد كانت عاهرة رخيصة! لكن إن ناديتني يوماً بابن القحبة فسوف أوسعك ضرباً. فلا تنس ذلك.»**

علمت من كلامه أنه إسباني.

موقد الفرن من المناوبة السابقة الذي كان أنهى عمله تواً، أخرج من النار مسماراً ملولباً حديدياً ساخناً ووضعه في دلو ماء صاف ليسخّنه ثم صار يغسل جسده بالماء والرماد بدلا من الصابون.

فانوسان قديمان لا تجد مثيلهما الا في المتاحف فقط كانا يضيئان بالكاد غرفة المراجل، أحدهما كان يتدلى قبالة المرجل قرب جهاز قياس ضغط البخار ليتمكن عامل الفرن من قراءته وتعييره. أما الفانوس الآخر، فكان معلقاً في ركن ينير الطريق أمام عامل جر عربة الفحم. العالم الذي تنتمي إليه اليوريكه لم يكن يعرف شيئاً يذكر عن المنجزات الحديثة في العالم، والشيء الوحيد الحديث على سطحها هي البذلة التي يرتديها القبطان. في عالم الموتى هذا لم يكن أحد يعلم بوجود مصابيح في العالم تعمل بالغاز ناهيك عن الكهرباء. أدوات الإنارة المستخدمة في غرفة المرجل وفي غرفة المكائن مازالت هي نفسها منذ أن كانت اليوريكه في صباها تبحر من صور قبالة السواحل الفينيقية القديمة.

ستانيسلاف المرهق حد الاعياء، والذي كان أدى اليوم مناوبتي عمل متتاليتين، وسأفهم لاحقاً معنى المناوبة المزدوجة، بقي معي في غرفة المرجل ساعة إضافية كاملة ليعينني في رفع الفحم وتلقيم الفرن. كان على عامل الفرن أن يوقد النار في أفران ثلاثة مراجل ويسهر على أن تبقى مشتعلة، مما يعني أن على عامل الفحم أن يجلب من المخزن الفحم الكافي لانجاز المهمة، وأيضاً كي يجد عمال المناوبة التالية الوقود الكافي لتلقيم الفرن فور بدء مناوبتهم. توفير الفحم للمناوبة التي تلي، هذا العمل الإضافي الشاق واللاإنساني كان يتم في الساعتين الواقعتين في منتصف المناوبة، في حالتي كان بين الساعة الواحدة والثالثة فجراً. كانت مهمة تتطلب صلابة وجلداً وقوة كي ينجز عامل واحد، عامل جائع يحتضر، عمل أربعة رجال أصحاء على سفينة محترمة، ومن لا تصمد رئتاه ينهار ويموت.

مرجلان إثنان كانا ليكفيان في العادة لتسيير السفينة، أما المرجل الثالث فكان للاحتياط والطوارئ لكن بسبب تسرّب أبخرة الماء الساخن من الأنابيب الصدئة كانت السفينة بحاجة إلى المرجل الاحتياطي على الدوام. رجل النار، عامل الفرن، كان يتنقل بين أفران المراجل عاري الصدر.

كنا جميعاً عراة الصدر لا نرتدي غير السراويل. عامل الفرن في مناوبتي كان ينتعل خفين مصنوعين من القماش، في حين كنت ألبس بسطالاً جلدياً متيناً يغطي الكاحلين. على اليوريكه فإن الحروق والجروح والندوب كانت جزءاً عادياً من العمل لا يستأهل الذكر أو التذمر. اليوريكه كانت نموذجاً مثالياً لسفن الموت.

جاءني ستانيسلاف وقال:

ـ «يا أخي، قواي خارت تماماً، لا يمكنني الاستمرار أكثر، أنا أشتغل منذ أكثر من ستة عشر ساعة، تخيّل ذلك وعند الخامسة عليّ أن أستيقظ وأبدأ مناوبتي في نقل الرماد معك. عظيم أن تكون معنا الآن إذ لم أعد قادراً على المضي بهذا

العمل. دعني أعترف لك بشيء كان علي أن أعترف لك به مبكراً، لكن الأخبار السيئة تعد مبكرة دوماً حتى لو جاءت متأخرة. اسمع يا صاحبي: عدد عمال جر الفحم إثنان على ظهر هذه السفينة بمن فيهم أنت. معنى هذا أن لكل منا مناوبتيْ عمل من ست ساعات يضاف إليها ساعة أخرى لرفع الرماد، مما يعني سبع ساعات للمناوبة الواحدة. و لجعل الأمر أكثر وضوحاً، عليك أن تعمل أربعة عشر ساعة يومياً عملاً شاقاً خلال كل أربعة وعشرين ساعة. غداً في انتظارنا عمل اضافي آخر إذ سيتوجب علينا التخلص من تلال الرماد المتجمعة منذ كانت السفينة راسية في الميناء. أنت تعلم حين ترسو السفينة في ميناء ما لا يجوز لنا رمي الرماد إلى البحر. إذن أمامنا أربع ساعات عمل إضافية في الغد.»

ـ «بالتأكيد أن ساعات العمل خارج المناوبة هي ساعات عمل إضافية، أليس كذلك؟» سألته.

ـ «نعم، إنها كذلك يا صاحبي» أجابني ستانيسلاف «يمكنك اعتبارها كذلك ويمكنك أن تكتبها على ورق وتحتفظ بها، لكن لا تنتظر قط من أحد أن يدفع لك أجرا في المقابل.»

ـ «لا بأس. لقد اتفقت على هذه المسألة حين تم تسجيلي للعمل هنا» هكذا أوضحت.

ـ «اسمع يا هذا، لا تكن أحمق، لا قيمة لأي اتفاق تفاهمت عليه إذ ما يحتسب هو الموجود في جيبك فعلاً، هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنك الاعتماد عليه طالما لم تمتد يد أحدهم إلى جيبك لتسرق ما فيه. ثم انس تماماً فكرة أنك ستستلم يوماً ما أجراً، هنا في الأقل ليس في حياتك الحالية هذه. كل ما ستحصل عليه هو دفعات، سلفة كمقدمة من أجرك، فقط ما يكفي كي تسكر وتحصل على عاهرة رخيصة تضاجعها وأحياناً قد يتبقى ما تشتري به قميصاً أو سروالاً يستر بالكاد جسدك. لو أنك بدوت بمنظر نظيف ومحترم وسرت في شوارع مدن الموانئ التي

نرسو بها لربما شعرت بأنك حي ترزق، هل تفهم اللعبة؟ بشكلك هذا لن تفلت، ستعود إلى اليوريكه لأنك لو فكرت بذلك فستكون بحاجة إلى مال، إلى زوج أحذية، إلى سروال يغطي ساقيك والى سترة وإلى أوراق. وحين لا تملك شيئاً من هذا فلست بحيّ يرزق. أما لو فكرت بالهرب بمظهرك الحالي فسيرسل القبطان من يلقي القبض عليك بحجة التهّرب من الخدمة، سيجدونك بسهولة، منظرك الرث سيرشدهم إليك سريعاً ثم سيعاقبك بخصم أجرك لشهرين أو ثلاثة. نعم إنه قادر على ذلك ويفعله. بعدها تبدأ تشحذ الملاليم، تتوسل لتحصل عليها من أجل كأس رخيصة. نعم ستكون دوماً بحاجة لتلك الكأس لتنسى، فالميت يظل يشعر بالألم و لو كان اعتاد الموت، صدّقني إنها أكذوبة أن الميت لا يقاسي. تصبح على خير. لا أظنني سأغتسل، فلست أقوى على رفع يديّ. إسمع، لا تدع قضباناً تفلت فذلك سيكلفنا دماً. عمت مساءً يا صاحبي.»

لم أستطع الإجابة، عافتني الكلمات وبدأ رأسي يدور ثم رأيته يسحب جسده المنهك ليصعد به السلالم شاهدته وهو يؤدي كما النائم رقصة الأفعى في الفسحة بين السلّم الأول والثاني، ولوهلة بدا وكأنه فقد توازنه وبات على وشك السقوط، لكنه فجأة واصل التسلّق وغاب عن ناظري في ظلمة الفتحة التي كنت ألمح من خلالها بعض النجوم التي تضيء عتمة السماء.

على حين غرّة صار عامل الفرن يصرخ ويولول كأنه ممسوس، وأعقب صراخه بسيل عارم من الشتائم واللعنات البذيئة صابّاً جام غضبه على سكان الدنيا والآخرة! كان في حالة هذيان مخيفة، وحين خاطبته قائلاً **«هيا يا صاحبي ماذا دهاك؟»** ضرب على صدره بكلتي يديه مثل غوريللا هائج وتدفق الدم بسرعة إلى عينيه، وصاح بصوت يشبه زئير حيوان برّي مجروح **«لتّحل لعنة الجحيم، لقد سقطت ستة قضبان.»**

31

آخر كلمات ستانيسلاف، قبل أن يغادر، كانت تحذيره من سقوط قضبان وكان يقصد واحداً فقط لأن ذلك قد يكلّفنا حياة ودماً، والآن سقطت ستة. إعادتها إلى مكانها لن يعني حروقاً وجروحاً وجلداً مسلوخاً ولحماً حياً متناثراً فحسب؛ بل إن حيامن الرجال ستنزف دماً وسيسيل نخاع عظامهم كحمم البراكين الثائرة وستتكسر مفاصلهم كأعواد الحطب الجافة. ونحن نواصل العمل بلا هوادة كعبيد السخرة، كان البخار الساخن يسلخنا من كل الجهات ويتغلغل إلى جثثنا المتفسخة بينما كنا نرفع القضبان الساخنة لنعيدها إلى مكانها. وبالإضافة إلى ذلك كان علينا المثابرة لنعيد رفع درجة الضغط في المراجل. منذ تلك الليلة وضعت نفسي في منزلة فوق الآلهة، وعرفت أنه لا يمكن للعنة أن تنال مني بعد الآن. لقد تحررت من كل الأعباء، صرت حراً طليقاً أفعل ما أشاء وأترك ما أشاء. سيحق لي بعد الليلة أن ألعن الآلهة وأنتقدها، فلم يعد بمقدورها أن تنزل بي عقاباً أو لعنة أكبر وألعن نفسي أيضاً وأن أقوم بما أريد، لم يعد لأي قانون بشري أو سماوي سلطة أو تأثيراً على أفكاري وأفعالي لأنني خبرت أقصى درجات اللعنة. الجحيم الآن هو النعيم. ومهما كان الجحيم مرعباً، فلايمكنه أن يبعث في نفسي الخوف بعد اليوم؛ فليس في الأرض أو السماء جحيماً أقسى من إعادة الأعمدة الفالتة الحامية إلى أماكنها على اليوريكه. لقد صرت حرّاً. نعم، الجحيم هو الخلاص في نهاية المطاف.

قدم القبطان لم تطأ يوماً غرفة التسخين، وكذا الحال بالنسبة للضابطين الأول والثاني؛ إذ ليس هناك من ينزل طوعاً إلى هذا الجحيم! بل الجميع يتجنبون مجرد المرور بجانبه ويتحاشون الاقتراب منه. المهندسون الذين هم عملياً عمال مكائن، لم يتجرؤا أيضاً إلى النزول إلى غرفة التسخين ولا يفعلوا ذلك إلا حين تكون اليوريكه راسية باسترخاء في الميناء وحين يكون عمال الفحم والتسخين،

العصبة السوداء، منشغلين بتنظيف المراجل وتشحيم المكائن وغيرها من الأعمال القذرة المملة. حتى في تلك الأوقات كان المهندسون يتصرفون بدبلوماسية وحذر مع أفراد المجموعة السوداء، لأن هؤلاء كانوا في حالة استنفار عصبي دائم وعلى استعداد لتهشيم رأس أي مهندس بالمطرقة إذا ما هو أساء التصرف نحوهم؛ فلا مخافة من سجن ولا من جَلاَّد، فما من قوة يمكنها أن تردع أسرى ذلك الجحيم من ارتكاب أي فعل عنيف! فالسجن أو الجَلاَّد قد لا يعني سوى الانعتاق من الجحيم الرهيب على اليوريكه.

المهندس الثاني، ذاك الذي ظننته في البداية نشّالاً وسارق خيول، والذي لم يكن ليتجاوز منتصف الثلاثينات، كان طموحاً للغاية ويأمل أن يترقى ليصبح يوماً ما المهندس الأول، أي رئيساً للمهندسين على اليوريكه! ولإثبات جدارته لم يسعفه ذكاؤه إلى سبيل أجدى من مطاردة رجال العصبة السوداء خاصة حينما تكون اليوريكه راسية في ميناء، عندها يكون الرجل كامل السيطرة على تلك المجموعة. شخصياً لم أر أية امكانية له ليرتقي إلى منصب المهندس الأول لأنه كان بطيء الادراك والاستيعاب. في الحقيقة لم يتعلم ذاك الرجل كيفية التعامل مع أفراد المجموعة السوداء، في الأقل ليس مع تلك العاملة على اليوريكه. قد يكون البعض من أفراد تلك المجموعة من المطلوبين للعدالة في مكان ما لارتكابهم جريمة قتل أو سرقة أو غيرها، لكن بغض النظر عن ماض كل منهم وعن الأسباب التي دعته للصعود للعمل على اليوريكه، ففي نهاية المطاف فإن أفراد المجموعة السوداء هم عمال. بل إن المئات من السفن المحترمة تحتاج لهم وسترحب بهم وتدفع لهم أجرهم نقداً ذهباً حقيقياً. وكم من قبطان أحبه أولئك العمال لأنه كان يسهر على راحتهم ويتفقد مطبخ السفينة ليتيقن بنفسه من جودة الطعام الذين يحصلون عليه، و يحرص على القول بأن السفينة البخارية إنما تسير بفضل جهود عامل التسخين وعمال الفحم. قبطان كهذا كان ليهرع إلى عامل

التسخين إذا ما صادفه على سطح السفينة ليسأله «**قل يا عامل النار، كيف كان الطعام اليوم، هل كان كافياً؟ حسناً، الليلة سأوصي بزيادة حصتك من اللحم المقدد والبيض. وبالمناسبة هل يواظب صبي الخدمة على النزول إلى الأسفل اليك بانتظام وتقديم الشاي المثلج الذي أمرت به لك؟ قل الحقيقة أرجوك لأني سأقطع آذانه إذا هو ما تقاعس في تنفيذ ما أمرته به.**» النتيجة ستكون بالتأكيد هائلة، وكان العامل ليشقى بسرور، فهو سيعطي مثلما يجني تماماً. ففي وجهه ترى وجوه الآخرين الذين جعلوا صورته بالهيئة التي تراها.

بعد أن انتهينا أخيراً من إعادة القضبان الستّة إلى إطارها، كان ضغط البخار آخذاً في الانخفاض مما حدا بالمهندس الثاني الذي كان في المناوبة أن يزحف عبر الممر الضيق والواطيء الواقع بين غرفة المكائن وغرفة المرجل، ليصل إلينا أو، على وجه الدقة، قد نهض في الطريق إلينا كي نتبين رأسه ليصرخ من هناك نحونا «**ماذا يحدث لضغط البخار بحق الجحيم. سيتوقف الدلو بأي لحظة وسنعلق بعرض البحر؟**» في تلك اللحظة كان رجل التسخين يمسك بيديه المحراك الحديدي لتأجيج وتقليب النار والذي كان ساخناً حد الأحمرار. كان الرجل على وشك أن يرفع بواسطته القضبان الحديدية الساقطة، لكنه حين رأى المهندس الثاني متوجهاً صوبنا ويطلق كلاماً غبياً، انطلق الدم إلى عينيه التي يتصبب فوقهما العرق وصار الزبد يتجمع على فمه وهو يطلق صيحات غضب ويتفوه بكلام غير مفهوم ثم استقام بوقفته ورمى بالمحراك بقوة هائلة كما يرمى الرمح صوب المهندس الثاني، كأنه يروم أن يخترق المحراك جسد الرجل لكن هذا سارع بالزوغان من طريق المحراك الذي كان سقط أرضاً قبل أن يصل هدفه بسبب ثقله. لاذ المهندس بالفرار عبر الممر عائداً إلى غرفة المكائن ولم يبلّغ عن الحادث.

انتهى عامل التسخين في مناوبتي من عمله تمام الساعة الرابعة فجراً، لكن مناوبتي لم تنته حتى السادسة، وقبل ذلك وفي الساعة الخامسة إلا ثلث ذهبت

لأوقظ ستانيسلاف، كي نعمل معاً لساعة زمن فلكية على رفع الرماد ثم يبدأ هو مناوبته. لم أستطع جره من مكانه، جسده المتعب كان ثقيلاً كالصخرة. ورغم أن ستانيسلاف كان خبر العمل على اليوريكه لفترة طويلة غير أنه لم يتمكن من التعّود عليه. الناس الذين لا يفقهون حقاً معنى العمل الشاق ولا شاغل لهم سوى اختراع قوانين للنيل من النقابات المجرمة وللتصدي للدعاية الشيوعية، أولئك حين يرون رجلاً يكّد بعمله فغالباً ما يقولون «**لقد اعتاد هؤلاء القوم هذا النوع من العمل ولا مشكلة لديهم معه قط.**» لكن ستانيسلاف، الشاب القويّ البنية، لم يستطع التعوّد على ذلك العمل وكذا كان الحال معي، ولم أر إنساناً واحداً إعتاد تحمّل العذاب. لا الانسان ولا الحيوان قادران على تعوّد احتمال العذاب أياً كان، جسدياً أو نفسياً، كل ما يحدث أنه يخمد وتتبلد أحاسيسه. أما أنا فلا أؤمن أن كائناً حياً يمكنه أن يخمد لدرجة لا يتطلع معها نحو الخلاص، أو انه لا يحمل في قلبه صرخة صماء خالدة تقول «**آمل أن يأتي محرّري ومخلّصي.**» ومن يستطيع أن يصنع ثروته من آمال العبيد هو الذي يحكم العالم؛ فآمال العبيد هي سلطة الأسياد.

ـ «**ماذا؟ الساعة أصبحت الخامسة؟**» سألني ستانيسلاف «**كلا غير ممكن، سأظل مستلقياً قليلاً**». كان مازال متسخاً ولم تكن عنده أية رغبة ليغتسل، فالرجل كان منهكاً حد الإعياء.

ـ «**هيا يا رجل.**» أجبته «**عليك أن تنهض الآن فلن أتمكن من القدوم اليك في الحادية عشرة لمساعدتك في رفع الرماد ثم لأبدأ مناوبتي بعدها بساعة واحدة فقط.**»

نهض ستانيسلاف وظل جالساً وحدّق بي وهو يغالب التعب والنوم وقال «**لا تفعل ذلك يا بيبه. لا تتركني. فليس بمقدوري أن أقوم بمناوبتك أيضاً، كم أود أن أضع في الفرن مرطبانين زجاجيين من مربى الخوخ لينفجر ولا يتبقى**

أثر لأي مخلوق على السفينة يمكن للشركة ان تدّعي فقدانه للحصول على مال التأمين و...» فكرتُ: مسكين أنت يا ستانيسلاف، مرطبان زجاجي من مربى الخوخ؟ كان ذلك الشقي مازال يحلم.

32

انتهت مناوبتي في السادسة صباحاً بعد أن اشتغلت لمدة ساعة مع ستانيسلاف في رفع الرماد، لكني لم أكن قادراً على تزويده بالفحم، فما عدت قادراً على رفع الرفش. لم أكن بحاجة إلى فرش ولا غطاء ولا وسادة ولا إلى صابون لأغتسل، ألقيت بجسدي بأوساخه وسخامه وعرقه وزيته وحروقه في سريري العاري ودون أن أخلع حتى بسطالي القذر. الآن بت أفهم لماذ لا يتم تزويدنا على اليوريكه بفرش أو أغطية أو صابون للاغتسال، لأننا لن نكون بحاجة لها. ولو رست اليوريكه ووقفت عند درازين السفينة أتفرج على المرفأ وما فيه جنباً إلى جنب مع زملائي البحّارة الذين ظننتهم يوماً نشالين ولصوصاً ومجرمين، لما أمكنك تمييزي عنهم؛ فقد أصبحت الآن واحداً منهم، جزءاً من اليوريكه وصار لزاماً عليّ أن أذهب معها حتى النهاية، لا مفر بعد اليوم من هذا المصير.

صاح أحدهم في أذني «**الفطور جاهز**»، ما شأني والطعام؟ فلن يزعزعني من منامي حتى فطور السفراء. هناك قول متداول «أنا متعب لدرجة لا أستطيع معها تحريك أصبع واحد في يدي»، في الحقيقة من يمكنه ترديد هذا القول لا يعرف معنى أن يكون الانسان متعباً فعلاً لأنني لم أكن قادراً حتى على تحريك جفن عين واحدة، بل إن جفنّي لاينغلقان كلياً من شدة تعبهما، وحتى ضوء النهار العكر الذي يسبب لهما الألم لم يكن ليجعلهما ينغلقان تماماً! فلم يعد بامكانهما الانغلاق تلقائياً بل ولم يعودا يستجيبا لرغبتي لفعل ذلك لأنني لم أكن

أملك القوة والإرداة، بل لم أقو حتى على مجرد الشعور برغبة في أن يغرب عني ضوء النهار.

في تلك اللحظة، حينما ساورني إحساس خامد يقول «**ما يعنيني ضوء النهار؟**»، رفعتني على حين غرة عقيفة رافعة إلى الأعلى ثم ترك سائق الرافعة يده عن عتلة الرفع فسقطت من علو ثلاثين متراً على الأرضية، وتجمع حولي جمع غفير من العمال الذي باتوا يصيحون «**قم إنها الساعة الحادية عشرة الا ثلث، هيا أخرج وإذهب لرفع الرماد**».

بعد الانتهاء من رفع الرماد مع ستانيسلاف لم يتبق الا حوالي عشر دقائق لأهرع إلى المطبخ وأجلب الغداء لرجال الفحم في الأسفل. ابتلعت بضعة من حبات الخوخ المنقوعة في الماء والنشا، كانت هي التحلية، ولم أستطع بعدها تناول أي شيء، الفكّان ما عادا قادرين على القيام بعملهما من شدة الإعياء. لم أغتسل. كنت أبدأ مناوبتي في الحادية عشر نهاراً بقذارتي حتى السادسة مساءً ثم لا أغتسل أيضاً، فلا رغبة أو قوة تتبقى لتناول طعام العشاء البارد والمتخشب فأرتمي على سريري جثة هامدة.

استمر الحال على هذا المنوال ثلاثة أيام وثلاث ليال ولم أشعر بأية أفكار سوى: من الحادية عشر حتى السادسة، من الحادية عشر حتى السادسة، من الحادية عشر حتى السادسة؛ فتلك الكلمات صارت هي وحدها إدراكي الواعي لذاتي وللعالم بأسره وذاب كياني فيها فأختفيت من الوجود! وبدلاً من الأنا صرت مجرد «من الحادية عشر وحتى السادسة». صرختان مدويتان تغلغلتا فيما كان يدعى اللحم والروح والدماغ والقلب وسببّتا لي ألماً مبرّحاً لا يطاق! ربما مثل ذاك الذي يشعر به من تتعرض تلافيف دماغه العارية إلى لمسة إبرة من الفولاذ. الصرخات كانت تأتي من البعد وتسقط عليّ مثل سيل من الصخور

فأرتعد من صرختي «انهض! الساعة الحادية عشر إلا ثلث»، و«من الحادية عشر حتى السادسة».

بعد أن أنقضت أربعة أيام وخمس ليال عدت أحس بالجوع فبدأت آكل وأعتاد الحال. ثم جاء اليوم لاستعيد بعضاً من وعيي وأفكاري عندما فقدت الصرختان تأثيرهما على عقلي.

كان يحدث أن تنقضي خمسة أسابيع دون أن تفلت أحد القضبان الحامية، ومع ذلك كان لا بد من استبدالها بانتظام قبل أن تكسرها النار. حسن الطالع كان يطول أحياناً وأنت تقوم باستبدال أحد القضبان التي قصمت النار وسطها فلا يتأثر بالعمل سوى قضيب واحد مجاور يسقط فيتحتم عليك إعادته إلى مكانه هو الآخر بصبر ومشقة ودم، لكن إلى جانب حسن الحظ كان هناك الابتلاء الحقيقي في أحيان أكثر حين تسقط ستة أو ثمان من القضبان مرة واحدة أثناء قيامك بعملية الاستبدال، وعليك أن تتصور حدوث ذلك بأكثر من فرن في ذات المناوبة.

صادفتنا عاصفة شديدة ونحن نقترب من الساحل الذهبي غربي افريقيا، تتوجت أثناء رفع الرماد؛ إذ كنت فصلت لتوي الدلو الثقيل لرفع الرماد من عقيفة الونش وحملته بذراعيّ ملامساً صدري رغم حرارته وأنا أسير به عبر الممر إلى سياج السفينة لأرمي بالرماد وبقايا الجمر إلى البحر. ما كنت أصل إلى هناك حتى صارت اليوريكه تتماوج وتترنح على الماء فتدحرجت بدوري وتطاير الرماد من الدلو، فصاح بي الضابط الأول من برج القيادة **«يا هذا، لا يهمني إذا سقطت في البحر، لكن إحذر أن تأخذ الدلو معك، فلن تكون بحاجة إليه في القاع.»** في الأجواء العاصفة والموج العالي فإنك تكون قد أنجزت عملاً جيداً لو استطعت رمي نصف كمية الرماد إلى الماء أما الباقي فيذهب عصف الرياح. وفي غرفة المرجل يكون الحال شبيه به على السطح، فلا يعود

رجل التسخين قادراً حتى على مجرد الوقوف ناهيك عن تلقيم الفرن، وسيظل يؤدي رقصة الترنح الصعبة على وقع العاصفة فيما حبّات الفحم تتدحرج تحت أقدامه والرقصات ذاتها يؤديها البحّارة في مهاجعهم إلى أن يهدأ الموج. يالها من حياة مرحة حيث تجوب البحار السبعة مئات من اليوريكه، مئات من سفن الموتى! فلكل أمة سفن موتاها، سفن تملكها شركات مرموقة لا تعرف الخجل طالما كانت الحرب من أجل الرفاهية والديمقراطية، تلك التي تصدر جوازات سفر وتضع قيوداً على حركة الهجرة والتي تكسر عزيمة عشرات الآلاف من الرجال الذين لا وطن لهم ولا يحملون هوية أو جواز سفر. النظام الرأسمالي الناجح لا يعرف الخسارة ولا يمكنه أن يسمح لأولئك الرجال بالتجوال بحرية حول العالم. لمذا تدفع شركات التأمين التعويضات؟ من أجل المتعة؟ لا بد لكل الأشياء أن تقود إلى الربح، عاجلاً ام آجلاً.

لماذا الجوازات؟ لماذ فرض تقييدات على السفر والهجرة؟ لماذا لا يسمح للبشر بالتجوال والسفر حيثما ووقتما شاؤوا بحرية؟ لأنه لا بد من فرض السيطرة عليهم وتقييد حركتهم، فهم لا يستطيعون الإفلات والطيران في العالم كما تفعل الحشرات بدون سؤال أو قيد وشرط، يجب إخضاع الناس وجلبهم للطاعة عبر تسجيل بصمات الأصابع وجواز السفر، لأي سبب؟ فقط لاستعراض هيبة الدولة وقداسة خدم الدولة من البيروقراطيين. البيروقراطية جاءت لتبقى وباتت هي الآمر الناهي و الحاكم بأمره والمتجبّر الذي يسوق الناس بالسوط كي يذعنوا وليجعل منهم أرقاماً في الدولة. نعم، بدأ الأمر بتسجيل طبع قدم الوليد، وسيأتي اليوم الذي يوسم فيه رقم الوليد بالحديد الحامي على ظهره كي يؤرشف بشكل متقن فلا يعود هناك مجالاً للخطأ بشأن جنسية تلك الحشرات. السور هو الذي صنع الصين الحالية، وكل الأسوار التي بنتها الأمم جميعها منذ حرب الديمقراطية سيكون لها نفس الشأن والوظيفة:

توسيع السوق وزيادة الأرباح هو الدين! بل قد يكون أقدم دين وعقيدة بفضل كهنته المدربين البارعين ودور عبادته فائقة الأناقة، نعم ياسيدي.

33

الناس المتعبون من العمل الشاق والمنهكون حد الإعياء لا يأبهون بما يجري حولهم؛ فقد يكون الفساد معششاً في الجوار واللصوصية والسرقة والإجرام والقتل والقرصنة تحدث بالجملة نصب أعينهم، لكن من يأبه؟ ما خصّهم بذلك؟ هم هكذا كما هم مخّدرون من التعب والذل أفضل رعية يمكن حكمها فهم لا ينتقدون ولا يجادلون قط ولا يقرؤون الصحف ويشعرون بأن كل شيء في العالم على ما يرام ولا يمكنه أن يكون أفضل حالاً. هم قانعون ويمجدّون الحاكم كلما أمر بصرف مكرمة بائسة لهم بين الحين والآخر. هم نائمون ولا يرومون سوى مواصلة النوم والنوم والنوم، فلا شيء سواه يحظى باهتمامهم، وسيتوقفون عن التفكير بالهرب أو المقاومة، وهذا هو السبب الذي جعلني أحتاج إلى وقت طويل على اليوريكه قبل أن أفقه ولو شيئاً قليلاً عن ماهية اليوريكه وكيف كانت تقوم بدورها.

كنت أتكيء على درابزين السفينة وأكاد أنام واقفاً حين لاحظت عدداً كبيراً من الفلوكات ذات أشرعة غريبة تحوم حول اليوريكه. لم يبدُ الأمر غريباً حقاً، فقد أعتدت رؤية قوارب شبيهة للصيادين والمهرّبين من شتى الأصناف ممن لا تخطر تجارة بعضهم على بال، يتجمعون في بعض المرافيء! لكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً. على حين غرّة ساورني شعور غامض طرد عني النعاس والتعب مرده هدوء تام غير معهود، إذ وقفت المحرّكات عن العمل في حين اعتدت سماع ضجيجها ليلاً ونهاراً ودورانها الذي يرجرج السفينة يميناً وشمالاً

وتجعل منها كائناً حياً صاخباً صخباً يزحف إلى لحمك وعظامك وتلافيف دماغك، ويتعلم الجسد الانغماس في تلك الضوضاء ويتحرك على ايقاعها دون تفكير! والآن، وعلى حين غرة، تتوقف المحركات ويعمّ هذا الهدوء الذي تشعر معه بألم فجائي يغزو عقلك وبدنك ويدفعك إلى فراغ مفزع تفقد فيه توازنك وكأن أرضية السفينة قد نزعت وأنت تسقط إلى عمق البحر. توقفت اليوريكه بحملها الخفيف بنعومة على الماء ثم ألقت مراسيها فسمعت جلجلة السلاسل وهي تزخف على أرضية السفينة. في تلك اللحظة جاء ستانيسلاف حاملاً إناء القهوة.

ـ «اسمع يا صاحبي» قال بصوت خفيض كأنه يهمس بأذني «علينا الآن أن ننزل إلى الأسفل ونرفع معدل البخار إلى 195 درجة، اللعنة.»

ـ «هل جننت يا لافسكي؟ أجبته متعجباً «لماذا علينا ذلك، السفينة ستطير بلا توقف إلى الشعرى اليمانية، أسطع نجم في السماء، قبل أن تصل درجة البخار إلى 180 درجة.»

ـ «بالضبط. ولذلك تراني أتسكع هنا في الأعلى كلما سنحت الفرصة.» أجابني الرجل وهو يرمقني بنظرة تدعوني كي أفهم «فحين يغرق الدلو هنا فهناك في الأقل فرصة كي تهرب سابحاً وتنقذ حياتك. أما في الأسفل فلا فرصة لك للنجاة، ستكون في المصيدة ويصبح المكان قبرك الأبدي. عليك أن تكون ذكياً يا صاحبي، فأنا حين رأيت كل هذه المراكب تحوم حولنا علمت أن الساعة حانت كي يقبض القبطان الثمن. لذلك اشتغلت كالشيطان في الأسفل في تهيئة كمية كافية من الوقود الاحتياطي كي أحظى بفرصتي لأكون على السطح أطول وقت ممكن، ثم أخبرت رجل الفرن في مناوبتي بأنني مريض بالغثيان ولابد من الخروج من القبو لإفراغ ما بجوفي كل أربع دقائق تقريباً. وإذا ما تنبّه لحقيقة ما يجري الإعداد له لترك هو الآخر مكانه في الأسفل. لذا كن حذراً وابحث

لنفسك عن عذر معقول لتبقى في الأعلى.»

ـ «اللعنة، ماذا يحدث بالضبط؟»

ـ «يالك من غبي، سذاجتك تقتلني. القبطان سيقبض الثمن. ياالهي لم أر في حياتي أحمق مثلك، قل لي ما هي برأيك حقيقة هذه السفينة، هه؟ يالغبائك يا رجل.»

ـ «أعلم جيداً أني أسافر على متن حافلة للموتى.»

أجبته محاولاً الدفاع عن ذكائي.

ـ «في القليل أنت مدرك لهذا الحقيقة..» أجابني «لكن لاتظنهم سيغرقون اليوريكه دون ضجة وموسيقى جنائزية، موت اليوريكه ومراسيم دفنها تم الإعلان عنه وشهادة وفاتها جاهزة لدى الشركة وكل ما عليهم الآن هو كتابة تاريخ الوفاة بالضبط. لذلك ترى أن الكل يتصرف على هواه. فهم يعرفون أن الساعة دنت فالحال لا يمكنه أن يكون أسوأ من هذا. اليوريكه تخاطر بكل شيء فهي حائرة وتعلم أنها ستغرق قبل وصولها الميناء تجنباً للتحريات لتقبض الشركة مال البوليصة، المسألة مضمونة فلا أدلة ضدها. أنظر إلى الأعلى، ماذا ترى؟ نعم يا سيدي انك ترى القبطان بنفسه يراقب الأفق بمنظاره تحسباً لأي طارئ قد يفسد خطته. عندها يا صاحبي سترى كيف يمكن لهذه السفينة العجوز الركض حين تكون مضطرة للهرب بأسيادها. سأنزل إلى الأسفل أشتغل قليلاً ثم أعود.»

أعطى القبطان أوامره لميكانيكيي المحركات ليحرص هذا على تكميم فم اليوريكه فلا تصدر ضجيجا عالياً حين يرتفع الضغط البخاري لمراجلها، وليحول أيضاً دون لجوئها إلى صمامات الأمان للتخفيف من هذا الضغط الذي يهدد وجودها. بدأت المراكب تقترب أكثر فأكثر من اليوريكه فيما تقدّم

المجموعة مركبان، ثم فجأة أخذ رجال المراكب الذين كانوا أشبه بصيادين مغاربة، يتسلقون اليوريكه بخفة وسكون كالقطط، ثم صاروا يتحركون على السطح بحرية كأن السفينة ملكاً لهم. تقدم ثلاثة رجال من الذين بدا عليهم الذكاء والمنظر المتميز، رغم الشبه الذي يربطهم بالصيادين العاديين، إلى الضابط الثاني وأدوا له التحية وهو قادهم بدوره إلى مقصورة القبطان. وبعد وهلة خرج الضابط الثاني من المقصورة وأمر الصيادين بنقل الحمولة. في تلك الأثناء كان الضابط الأول في برج القيادة ينظر بين الآونة والأخرى نحو قمة السارية حيث أحد الرجال قابع في سلّة معلقة يراقب فيسأله «**هل كل شيء على ما يرام؟ هل تلوح عاصفة خبيثة في الأفق؟**» فيجيب الرجل من موقع المراقبة قائلاً بأن كل شيء على أحسن ما يكون.

كالسحر ظهرت صناديق من المخازن، وكالسحر أيضاً اختفت في الفلوكات الراسية عند السفينة. نقلها الصيادون بنظام كما يفعل النمل. وكل فلوكة كانت تأخذ نصيباً معيناً من الحمولة تغطيها بالأسماك ثم تنطلق مسرعة بلمح البصر ليتكرر الأمر نفسه بسرعة مذهلة مع الفلوكة الثانية والثالثة، إلخ. كل مركب أخذ وجهة مختلفة. وحين تم تحميل آخر فلوكة كانت الأولى قد اختفت عن مجال الرؤية وغابت في الأفق أو حجبتها ستائر الضباب. العملية بمجملها تمت بسرعة يكاد يستحيل معها لخفر السواحل أو غيره، لو اكتشف الأمر، مطاردة أكثر من فلوكة واحدة أو اثنتين، ناهيك عن الإمساك بأيّ منها. أثناء نقل الحمولة إلى المراكب كان الضابط الثاني يشرف على العملية ماسكاً بقلم ولوح ويقوم بإحصاء الصناديق وتسجيل عددها بالتنسيق مع أحد رجال المراكب الذي بدا أنه القائد. كل الأرقام كانت تقال للتأكيد بصوت واضح وجهوري وبالانكليزية. فلوكة واحدة انتظرت حتى النهاية وانطلقت دون حمولة سوى السمك الطازج. ظهر الرجال الثلاثة الذين كان في مقصورة القبطان وكانوا

يضحكون بمرح معه ثم أدوا التحية وطلبوا الإذن بالمغادرة، فتسلقوا نازلين نحو فلوكة كانت راسية عند حافة السفينة فرفعوا شراعها وغادروا. سمعت المرساة وهي ترفع ورأيت سلّم النزول يجر نحو الداخل، وما هي الا دقائق حتى صارت اليوريكه تسرع الخطى كأن جحيم الأديان كلها تطاردها. عاد القبطان إلى مقصورته وبعد مرور ربع ساعة تقريباً عاد الرجل إلى السطح وصاح نحو برج القيادة:

ـ «**أين تقف؟**»

ـ «**بعيداً عن الساحل بستة أميال سيدي**» أجابه الضابط الأول.

ـ «**عظيم، نحن إذن في أمان، هه أيها الضابط؟**»

ـ «**نعم ياسيدي.**»

ـ «**دع البرج لمساعدك وتعال إلى مقصورتي لنتناول الفطور.**»

قالها القبطان مبتسماً مسروراً.

هكذا انتهى الفصل الأخير من تلك المسرحية الكوميدية الغريبة.

لم يكن القبطان شخصاً بخيلاً فشعاره كان: كُلْ وَدَعْ الآخرين يأكلون. حصلنا جميعاً على طعام خاص لما بعد العاصفة؛ مقانق مقلية ولحم مقدد وبطاطا. وبدلاً من القهوة امتلأت أكوابنا بالرم وحصل كل منا على إكرامية نقدية من عشرة بيسو استلمناها في نفس اليوم. لم نكن بحاجة إلى تفسير أو شرح، فكلنا كان يعرف أن الحصول على وجبة الطعام الخصوصة تلك مع شراب الرم ثم الاكرامية النقدية ليس سوى رشوة كي نصمت ولا ننبس ببنت شفة حول ما رأيناه. طبعاً كان طعام الفطور المخصص للقبطان وضابطه الأول غنياً وأغنى جزء منه هو ذلك غير المخصص للبطن وانما لمحفظة النقود. على أية

حال نحن لم نشتك أو نتذمر، إذ كنا مستعدين للسفر مباشرة إلى الجحيم مع هذا القبطان إذا هو ما أراد ذلك، ولن تفلح قوة في استخراج كلمة من أفواهنا ضده أو عما شهدناه هنا. أي نعم قد شهدنا ورأينا شيئاً:

بسبب ارتفاع حرارتها تعطلت المحرّكات وتوقفت السفينة حتى إتمام إصلاح العطل. وفيما كنا متوقفين أثناء التصليح مرت بنا العديد من الفلوكات المحمّلة بالفواكه أو السمك الطازج أو الخضروات تعرض بضاعتها علينا للبيع. الطباخ اشترى سمكاً وخضروات، واشترى الضابطان الأول والثاني موزاً وعدداً من ثمار الأناناس وبرتقالاً. هل هذا ما جرى حقا؟ أقسم على ما أقول؟ طبعاً أقسم بأغلظ الايمان لأنها الحقيقة وليس سواها وليكن الله شهيداً على ما أقول. نعم يا سيدي.

أنت لا تفترض حقاً أن يتخلى بحّار محترم عن قبطانه أو يخونه؟ كلا يا سيدي، بالتأكيد وقطعاً لا. فإذا كان للقراصنة اللصوص شرفهم فما بالك بالبحّارة، سيما إذا كان قبطانهم يعاملهم معاملة الشرفاء.

34

في اللحظة التي يتوقف فيها الإجهاد والتعب يبدأ الانسان بحشر أنفه فيما لايعنيه، فتنشط مخيلته وتتدفق أفكاره. وإذا راق له الحال واستمرأ التفكير العميق فإنه سرعان ما يصل إلى المحظور، إلى أس الدولة ومؤسساتها المقدسة ودستورها. لذلك أيها البحار خذها نصيحة خالصة لله: إبق في مكانك أينما كنت على السفينة، عامل طلاء أو ساهراً على دفة السفينة، إن أردت أن تظل بحّاراً نظيفاً شريفاً فلا تكن مشاكساً وتشغل نفسك بما يجري في العالم حولك ولا بمن يديره.

ابتعدْ عن المشاكل واجعلْ الجميع يحبونك فتنجو.

أعطى المهندس الأول أمراً بفتح مستودع للفحم ويقع خلف غرفة المرجل وتفريغه، قائلا أنه بحاجة إليه للخزن، فصار علينا أن ننقل الفحم منه إلى غرفة المرجل فأصبح المزيد من الوقود في متناولنا عند الأفران سيما وأن اليوريكه كانت ستتمون بالفحم في الميناء القادم. ذاك السرور بعدم الحاجة إلى نقل الفحم لم يدم سوى ثلاثة أيام وثلاث ليال كانت خلالها المناوبات بمثابة عطلة مدفوعة الأجر لقلة العمل، ما عدا رفع الرماد وإعادة أحد القضبان الحامية الساقطة إلى مكانها. أيام لا تنسى. كنا نبعد عن الميناء قرابة الميل ونصف الميل وحصلنا على حمولتنا بواسطة قوارب، لكني لحظت أن حمولة أحد القوارب لم تكن من الفحم فقط. حتماً كنا على مقربة من السواحل البرتغالية لأن الرجال الذين نقلوا البضاعة إلى السفينة كانوا يتحدثون اللغة البرتغالية، أما الصناديق فلم تختلف كثيراً عن تلك التي تم إنزالها من سفينتنا قبل فترة. من أحد القوارب صعد إلينا رجلان يرتديان ملابس الصيادين وتوجها مباشرة إلى مقصورة القبطان. في تلك الأثناء كان رجال القوارب ينقلون إلى السفينة صناديق كثيرة ويضعونها تحت أكوام الفحم ثم بعد برهة اقتربت قوارب أصغر وقام طاقمها بإخراج حمولة أخرى كانت مخبأة تحت الاسماك والخضروات ونقلها إلى السفينة. الحمولة كانت كثيرة ومتنوعة. بعضها محفوظ في علب وصناديق، والآخر في براميل، وقسم آخر على شكل بالات. عملية التحميل تمت في البحر بعيداً نسبياً عن الساحل ومن جهة السفينة المقابلة للماء بحيث لا يمكن لمن في الميناء رصدها. نزل الرجلان إلى قاربهما ورفعت اليوريكه مرساتها وهدر صوت المحركات من جديد.

هذه المرة لم يكن هناك طعام خاص، طعام ما بعد العاصفة، كل ما حصلنا عليه كان البسكويت بالزبيب، إذ لم يكن هناك بعد من سبب لرشوتنا كي نحلف بأنها الحقيقة.

ـ «ولماذا تظن أنه عليك أن تحلف؟» قال ستانيسلاف «لنفترض أن أحداً صعد إلى السفينة وقام بالتفتيش وفتح المخزن فماذا سيجد؟ طبعاً صناديق وعلب وبراميل، لا يمكن نكران وجودها ولايمكنك أن تقسم بأنها لم تكن موجودة. لكن سيكون لزاماً على القبطان وحده أن يقسم ويصدق القول بشأن محتويات تلك الصناديق والبراميل والغرض منها، لذلك فلا شأن لك بهذا يا بيبه فلا تقلق على القبطان فهو أدرى بشؤونه ومصلحته، أراهن على ذلك بحياتك الحلوة وبصديقتي السوداء هدية مجانية مني لك.»

نعم، لقد حظينا ببعض مناوبات عمل مريحة بفضل وجود الوقود إلى جوارنا، فلا تحميل العربات بالفحم ولا سحبها إلى غرفة المرجل لذا لم نجهد أنفسنا خلالها سوى برفع الرماد كلما تكّون ثم التخلص منه برميه إلى البحر. ثم بين الفينة والأخرى تحريك النار كي تبقى مشتعلة. أثناء واحدة من تلك المناوبات المباركة والعمل قليل، رحت اتجّول في المكان علّني أجد شيئاً أنتفع به. فأحياناً يحدث أن تجد حبة برتقال أو بعض الجوز أو التبغ الذي يفلت أحياناً من صناديق الحمولة فيجمعها البحّارة ويبيعونها لأصحاب البارات في أول ميناء ترسو فيه السفينة. في بعض الأوقات كان على المرء أن يفتح خلسة صندوقاً أو أكثر ليأخذ لنفسه قميصاً أو سروالاً أو لوحاً من الصابون أو زوج أحذية. ففي نهاية المطاف على المرء ان يتدبر أمر معيشته بطريقة من الطرق، أما المواعظ الأخلاقية فليست وظيفتها تنظيم علاقة السماء بالبشر وإنما لمساعدة الأغنياء على الأرض للاحتفاظ بما يملكونه أصلاً مما يفيض عن حاجتهم، وليراكموا المزيد. المواعظ الأخلاقية هي الزبدة لمن لا خبز لهم.

الشيء المهم هو إغلاق الصندوق جيداً بعد التحقق من محتواه كما أنه ليس من الحكمة أن ترتدي القميص أو السروال الذي عثرت عليه فإن ذلك قد

يخلّف انطباعاً سيئاً عنك عند الآخرين وقد تصبح قدوة سيئة لمن هم أصغر منك الذين سيسارعون إلى محاكاتك، وهذا ذنب حقيقي. الأفضل هو الامتناع عن الاستخدام الشخصي للحاجة التي تجدها أو تطالها يدك، بل عليك أن تنتظر لتبيعها في الميناء القادم حيث تجد الكثير من المواطنين الصالحين المستعدين لشراء ما يعرضه البحّارة بثمن بخس. إذ يدرك أولئك أن البحّار لا يدفع الضرائب ولا ترهقه فواتير الكهرباء والتلفون والإيجار لذا فهو يبيع السلعة بثمن أرخص بكثير من سعر السوق. فإذا احتجت يوماً إلى سلعة جيدة وزهيدة الثمن فاذهب إليه أولاً واذا فشلت ولم يحالفك الحظ فيمكنك آنذاك الذهاب إلى اليهودي. طبعاً لا يمكن القول أن لا نفقات قط ترهق البحّار؛ فالتسلل بين الصناديق والبالات ليس بالأمر السهل دوماً ويتطلب مهارة الأفعى. وأنا تعلمت رقصة الأفعى وأتقنتها لأني أمارسها عدة مرات في اليوم. لكنك لو أخطأت بأداء مجرد خطوة واحدة من هذه الرقصة فسوف تشعر بها فوراً بهيئة حروق وجروح في لحمك الحي. قل لي إذن كيف يحصل الإنسان على تمرين أفضل لهذه الرقصة؟ والاقتراب من الصناديق والبحث بذكاء عن السلع المناسبة للبيع هو عمل لا يخلو من الصعوبة في أغلب الأوقات. فالحصول على المال، بغض النظر عن الطريقة والمكان، ليس بالأمر الهين بتاتاً، فهاهنا يسقط صندوق على رأسك أو يتدحرج برميل نحوك فيسحقك ويسلخ جلدك في طريقه وأنت في العتمة وقد تكون حذراً كفاية فتشعل عود ثقاب لدقيقة تتبين فيها موضع قدمك لكن هب أن الضابط الأول في برج المراقبة لمح الضوء الصغير؟ في تلك الحالة لن تكون العاقبة لصالحك. لذا اترك عود الثقاب واعتمد على قدرة يديك وحدسك الجيد.

نادراً ما كانت اليوريكه تنقل بضاعة ذات قيمة حقيقية لأنها ليست أهلاً لذلك، ومع ذلك فإن لتحميل الصناديق من وإلى السفينة بهذه الوتيرة قض مضجعي. لقد تفحصت قوارب النجاة فلم أجد بينها ما هو صالح للاستخدام

سوى واحد وهو القارب الذي كان معداً كي يركبه القبطان مع الضابطين الأول والثاني واثنين من قدامى البحارة، أما الباقي فكانت قوارب بائسة للعرض فقط! وفكرت أنه طالما بقي قارب القبطان غير مجهّز بالمؤن والماء سأكون مقتنعاً أن اليوريكه ماتزال تحمل شيئاً ثميناً جداً يحول دون إرسالها إلى قاع البحر بهذه السرعة. وفي إحدى الليالي الهادئة خرجت أتقصى الوضع مجدداً فعثرت على براميل صغيرة الحجم قرأت على ورق ملصق عليها، في ضوء عود الثقاب: مربى الخوخ الخالص من الثمار والسكر فقط، بضاعة أصلية لا تحتوي على مكوّنات بديلة رخيصة بسبب الحرب، خالي من المواد الإضافية والأصباغ الصناعية، إنتاج أقدم وأول مصنع المربى، شركة مساهمة، في اوبرندورف/ على نهر النيكار،جنوبي غربي ألمانيا.

يا لنا من حمير حمقى، فكرت مع نفسي، نحن نأكل خبزنا ممسوحاً بزبدة نباتية رخيصة تشبه الصابون الرديء كي نتمكن من بلعها، وها هنا علب من المربى الألماني من منطقة شفابن، الممتاز المعد للتصدير. «يا ستانيسلاف، ظننتك فتى ذكياً جداً لكن تبينّ أنك أكبر مغّفل على الأرض.»، هذا ما جال ببالي فوراً لأنه طالما تبجح بذكائه ومعرفته لكل ما يجري حوله. سيكون الإفطار في الصباح كالعيد مع هذا المربّى الكثيف اللذيذ والخبز الحار. حملت علبتين ونقلتها إلى المخزن العلوي للفحم حيث يمكنني استخدام مصباحي دون أن يتنبه الضابط من برج المراقبة للضوء، حيث لا يمكن لأحد الدخول إلى هنا لأني، زيادة في الحيطة، سحبت معي اللوح الذي يجسر بين طرفي الهوة المؤدية إلى فتحة المخزن رغم أن لا أحد يجرؤ على استخدام اللوح لأنه كان قديماً وغير متين ويمكنه أن ينكسر تحت ثقلك في أية لحظة لكننا، أنا وستنايسلاف، اعتدنا على عبوره بخّفة وكأننا نطير فوقه. الآن أصبحت مستعداً لفتح العلبة والاستمتاع بالمربّى.

البرميل الصغير بات مفتوحاً الآن. لا بد لي أن أعترف بأني كنت في حالة

صدمة لأن ما وجدته كان فعلاً مربى الخوخ وأنا في سرّي كنت أتوقع شيئاً آخر. لقد ظلمت اليوريكه، تلك الأنثى المسكينة لم تكن تحمل سوى بضاعة عادية. لا يا سيدي لا يجوز التسرّع في إطلاق الأحكام والشكوك، لكن ما هذا الطعم الغريب؟ طعم المربّى كان مثل.. امهلني لحظة كي أكون دقيقاً في وصفي، كان هناك طعم النحاس الأخضر فيه، اللعنة. هل وضعوا فيها بعض القطع النقدية الصغيرة كي يحافظوا على لون المربّى كما كانت أمي تفعل وهي تحفظ الطعام في الزجاجات ليدوم حتى فصل الشتاء؟ كانت تسقط سنتاً في الزجاجة. عادة قديمة أظنها من أيام الفايكنغ الذين دأبوا على وضع مسامير مصنوعة من النحاس القديم والفائضة عن الحاجة عند بناء قواربهم، يضعونها في معلّبات الطعام المحفوظ. لكن يافطة برميل المربّى كاذبة إذ تقول أن لا مواد إضافية ولا أصباغ صناعية في المحتويات. لا يمكنني تناول هذا المرّبى، لا يمكنني دهن خبز فطوري به، مستحيل! بل إني أفضلّ عليه طعم صابون الغسيل. لا يمكن التخلص من هذا الطعم بعد أن صار على اللسان والتصق باللثة. حتماً إن المغاربة يحبون هذا المذاق! فذائقتهم غريبة والكثير من طعامهم، كما أعلم، يحتوي على الكثير من المكوّنات العجيبة. لكن ربما هذا هو طعم الطبقة العليا فقط، إذن تمهّل أيها الفتى ودع إصبعك يغوص عميقا في المربّى، أوه ما هذا يا صباح الخير، يبدو أن الألمان كانون مستعجلين في تصنيع محتويات هذه البراميل؛ فقد تركوا الثمر مع النواة فيها، كانوا مستعجلين فطبخوا الثمرة دون أن ينزعوا منها النواة، يالهم من قوم هؤلاء الألمان لابد أنه مازال بينهم بعض البرابرة ممن يعيشون في الغابة السوداء[5] دعني التقط واحدة من هذه الحصى وألقي نظرة قريبة عليها،

5- **الغابة السوداء** بالألمانية: (Schwarzwald) عبارة عن منطقة غابات جبلية في جنوب غرب ألمانيا، تقع في ولاية بادن فورتمبيرغ. سميت بالسوداء نظراً لغاباتها المهيبة المتشحة بالسواد وخاصة في الليل بسبب كثافة أشجارها الصنوبرية المخضرة طوال السنة.

يا لشكلها الغريب، لا عجب أن طعمها غريب فهي مصنوعة من الرصاص ومغلفة بالنيكل ليحافظ على الرصاص وموضوعة داخل غلاف نحاسي. أها! من هنا جاء طعم النحاس، وماذا يوجد داخل الغلاف النحاسي؟ الآن دعني أكتشف الأمر، حتماً ذاك سكرّ نقي، سكّر ألماني من منطقة شفابن البافارية، حتماً إنه كذلك. أوراق سوداء صغيرة لمّاعة، يا له من سكّر ذاك القادم من أوبرندورف الواقعة على نهر النيكار. لا بد انه ذلك النوع من السكر النقي ونوى الخوخ الذي يفضّله المغاربة والذي من أجل الحصول عليه يبيعون الخيل والتمر والتين. يفعل المغاربة ذلك للحصول على مربّى إجاص شفابن الأصلي، فهم يحبّون طعمه المتميز. أيتها اليوريكه، لقد فزت باحترامي ثانية، كنت أخشى أنك تخدعينني وكان هذا ليكسر فؤادي فأنا لا أحب الأنثى المخادعة التي تخونني! ولكي أتأكد من حقيقة اليوريكه زحفت من جديد إلى المخزن لأرى ما في الصناديق والبراميل الأخرى. يافطة تقول «مصائد فئران»، ما شأن المغاربة بالفئران المسكينة ليشتروا لها كل هذه المصائد؟ في الصناديق كانت مسدسات ماوزر[6] الألمانية. لاصقات الصناديق الأخرى تقول: ألعاب للأطفال، سيارات من الصفيح ذاتية السير! وحين قرأت اللاصق الذي يقول إن بلد المنشأ هو مدينة زول في مقاطعة تورينغن الألمانية لم أفتح الصناديق لأن زول مشهورة بصنع السلاح والعتاد وحيث سكان المقاطعة يعيشون من العمل في مصانع انتاج أسلحة الصيد والأعتدة. كان أولى بي أن أجنّب نفسي مشقة فتح البرميل الصغير لمربّى الخوخ لو كنت أعلم يومها ما علمته بعد سنين، أنه لا يوجد في أوبرندورف على نهر النيكار أي مصنع للمربّى؛ بل فيها أكبر مصانع العتاد والبنادق في ألمانيا.

6- ماوزر شركة ألمانية لتصنيع الأسلحة من البنادق والمسدسات. تأسست عام 1870 على يد باول ماوزر وفيلهلم ماوزر. صناعات الشركة في البداية استخدمت لتسليح الجيش الألماني، لكن لاحقاً صدرت لعدد من الدول في نهاية القرن التاسع عشر.

نعم يا سيدي. فمعرفة شيء عن الجغرافيا هي دوماً مهمة ومفيدة جداً. فحينها لن يتسنى للمصقات الصناديق أن تهزأ منك ومن جهلك. فعلى ملصقات الصناديق يمكنك أن تكتب ما شئت على الورق، وإلا كيف يمكن لمصنع عتيد لإنتاج السلاح والعتاد أن يتحول بين ليلة وضحاها إلى معمل لصنع وتعبئة المربّى. ألمانيا لم تكن وحدها تفعل ذلك، بل كان هناك آخرون يلعبون ذات اللعبة، انكلترا وبلجيكا.

هيه أيها القبطان، يمكنك الاعتماد عليَّ في تجارتك، أنت تربح وأنا راض.

35

ـ «قل لي يا ستانيسلاف، ألاْ تشعر بالخجل من نفسك وأنت تبتلع هذه الزبدة النباتية الرخيصة ابتلاعاً؟ لست أفهك على الإطلاق يا صاحبي.»

ـ «وماذا تريد مني يا بيبه» أجابني ستنايسلاف «فقبل كل شيء أنا جائع يا رجل وأريد أن أدهن خبزي بشيء يجعله قابلاً للأكل. فهل تريدني أن أطبخ ملابسي الرثة وأصنع من مائها القذر مربّى آكله مع الخبز؟ يا صاحبي، إذا واصلت أكل الخبز الجاف فسيتكون في معدتـك أسـاساً من الإسمنت.»

ـ «أنت غبي، هل تعرف أننا ننقل المربى؟» أجبته.

ـ «طبعاً أعرف ذلك» أجاب بهدوء وهو مستمر في مضغ الخبز.

ـ «ولماذا لا تفتح علبة منه؟»

ـ «لأنه غير مخصص لنا.»

ـ «ولماذا لا؟» سألت ببراءة.

ـ «إنه مناسب فقط للمغاربة والجزائريين والإسبان والفرنسيين، وبالطبع

يناسب جداً صانعيه، يناسبهم بشكل خاص. أما لنا، لي ولك، فلسنا ضمن الحسبة لأنك لن تكون قادراً على هضمها! فالفرنسيون يصابون منه بعسر الهضم، لنقل حين يطلق عليهم وينفذ إلى أبدانهم.» لم أفهم تماماً ماقاله لذا سألته:

ـ «أيعني أنك تعرف مابداخلها، فهل ..؟»

ـ «ألقيت نظرة عليها؟ هل تظنني حماراً مثلاً؟. كان السادة البرتغاليون الثلاثة مازالوا مع القبطان في مقصورته حين أغلقت فتحة المخزن حتى لا يدخلها أحد. في تلك اللحظة رأيت العلبة ولم أكن بحاجة لأكثر من قراءة أنها تحوي مربّى أو سرديناً بالزيت أو زبدة دنماركية أو شكولاطة كي أعرف الحقيقة.»

ـ «لكن في البراميل فعلاً مربّى الخوخ» قاطعته مؤكداً.

ـ «هناك دوماً شيء ما بداخلها ولكنك لا تستطيع أكله لأنك ستموت مسموماً لو فعلت. في آخر رحلة قبل التحاقك بالعمل على السفينة كانت هناك حمولة من علب اللحم البقري المفروم، كانت حمولة حقيقية ومن أفضل الأنواع لاتشوبها شائبة، نعم أحياناً يحالفنا الحظ إذ كان على القبطان أن ينقل بين الوقت والآخر حمولة حقيقية خشية الملاحقة البحرية. بضاعة أمريكية ممتازة في طريقها إلى دمشق التي كانت بحاجة ماسة اليها في سوء التفاهم مع الحكومة الفرنسية.»

ـ «وما كانت العظام تحت طبقة اللحم السميكة؟»

ـ «العظام؟ في اللحم المفروم؟ آه تقصد «العظام»، على مدى أربعة أيام كنت أقتات على ذاك اللحم ولم أقترب خلالها من طعام السفينة البائس. ولكنك لو خضت عميقاً في عمق اللحم لوجدت تلك البضاعة الفاخرة، بنادق صنع الولايات المتحدة الأمريكية، آخر موديل أمريكي أُنتج خلال الأسابيع الأخيرة للحرب، لكن الاتفاق على وقف إطلاق النار حال دون بيعها واستلام ثمنها فكان لا بد من بيعها لآخرين. فلا يمكنك أن تحفظها في انتظار الحرب

القادمة. فحتى أن تقوم تلك الحرب تكون موديلات الأسلحة قد تطورت وتحسنت. أقول لك أننا حينما أخذنا علب اللحم البقري المفروم دون مشاكل وحصل القبطان على صفقته حصلنا نحن على كويين من الكونياك الفاخر وأكلنا الدجاج والفواكه والخضروات، كلها كانت طازجة، والسبب هو أننا وقعنا في قبضة دورية بحرية فرنسية وصعد المسؤول إلى السفينة للتفتيش وتوجيه أسئلة للطاقم وتقديم السيجار وتوزيع الفرنكات عليهم لرشوتهم، آملين أن يتطوع رجل من البحّارة بالحديث والإدلاء بمعلومات. لكن وجب عليهم النزول من السفينة عابسي الوجوه بعد أداء التحية والاحترام للقبطان، كما لو هو كان قائدهم الأدميرال.»

ـ «لم يخن أحد الرجال القبطان رغم الفرنكات والسيجار؟» سألت.

ـ «نحن؟ هنا على اليوريكه؟ نعم لقد أخذنا الفرنكات والسيجار، لكن أن نخون أحداً؟ نعم نحن قذرون ونحن موتى شهدنا ما وراء الجحيم، نعم قد نسرق محفظة أحدهم، محفظة شخص مهمل غير مبال قد يفقدها في أي مكان وهو يمشي في الشارع، أي نعم نحن نسرق المخازن ونبيع ما نسرقه في المرافيء بأسعار بخسة ويمكننا أن نرمي بمطرقة صوب رأس المهندس الثاني حين يأتينا متذمراً وشاكياً من انخفاض ضغط بخار المراجل! كل هذا شريف ونظيف. لكن أن نشي بأحد للشرطة أو لحرس الجمارك ولمفتشي تهريب الأسلحة؛ فهذا عيب وعار ولا نفعله حتى مقابل ألف جنيه استرليني نقداً، رغم حلاوة أن تمتلك مثل هذا المبلغ. لكن انظر يا صاحبي، ما نفع تلك الجنيهات أو الفرنكات في النهاية؟ ما الذي ستقدمه لك؟ لا شيء جيد على الاطلاق إذ ما نفع أن يكون في جيبك ألف جنيه استرليني وتخسر مصداقية أن تكون بحّاراً شريفاً؟ كلا لن تعود بعدها قادراً على النظر إلى وجهك في المرآة ما بقي لك من العمر.»

كنا قبالة ساحل ميناء صغير في البرتغال حين قرر القبطان تحميل بضاعة

نظيفة للرحلتين القادمين؛ فقد شعر أن اليوريكه صارت في دائرة الرصد وأن شبهات تدور حولها، أدرك بحدسه أنه حالما يصل إلى المياه الإقليمية الفرنسية فإن دورية بحرية من شرطة الجمارك ستوقفه وتفتش السفينة. الحمولة لم تكن ذات قيمة لكنها مع ذلك كانت بضاعة تنقل وسيمكنه بواسطتها الحصول على أوراق تخليص جمركي صحيحة مائة بالمائة ولكان على الفرنسيين أن يدفعوا غرامة مالية دسمة بالتسبب بالإزعاج وتأخير وصول السفينة إلى الميناء أربع وعشرين ساعة. لذا، فبعد حملات تفتيشية مفاجئة وفاشلة تكبدّت الحكومة الفرنسية بسببها المتاعب ودفع آلاف الفرنكات كغرامة مالية للتعويض عن ضرر وتأخير، يصبح بإمكان القبطان مجدداً تحمّل أعباء عدد من الرحلات ينقل فيها بضاعة قانونية قليلة الربح وخالية من الإزعاج.

حين تكون السفينة راسية تنتهي مناوبات العمل عادة في الخامسة عصراً ونبقى أحراراً حتى السابعة من صباح اليوم التالي. وبما أننا نرسو بعيداً عن الساحل، فلا نستطيع الذهاب إلى اليابسة لأن أجور القوارب مرتفعة جداً والقبطان يرفض دفع مقدمة من أجورنا خشية أن لا نكون على اليوريكه حين يقرر القبطان فجأة رفع المرساة. كنا نقضي الساعات مستلقين على السطح أو نتبادل الأحاديث.

أناس كثيرون من جنسيات مختلفة يعملون على اليوريكه، أناس يمثلون أُمماً مختلفة كثيرة. فلكل أمة موتاها في مكان ما على الأرض من الذين مازالوا يحيون ويتنفسون الهواء، لكنهم بالنسبة لأمتهم موتى أبديين. لبعض الدول سفن للموتى علانية، ويطلقون على تلك السفن اسم الفيلق الأجنبي، ومن نجا منه قد يتمكن بثمنه من شراء حياة جديدة ووثيقة باسم جديد نظيف وجنسية جديدة قانونية تفتح له كافة الآفاق ليعود إلى الحياة مرة أخرى. بعض الدول تمنح جنسيتها لرجال أبحروا تحت لوائها لثلاث سنين متتاليات. الحال كان

مختلفاً مع اليوريكه، فكلما طال أمد عملك عليها فانك تبتعد أكثر فأكثر عن أية إمكانية للفوز بجنسية دولة ما أو استعادة جنسيتك المفقودة. لن يرضى أحد بك ولا حتى الصينيون أو السواحيليون مهما تقدمت بطلبات ومهما ملأت من أوراق. اليوريكه كانت دولة قائمة بذاتها ولها لغتها وأعرافها وقيمها الخاصة بها ولها تقاليدها.

36

يوماً التقيت في الجزائر برجل إدّعى أنه يبلغ من العمر مائة وخمسة وسبعين عاماً، والرجل كان سورياً من بيروت وبدا أنه قرابة الأربعين، وفي نفس الوقت مائتين وخمسين من العمر. أخبرني الرجل أنه صعد للعمل على اليوريكه ثلاث وعشرين مرة والقبطان كان يعرفه وأكد أن ذلك السوري قد خدم تحت إمرته في أربع رحلات في الأقل. في المقهى التركي الذي دعاني إليه السوري لشرب فنجان من القهوة، أخبرني حكايته مع اليوريكه ومع النساء، وقال إنه كان في مقتبل الصبا حين صعد لأول مرة للعمل على اليوريكه. وحين سألته عن البضاعة التي دأبت اليوريكه على نقلها في زمانه أجابني:

ـ **«في ذاك الزمن القديم، حين عملت كصبي مطبخ، كانت اليوريكه تنقل جنود الجنرال نابليون بونابرت إلى مصر، كان ذلك قبل أن يعلن نفسه إمبراطوراً.»** وحين لمحني أرمقه بنظرات الشك، سارع يقول: **«طبعاً كانت اليوريكه آنذاك تسير بقوة أشرعتها، فلا محرّكات بخارية آنذاك ولا مثل هذا العمل الشاق الحالي أمام المراجل.»**

طبعاً صدّقت كل ما أخبرني به السوري عن اليوريكه. فكيف له أن يصفها بتلك الدقة إن لم يكن قذ رآها بعينه. ثم سألته عن سبب خدمته المتكررة على هذه السفينة، فقال أن لليوريكه ملاك حارس، وأنه لن ينسى قط الخدمة التي

قدمتها له! قال أنه تزوّج تسعة عشر مرة ، تقريباً بعدد رحلاته على اليوريكه. كل زوجة منهن جعلت حياته بنقّها جحيماً! ولأنه لم يملك مالاً ليشتري حريته كانت اليوريكه هي خلاصه. ثم حين يعود تكون الزوجة قد هجرته وصار حرّا ليبدأ من جديد مع زوجة أخرى لتتكرر نفس الحكاية واليوريكه كانت هي المنقذ في كل مرّة.

استمعت له بشغف وهو يخبرني القصة تلو القصة عمّا خبره ورآه في البرّ والبحر، على اليوريكه، وعن إصبعه الوسطى بيده اليسرى الذي فقده في معركة أبو قير البحرية حين أطلق جندي انكليزي غبي النار عليه. صدّقت حكاية الرجل، فإصبعه كان حقاً مفقوداً ويبدو أن الرجل شعر بذلك إذ قال: أشهد بالله ربي وبمحمد نبيّ أنك إنسان لطيف حقاً ولا يوجد مثلك الكثير، هيا لنشرب فنجاناً آخر من القهوة، إنني أدعوك.»

37

ستانيسلاف أو لافسكي، أنا وعامل الفرن، كنّا نناديه هكذا، باسمه، أما الآخرون فكانوا ينادونه بالبولندي. في الواقع كانت تلك طريقة التخاطب الغالبة على السفينة، فكنت تسمع أحدهم يصيح، أيها الإسباني أو الروسي أو الهولندي، الخ، الجنسية التي أنكرتها عليهم بلدانهم، لسبب أو آخر، وما عادوا يحملون جوازات سفرها صارت هي ذاتها جلّ هويتهم على اليوريكه. يا للسخرية.

على اليوريكه نادراً ما يفشي أحد باسمه الحقيقي أو جنسيته الحقيقة للآخرين، بل ولا حتى للقبطان نفسه. فما من أحد على السفينة كان متيقناً من حقيقة الأسماء والجنسيات التي يقدم بها الواحد منا نفسه لزملائه حين يصعد على السفينة لأول مرة، والقبطان كان كتوماً جداً فيما يكتبه في السجّل عن

رجاله؛ فهو ما كان ليفرّط قط بأحدهم أو يسلّمه للسلطات طالما أمكنه تجنّب ذلك. وهكذا تظل الحقائق مجهولة حتى ينطق بها صاحبها، وحين يتحدث بصراحة عن نفسه وعن ماضيه الذي لا يعرفه سواه. لكن قلّة قليلة فعلت ذلك دون تفكير. حالما يغادر العامل الجديد، بعد تسجيله للعمل، مقصورة القبطان ويخرج إلى سطح السفينة ويلتقي الرفاق الذين سيسألونه عن اسمه فيقول لهم مثلاً: «أنا دنمركي.» بهذا الجواب يكون الرجل قد أجاب على سؤالين، اسمه وجنسيته، وتصبح كل هوّيته من الآن فصاعداً هي «الدنمركي» ولن يكرر أحد عليه السؤال قط. نعم الضابطان يعلمان جيداً أن الجواب هو كذبة لكنهما لن يبحثا أعمق لاكتشاف الحقيقة لأنهما لا يريدا سماع المزيد من الأكاذيب. تلك كانت القاعدة الذهبية القديمة المعمول بها على اليوريكه، اذا كنت لا تريد سماع الأكاذيب فلا تسأل. الكذب هو الدفاع الوحيد الذي يمتلكه الانسان المتحضّر حين يحشر في زاوية أسئلة لا يريدان الإجابة عليها، لذا من الأفضل لا أسئلة ولا كذب.

في أحد الأمسيات، حين كانت السفينة راسية قبالة أحد الموانيء الأفريقية في انتظار حمولة ما، أخبرني ستانيسلاف حكايته وأخبرته أنا حكايتي. لا لم أخبره بالقصة الحقيقية وإنما أخبرته قصة جيدة أعجبته. طبعاً لست أدري أنا الآخر إذا كان ما أخبرني إياه هو قصته الحقيقية، لكن كيف يعرف المرء إذا كانت القصة، أية قصة، تُروى أو تُسمع هي حقيقية؟ على أية حال كان هناك أكثر من سبب يدعوني للاعتقاد أن ما رواه ستانيسلاف كان حقيقياً، فحكايته تشبه حكايا كل من أبحر على سفن الموت. اسمه الكامل ستانيسلاف كوسلوفسكي ومسقط رأسه في بوزنان وبقي هناك حتى بلغ الرابعة عشر من عمره، حيث زار المدرسة. بعدها، أراد أبواه أن يجعلانه يتمرن على مدى أربعة أعوام مهنة الخياطةلدى خيَّاط في المدينة، لكن قصص البحر في الكتب التي كان يقرأها كانت ملكت خياله وأغوته بالرحيل فهرب من البيت وجاء إلى شتيتين، الميناء

المطل على بحر البلطيق، ومن هناك تسلل خلسة إلى مركب صيد دنمركي كان في طريقه إلى جزيرة فونين الدنمركية، وهناك اكتشف الصيادون الفتى الهارب الذي كاد يتجمد من البرد ويتضور جوعاً في مخبأه فأخبرهم أنه من غدانسك[7] وانتحل اسم أمين المكتبة التي كانت تزوده بروايات البحر، وادّعى بذكاء أنه يتيم الأبوين وقد ذاق الأمرّين لدى أبويه بالرعاية لذلك رمى بنفسه إلى البحر ليموت، لكن حلاوة الروح دفعت به إلى السباحة لينجو بنفسه ويتسلل إلى المركب. وبكى وانتحب أمام الصيادين قائلاً أنه وبنفسه سيشد وثاق يديه ورجليه ويرمي بنفسه في البحر لو أنهم أعادوه إلى ذويه بالرعاية. بكت نساء الصيادين وهن يستمعن لحكاية الفتى اليتيم وتكفلّن برعايته إلى أن بلغ السابعة عشر من العمر، صار أثناءها بحّاراً خبر البحر والريح. غادر الدنمارك محملاً بتمنيات الصيادين له بالتوفيق إلى هامبورغ بحثاً عن سفينة كبيرة تبحر به بعيداً فلم يجدها فاشتغل لشهور لدى صانعي الأشرعة مسجّلاً نفسه باسمه الحقيقي للعمل في هامبورغ آملاً تحقيق حلمه بالصعود إلى سفينة حقيقية يبحر معها كبحّار باسمه الحقيقي. ولهذا ذهب ليحصل على بطاقة قانونية للعمل كبحّار تفتح له آفاق الصعود على أكبر السفن الألمانية يوم كانت تلك في قمة مجدها. ذهب إلى مكتب شؤون البحارة ظناً منه أنها الجهة التي ستصدر له البطاقة. قالوا له «عليك أن تجلب كتاباً من الشرطة أولاً.» ذهب إلى الشرطة وطلب الحصول على الورقة المطلوبة، هناك قالوا له «اجلب لنا شهادة ميلادك كي

7- غدانسك أو جدانسك، وبالألمانية دانتسغ، هي مدينة بولندية تقع على بحر البلطيق.. تعتبر الميناء الرئيسي لبولندا، ويسمى ميناؤها باسم ميناء جدانسك وكان اسمه في فترة جمهورية بولندا الشعبية باسم ميناء لينين. حُكمت المدينة من قبل الإمبراطورية الألمانية وشكل الألمان أكثرية سكانها خلال تاريخها. وبعد الحرب العالمية الأولى وتوقيع الألمان لمعاهدة فرساي تمتعت المدينة بحكم ذاتي تحت رعاية عصبة الأمم طبقاً لمعاهدة فرساي، ثم ضمت إلى بولندا بعد الحرب العالمية الثانية.

نعطيك الورقة التي تريدها.» ستانيسلاف بعث برسالة إلى موطنه في بوزنان كي يبعثوا له بشهادة ميلاده وانتظر اسبوعاً كاملاً ولم يأت شيء، فكتب رسالة ثانية أرسلها بالبريد المسجّل وانتظر ثلاثة أسابيع دون أن يأتيه أي رد وانتظر أسبوعاً رابعاً وعبثاً. الكرونات الدنمركية التي كان ستانيسلاف جمعها قد انفقت كلها في حانات وعلى فتيات شارع سانت باولي. الغبي وعديم النفع هو الذي يجوع ويحتار، قال ستنايسلاف، لكن من يمتلك حرفة يدوية يعرف كيف يحصل على قوت يومه باستمرار. أحياناً كانت تسقط علبة أو صندوق من عربة قطار نقل وعليك أن تكون حاضراً لحظة سقوطها لتتلقفها ولا تتركها على قارعة الطريق، هذا كل ما في الأمر. أو تكون بضعة من أكياس السكر أو صناديق القهوة في مخازن الميناء قد انشقت بدون فعل فاعل، وتكون أنت وبمحض الصدفة ماشياً قربها ومعك حقيبة ظهر فارغة لتكتشف لاحقاً أن حقيبة الظهر قد امتلأت بهذا أو ذاك، وفي تلك الحالة، أكد ستنايسلاف، لا يقوم المرء بإفراغ حقيبة ظهره مما دخل فيها. ولو رآك أحد وأنت تحاول نفض حقيبتك مما دخلها من القهوة أو السكر مثلاً، لظن بك الظنون ولخالك لصّاً وبلّغ الشرطة.

لم يأته رد من بوزنان، لذلك قرر ستنايسلاف الذهاب إلى الشرطة مجدداً وإبلاغهم بذلك.

«يااللبولنديين الملعونين!» علّق القوميسار وهو يستمع لستانيسلاف «إنهم يتعمدون فعل ذلك بسبب حقارتهم، سنعرف كيف نؤدب أولئك القوم.» ستانيسلاف استمع بكل أدب لما يقوله مفتش الشرطة، رغم انه لا يشاطره رأيه السياسي، ثم سأله «**ومن أين أحصل على بطاقة البحار يا سيدي المفتش؟**»

ـ «**هل سبق لك الإقامة في هامبورغ؟**»

ـ «**بالتأكيد.**»

ـ **قبل الحرب؟.»**

ـ «نعم»

ـ لفترة طويلة؟»

ـ «طبعاً، لأكثر من نصف عام!»

ـ «وكنت مسجّلاً لدى الشرطة؟»

ـ «نعم.»

ـ «اي مركز؟»

ـ «هنا في نفس مركز الشرطة هذا.»

ـ «إذهب إذن إلى دائرة السجل العام للشرطة واطلب نسخة من سجلّك واحضرها إلى هنا مع ثلاث صور شمسية كي أصادق عليها وأختمها.»

عاد ستانيسلاف بالورقة المطلوبة بسرعة إلى المفتش الذي تمعّن فيها ثم قال:

ـ «الورقة صحيحة لكني غير متيقن بأنك هو نفس الشخص المذكور فيها.»

ـ «يمكنني إثبات ذلك» أجاب ستانيسلاف «يمكنني جلب عنوان صانع الأشرعة، السيد أنديرسن، الذي كنت أعمل عنده، ولكن هذا الشرطي قد يذكرني، إسأله ياحضرة المفتش.»

ـ «من أنا؟ أذكرك أنت؟» أجاب الشرطي معترضاً.

ـ «نعم أنت، أتذكرني؟ لقد جعلتني أدفع غرامة لمخالفة قانونية من تسع ماركات حين بلّغت عني إثر شجار تورطت فيه، آنذاك كانت لك لحية صغيرة جداً تحت الشفة السفلى.»

ـ «نعم نعم ، تذكرتك الآن، كنت تعمل لدى أنديرسن.»

ـ «حسناً كل شيء على مايرام إذن!» أفتى المفتش منهياً الحديث، «يمكنني

الآن ختم صورك وإعطائك شهادة بذلك.»

في اليوم التالي ذهب ستانيسلاف حاملاً الشهادة إلى مكتب شؤون البحّارة.

ـ «الشهادة صحيحة حيث يؤكد فيها القوميسار أنك معروف لديه شخصياً، لكننا غير واثقين من كونك مواطناً في الرايخ الألماني، عليك الآن إثبات هذا.»، «حين ولدت في بوزنان كنت مواطناً في الرايخ الألماني وهذا شأن لا شك فيه قط، لكن كونك اليوم مواطناً ألمانياً هو ما يجب أن تثبته لنا أولاً. وحتى تفعل ذلك لن يسعنا إصدار بطاقة بحّار لك.» «راجع دائرة رئاسة الشرطة، قسم الجنسية.»

38

كي لا يموت جوعاً عاد ستانيسلاف إلى ممارسة حرفته اليدوية القديمة الشريفة. لا مفر من ذلك، والذنب ليس ذنبه، فلا عمل والكل يقتات من الإعانات الاجتماعية الشحيحة للعاطلين. ستانيسلاف لم يحاول أصلاً الحصول عليها وفضّل العودة إلى مهنته القديمة. «الوقوف يومياً في طابور طويل لساعات طويلة من أجل الحصول على بضعة ملاليم لتقيم بها بالكاد أودك هو أمر محبط يشعرك بالذل والهوان لست بحاجة اليه.» قال ستانيسلاف «لذا أفضل أن أتلصص في الشوارع ليلاً وأرى إن كان هناك من تزعجه محفظة نقوده ويريد التخلص منها، الذنب ليس ذنبي. فلو أعطوني الورقة لكنت وجدت عملاً على سطح صندوق ما وأبحرت بعيداً.»

في دائرة رئاسة الشرطه سألوه:

ـ «وُلدت في بوزنان؟»

ـ «نعم!»

ـ «شهادة ميلادك؟»

ـ «هذا وصل بريدي لرسالة مسجلّة إلى بوزنان ولكني لم أحصل على جواب.»

ـ «شهادة وختم قوميسار الشرطة في منطقتك تكفي كإثبات، لكن مسألة الجنسية الألمانية هي المعضلة، هل سبق واخترت ألمانيا؟»

ـ «هل ..ماذا؟»

ـ «يعني هل قدمت لدى السلطات الألمانية المعنية هناك وضمن المهلة الزمنية المحددة إقراراً شخصياً يؤكد اختيارك بمواصلة الاحتفاظ بجنسيتك الألمانية بعد توقيع ألمانيا معاهدة فرساي وتخليها عن الأراضي البولندية وإعادتها إلى بولندا؟»

ـ «لا لم أفعل» أجاب ستانيسلاف «لم أكن أعرف شيئاً عن ذلك الإجراء أو المهلة الزمنية المحددة له، اعتقدت أنني سأظل أحمل الجنسية الألمانية طالما انني لم آخذ جنسية بلد آخر. لقد حاربت من أجل ألمانيا بمعركة بحرية.»

ـ «إذن كنت مواطناً ألمانياً.» أقر الموظف «بوزنان كانت عائدة لألمانيا. أين كنت حين جرى رسمياً مطالبة الناس المولودين في المحافظات البولندية ولكن المقيمين في ألمانيا، بأختيار جنسية أحد البلدين؟»

ـ «كنت في البحر على ظهر سفينة دنمركية، لا بد أني كنت حينها عند الساحل الصيني.»

ـ «كان واجبك التوجه إلى القنصل الألماني في أقرب ميناء وتوثيق إقرارك الصحيح.»

ـ «لكني لم أعلم بوجود ذلك الأمر إطلاقاً. أنظر يا سيدي، حين يكون المرء مبحراً ويشقى بعمله بعيداً، فلا وقت حتى للتفكير بتلك الأمور.»

ـ «ألم يعلمك قبطانك بوجوب الذهاب إلى القنصل الألماني؟»

ـ «كنت على سفينة دنمركية والقبطان دنمركي أيضاً ولا أظنه كان مهتماً

بشأن الأوامر الصادرة من السطات الألمانية.»

ـ «هذا من سوء حظك يا كوسلوفسوكي» أسند الموظف ظهره للكرسي وبدا وكأنه يفكر في حلّ للمشكلة. وبعد فترة من الصمت والتأمل كرر الموظف أسفه:

ـ «أقولها ثانية، هذا من سوء طالعك، أظن هذا كل ما عندي. ليس في وسعي مساعدتك في هذه الحالة، هل أنت غني، أتمتلك بيتاً؟»

ـ «كلا يا سيد، أنا بحّار.»

ـ «كان بودي مساعدتك ولكن الأمر يفوق صلاحياتي، يمكنك التماس المساعدة من وزير الخارجية فهو قادر على حلّ قضيتك، لكن القضية ستحتاج إلى وقت طويل، سنتين في الأقل، ونجاحها غير مضمون أيضاً. البولنديون لا يتساهلون مع مواطنينا، فلماذا علينا أن نكون أكثر كرماً في تعاملنا مع مواطنيهم؟ فمن زاوية معينة أنت بولوني وولدت على أرض عادت لتكون بولونية. ربما ستطرد بولندا غداً كل البولونيين الذين اختاروا الجنسية الألمانية، وطبعاً سنقابل الأمر بالمثل.»

كل موظف رسمي كبير أو صغير قابله ستانيسلاف كان يؤكد له أنه كان ليساعده لولا محدودية صلاحياته. لكن لنفترض أن ستانيسلاف لم يكن صامتاً يستمع بأدب واحترام لكلام الموظفين الرسميين وآرائهم السياسية، وأنه بدلا من ذلك كلّمهم بصوت عال دون إبداء الاحترام المطلوب، أو أنه تجرأ وحدق بوجه ذاك الموظف، لو كان فعل ذلك لرماه الموظف في السجن دون رحمة بسبب إهانته الدولة بشخص الموظف، فيصبح هذا تلقائياً هو بشخصه الدولة الجبارة بكل جبروتها وسلطاتها! وفجأة يهرع الموظفون، المتضامنون في أخوية، وكل حسب اختصاصه، لتلقين هذا المواطن المارق درساً لا ينساه في الضرب

والحبس حسب المزاج! لكن ما من أحد في هذه الأخوية بقادر، أو له صلاحية، في مساعدة فرد بائس فقير في محنته. «ما نفع الدولة وجهازها المتنفذ القوي إذا لم تكن قادرة على مد يد العون إلى إنسان محتاج؟» قال ستانيسلاف متسائلاً بحيرة ومرارة.

«سوف أقدم لك نصيحة جيدة» قال الموظف وهو يتأرجح باسترخاء على كرسيه «من الأفضل لك أن تذهب إلى القنصلية البولونية. وصدقني فإن القنصل البولوني ملزم بمنحك جواز بولوني يمكنك بواسطته استحصال هوية بحرية بمنتهى السهولة»، «وحين تحضر لنا جوازاً بولونياً فسوف نعمل استثناء من أجلك كونك خدمت في البحرية الألمانية وتعيش الآن في هامبورغ حتى من قبل الحرب، فسوف أتساهل معك شخصياً للحصول على بطاقة بحّار ألمانية على أساس جوازك البولوني. هذه هي النصيحة الوحيدة التي بحوزتي إليك.»

في اليوم التالي كان ستانيسلاف في القنصلية البولونية:

ـ «هل ولدت في بوزنان؟»

ـ «نعم، والداي مازالا يعيشان هناك؟»

ـ «هل تتكلم البولونية؟»

ـ «ليس كثيراً، عملياً لا أتكلمها البتّة.»

ـ «هل أقمت في بوزنان أو في غرب بروسيا أو في أي مقاطعة بولونية تحت الحكم الألماني أو الروسي أو النمساوي في الفترة التي أعلنت فيها بولونيا دولة مستقلة ذات سيادة؟»

ـ «لا.»

ـ «لم تقطن في أية أراضي اعتبرت بولونية بين العام 1912 ويوم إعلان الهدنة

ووقف اطلاق النار؟»

ـ «لا، كنت في البحر أعمل على سفن تجارية دنمركة وألمانية.»

ـ «لم أسألك عما كنت تفعله في البحر، أجب على الأسئلة فقط.»

في تلك اللحظة قاطعته قائلاً «يا ستانيسلاف، حتماً كانت تلك هي اللحظة التي ستمسك بها بخناق هذا الغبي وتسحبه فوق مكتبه وتنهال عليه بقبضتك بكل قوتك.»

ـ «أعرف يا بيبه، هذا هو ما شعرت به تماماً، لكنني كنت ذكياً وواصلت الابتسام ببلاهة. انظر يا صاحبي، أولاً كنت أريد الحصول على جوازي ثم لاحقاً، وقبل أن تبحر سفينتي بساعة واحدة، كنت سأعود إلى هنا وابرح هذا الغبي ضرباً وأصعد بعد ذلك مباشرة إلى السفينة وأرحل بعيداً.»

واصل القنصل البولوني كلامه: «تقول إن والديك مازالا يعيشان في بوزنان؟»

ـ «نعم.»

ـ «بما أنك شخص بالغ فلا يعنينا قطعاً أي إقرار أو اختيار كان والداك قد اتخذاه نيابة عنك، على افتراض أنهما قاما بالاختيار أساساً. ما يهمنا هو الجواب الصحيح لسؤالي: هل قمت شخصياً بإعلان وتسجيل رغبتك الجدّية كي تبقى مواطناً بولونياً أمام قنصل بولوني أو أي شخص مخوّل من قبل الحكومة البولونية له صلاحية المصادقة على ذلك الاعلان؟»

ـ «لا، لم أكن أعرف أصلاً أنه يتوجب علي القيام بذلك.»

ـ «ما تعرفه أو لا تعرفه لا أهمية له بالنسبة لي قط. ما أطلبه هو الجواب على سؤالي: هل قمت بإعلان رغبتك وتسجيلها أم لا؟»

- «لا.»

- «وماذا تريد إذن من وجودك هنا في هذا المكتب؟ أنت ألماني ولست بولونياً فاذهب إلى سلطاتك الألمانية ولا تزعجنا ثانية. هذا كل شيء، عمت مساءً»

عاد ستانيسلاف إلى دائرة رئاسة الشرطة، قسم الجنسية:

- «القنصل البولوني يرفضني.»

- «كان ذلك متوقعاً، وماذا نحن فاعلون بك يا كوسلوفسكي؟ فلابد لك من ورقة وإلا فلن تصعد على ظهر سفينة؟»

- «أكيد يا سيدي القوميسار.»

- «حسناً سأعطيك شهادة فاذهب بها غداً في الصباح الباكر إلى مكتب الجوازات واقصد الغرفة رقم 334، وهناك ستحصل على جواز وبه ستحصل على بطاقة بحّار.»

كان الرجل مسروراً للغاية. نعم لقد أثبت الألمان أنهم أقل بيروقراطية من غيرهم. قدّم ستانيسلاف الشهادة في مكتب الجوازات مع صور شمسية وحصل حقاً على جواز. نعم كان الجواز على ما يرام، ورقة جيدة لم يحظ ستانيسلاف بورقة جيدة كهذه في حياته وأصبح بمقدوره السفر إلى نيويورك مباشرة. كل المعلومات كانت صحيحة: الاسم وتاريخ الميلاد والمهنة، لكن مهلاً، ماهذا؟ «بدون جنسية»، حسناً لست بحاجة إليها فالمهم أن أحصل على بطاقة بحّار. ثم ما معنى «صالحة للتنقل الداخلي فقط». في اليوم التالي كان ستانيسلاف في مكتب شؤون البحّارة:

- «بطاقة بحّار؟ لا يمكننا منحك إياها فأنت من البدون وبطاقة البحّار للسفر إلى الخارج مشروطة بالجنسية.»

ـ «كيف أصعد إذن على سفينة، قل لي أنت؟»

أسقط في يد ستانيسلاف وتبددت آماله.

ـ «لديك جواز يمكّنك من الصعود على أية سفينة، جوازك يقول من أنت وما أنت وأنك مقيم هنا في هامبورغ، يعني شخص معلوم الهوية وستحصل على سفينة بسهولة حتماً.»

حصل ستانيسلاف على سفينة فعلاً. سفينة هولندية جميلة وأجر جيد، وحين رأى رئيس العمال الجواز:

ـ «عال، ورقة جيدة.»

وحين رآها القبطان:

ـ «أوراق جيدة وهذا ما أريده. الآن نذهب إلى القنصل للتسجيل والمصادقة.»

القنصل كتب الاسم؛ ستانيسلاف كوسلوفوسكي ثم رفع رأسه وقال:

ـ «أين بطاقة البحّار؟»

ـ **«جواز.»** أجاب ستانيسلاف

ـ **«يؤدي نفس الغرض.»** قال القنصل.

ـ **«جواز جديد صادر للتو من رئاسة الشرطة هنا، عمره يومان فقط، هذا رجل صالح»** أضاف القبطان وأشعل سيجارة.

أخذ القنصل الجواز وبات يتصفح أوراقه ويهز رأسه قبولاً واستحساناً بصناعة بيروقراطية فاخرة، وهذا شأن يعرفه القنصل. فجأة تسمّرت نظراته وتجمد في جلسته:

ـ «لا يسعني تسجيلك للعمل على السفينة.»

ـ «ماذا؟؟» صاح ستانيسلاف بينما أسقط القبطان علبة الثقاب من شدة الاستغراب.

ـ «لا يمكنني تسجيله.» كرر القنصل قوله.

ـ «ما السبب، لم لا؟ أنا شخصياً أعرف الموظف في رئاسة الشرطة الذي وضع إمضاءه على هذه الشهادة.» تدخّل القبطان وقد بدأ صبره ينفد.

ـ «لا مشكلة بالجواز قط، فهو صحيح مائة بالمائة، لكني لا أستطيع قبول تسجيله إذ لا جنسية للرجل، إنه من البدون.»

أوضح القنصل.

ـ «هذا هراء لا يعنيني، أنا أريد هذا الرجل» قال القبطان «الضابط الأول على سفينتي وهو دنمركي يعرفه جيداً ويعرف السفن التي خدم عليها، لذا أريد رجالاً مثله حولي في طاقمي.»

أغلق القنصل دفتر الجواز الذي بين يديه واعتدل في جلسته وصار يضرب به راحته اليسرى ويفكّر ثم قال:

ـ «تريد هذا الرجل على سفينتك حضرة القبطان، هل تريد أن تتبناه؟»

ـ «هراء.» صاح القبطان.

ـ «هل تتحمل شخصياً مسؤوليته حتى حين ترغب في التخلّي عن الرجل لاحقاً؟» سأل القنصل.

ـ «لست أفهم.» رد القبطان.

ـ «لا يحق للرجل المكوث في أي بلد كان، نعم يحق له النزول إلى المدينة طالما كانت السفينة راسية في الميناء، لكنها حالما تغادر ويقع الرجل في قبضة السلطات

فإن مسؤولية إخراجه من ذلك البلد ستقع عليك أيها القبطان، أو على شركة الملاحة المالكة للسفينة.»

ـ «لكن بإمكانه العودة دائماً إلى هامبورغ، أليس كذلك؟» سأل القبطان.

ـ «كلا لن يمكنه فعل ذلك لأن المانيا قادرة على رفض قبوله على أراضيها وتعيد تسليمه إلى الشركة أو اليك شخصياً إذ لن تكون المانيا ملزمة بقبوله ثانية حالما صار خارج حدودها. أمامه طريق واحد وهو الحصول على شهادة تضمن إمكانية عودته إلى هامبورغ أو المانيا عموماً في أي وقت شاء والإقامة فيها، لكن الجهة الوحيدة المخوّلة بإصدار شهادة كهذه هي الوزارة، والوزارة لا تفعل هذا دون سبب وجيه، لأن إصدارها للشهادة هو بمثابة منح الجنسية الألمانية وهنا نعود إلى نقطة البداية. لو حصل على الجنسية الألمانية لكان مواطناً ألمانياً مولوداً في بوزنان، لكن لا ألمانيا ولا بولونيا يعترفان به مواطناً، فلو كنت أنت أو الشركة مستعدين لتحمّل مسؤولية الرجل فأهلاً وسهلاً.»

ـ «وكيف يتسنى لي ذلك؟» قال القبطان معترضا.

ـ «إذن لا يمكنني تسجيله للعمل على سفينتك.» قال القنصل بهدوء تام.

ـ «لكن ألا يمكنك عمل استثناء؟ أريد هذا الرجل، فهو بحّار ممتاز.» سأل القبطان

ـ «آسف جداً يا حضرة القبطان، فصلاحياتي لا تكفي للقيام باستثناء، ويجب علي الالتزام بالتعليمات، فلست سوى خادم للدولة.»

رفع القبطان كتفيه وذراعيه كدليل على الاستسلام:

ـ «تباً لهذه الاجراءات التافهة تباً.» صاح القبطان مغتاظاً، ورمى بسيجارته على الأرض وظل يدوس عليها بقوة، ثم سار نحو الباب فدفعه وغادر مهتاجاً وغاضباً.

ستانيسلاف كان واقفاً في الممشى، وحين رآه القبطان قال له:

ـ «ماتراني فاعلاً بك يا فتى، آه كم تمنيت لو أخذتك معي، لكن لم يبق أمامك سوى الصعود إلى سفينة وفق قانون الطوارئ البحري والقنصل يعرف إسمك في كل الأحوال. هاك، خذ هذين الغلدرين واقض أمسية لطيفة. أما أنا فيجب أن أبحث عن رجل آخر بدلاً عنك.»

غادر القبطان.

39

كان على ستانيسلاف أن يجد سفينة بأية وسيلة.

«الحرفة الشريفة جيدة لكن لايمكن ممارستها لفترة طويلة، أن تأخذ صندوقاً من هنا أو علبة من هناك هو شأن لا يتسبب بالأذى لأحد، بل إن ضياعها لا يشكل خسارة للمحال التجارية الكبيرة، فتلك الأمور هي محاذير محسوبة الكلفة إذ يمكن دوماً لعلبة بما فيها من مواد أن تتعرض للتلف أو صندوق بما يحويه للكسر، غير أن الاستمرار بمزاولة تلك الحرفة اليدوية يصبح مع الوقت متعباً يا صاحبي.» لم أقاطعه ولم أتدخل بحديثه، جعلته يروي وأنا صامت أستمع له: **«نعم سرعان ما تمّل منها»** واصل ستانيسلاف كلامه **«ولن يبارحك الشعور أنك تعيش على حساب ناس آخرين وتقتات من جيوبهم. كما أنه من الطبيعي أن يشعر الإنسان بحاجة لأن يعمل، أن ينجز شيئاً وأن يرى نتيجة جهده. انظر يا بيبه، إنّ سعادتي هي حين أقف عند دفة السفينة في الإعصار والرياح وأمسك بها واعمل على ان تحتفظ السفينة بخط سيرها، نعم أن تصمد وتقارع الريح والمطر ولا تفلت الدفة من يديك، ياله من شعور هائل.»** في تلك اللحظة أمسك

بي ستانيسلاف من حزامي وصار يحاول أن يديرني كما لو كنت عجلة دفة على سفينة.

ـ «يا أنت، اتركني فلست دفة سفينة» صحت به.

ـ «لا تزعل يا صديقي، أردت فقط أن أوضح لك مقصدي.» وواصل كلامه «...ثم وحين تقاوم وتصمد أكثر بوجه الأمواج العاتية ولا تتزعزع عن مكانك وتظل ثابتاً مسيطراً على الدّفة، أى يا صاحبي تفعل ذلك وأنت تسمع صيحات التهليل من الرفاق حولك استحساناً بقدرتك على إرغام هذا الصندوق العائم الضخم كي يبقى في مساره منصاعاً لأوامر يديك.»

ـ «لم أقف على دفة سفينة كبيرة بل على مراكب وسفن صغيرة، ولكنك محّق يا صاحبي. إنه حقاً شعور هائل حتى وأنت عامل طلاء حين ترى انك أنجزت عملاً متقناً.»

صمت ستانيسلاف لوهلة وراح يتأمل ثم أخرج سيجارة اشتراها قبل ساعة من قارب هولندي لبيع التبغ، فقضم عقب السيجار بأسنانه وبصقه ثم قال لي:

ـ «ربما ستضحك مما أقوله لك لكنها الحقيقة، أنا هنا الآن أعمل على سحب عربة الفحم ورفع الرماد وأقوم بأشغال يرفضها أقذر عامل على اليابسة في حين أنا بحّار متمرس وأفضل عشرات المرات من هؤلاء الرؤوساء الثلاثة الثملين على الدوام والذين يظنون أنفسهم من العظماء. نعم، قد يكون من الشائن لبحّار مثلي أن يقوم برفع الرماد وجر عربات الفحم، لكن ربما أنه ليس عيباً، فعملي يجعل السفينة تسير ولذا فلا بد أن يقوم به أحد. وصدقني يا صاحبي، حتى هذا العمل له متعته لأنه عمل مفيد يجلب لك الاعتراف والاستحسان وأنت تجيده. لماذا يلجأ الفرد لحرفته الشريفة إذن؟ هل هو ذنبه؟ لا، فحين لا يجد الانسان فرصة ليشتغل فإنه يضيع، إذ لا يمكنه قضاء يومه في النوم أو التسكع بلا هدف.»

ـ «لكن ماذا جرى بعد أن غادرت السفينة الهولندية دونك؟»

سألته متلفهاً لمعرفة بقية الحكاية.

ـ «كان لا بد من حصولي على سفينة ولا بد لي من عمل وإلا كنت سأجن. فالجواز الممتاز قد بعته بدولار واحد، ثم عملت لفترة في مساعدة صيادين دنمركيين على تهريب الكونياك إلى الدنمارك دون دفع الضريبة العالية التي تفرضها الجمارك الدنمركية على إدخال الكونياك الأجنبي. هذا النوع من العمل مربح ويستأهل المجازفة. أخذت القطار إلى مدينة ايميريش الحدودية مع هولندا، والتي يمر فيها خط القطار الذي يربط بين المانيا وهولندا، وهناك أردت قطع تذكرة للسفر إلى روتردام لكن الشرطة اعتقلتني. ليلاً قادوني إلى الحدود وأعادوني إلى الأراضي الألمانية.»

ـ «ماذا؟» سألته «هل تقول إن الهولنديين يهرّبون تحت جنح الظلام سّراً عبر الحدود الألمانية؟» أردت سماع تجربة ستانيسلاف مع الحدود باعتباري خبيراً.

ـ «أولئك الناس؟ تسأل عنهم؟» أجابني «لا تدفعني للضحك يا رجل! فهم يقومون بأشياء أخرى أيضاً. ففي كل ليلة تجري عملية تبادل في المناطق الحدودية حيث يطرد الألمان المزعجين الأجانب والبلاشفة إلى الأراضي البلجيكية والفرنسية والدنماركية، وهذا ما يفعله الهولنديون والبلجيكون والفرنسيون والدنمركيون بدورهم.»

ـ «لا يمكنني تصديق ما تقول، فهذا مخالف للقانون.» قاطعته معترضاً.

ـ «لكنهم يفعلون ذلك وقد فعلوه معي، كما قابلت العشرات على الحدود الهولندية من الذين جرى إبعادهم من جميع الأطراف. ماذا يمكنهم أن يفعلوا سوى إبعادهم. فهم ليسوا مجرمين، وكل جريرتهم أنهم لا يحملون جواز سفر ولا يمكنهم الحصول عليه. كل دولة تحاول التخلص ممن لا جنسية ولا وطن

له، فهؤلاء مصدر إزعاج للدولة. لك أن تصدقني أو لا، لكنهم فعلوا ذلك معي.»

ـ «هذا هو كلامي وسبق وقلته.»

ـ «نعم، لكن لا تظن أنك اخترعته، الآلاف من الناس قالوه وسيبقى الحال هكذا دوماً بدون تغيير.»

ستانيسلاف كان شجاعاً لم يأبه للتهديدات بالحبس أو الحجز في معسكر للعمل، بل عاود الكرّة في نفس الليلة ووصل إلى هولندا. فقد تعلم كيفية التملص من دوريات حرس الحدود، وبخبرة وذكاء صعد على سفينة إيطالية، سفينة معّدة للموت فغرقت وأخذته معها، لكنه نجا مع آخرين قليلين ليجد نفسه بعد فترة على سفينة موت أخرى، لكنه عند اكتشافه الأمر تركها ونزل في أحد موانئ الشمال الأفريقي، غير أن سوء الحال وشظف العيش والجوع والتسكع بعد أن فقد خفته في ممارسة حرفته الشريفة التي كان يلجأ إليها عند الاضطرار، كلها جعلت من اليوريكه الخلاص الوحيد التي حالما رست صعد إليها يبحث عن الأمان بعيداً عن أيدي الشرطة.

أين سنيتهي به المآل؟ أين سينتهي بي أنا؟ أين سيكون كل هؤلاء الموتى يوماً ما؟ على شعاب الصخور عاجلاً أم آجلاً لا مفر من ذاك المصير؛ إذ لايمكن للمرء أن يبحر على سفن موت دون دفع الثمن! فلابد من تسديد الفاتورة مهما حالف المرء من حظ. وبما أنه لا خيار أمامه، فسيجد نفسه دوماً على سفينة موت لكنه لا يستطيع فعل ذلك إلى ما لانهاية. كما أن اليابسة صارت بعيدة عن المنال ومسوّرة بسور غير مرئي فيها بيت لكل من يعيش عليها، أما سفن الموت فهي بيت الموجودين خارج سورها الخفي. لا خيار عنده. إما سفينة موت أو الفيلق الأجنبي. تلك هي الحرية الوحيدة التي تمخضت عنها عبقرية الدولة لتمنحها لذلك الفرد الذي تعجز عن وسمه بوشمها.

يوماً سألت ستانيلاف:

ـ «سمعت أن أحدهم مات في الطابق العلوي من سريري، هل كنت تعرفه يا لافيسكي؟»

ـ «طبعاً، كنت أعرفه شخصياً، كان بمنزلة الأخ، كان ألمانياً من ميلهاوزن في الألزاس، لكنني لم أعرف اسمه الحقيقي ولم أكن لأهتم. قال إن اسمه باول لكن كانوا ينادونه بالفرنسي أو الإفرنجي. كان عامل جر فحم أيضاً. وفي ليلة من الليالي كنا نجلس معاً في مخزن الفحم أخبرني حكايته وهو ينتحب كطفل صغير. أخبرني انه ولد في ميلهاوزن وتعلم مهنة نحّاس، على ما أذكر، في شتراسبورغ أو في ميتز، لا أعرف بالضبط، فقد ذكر ذلك عرضاً. لاحقاً بعد انتهاء تدريبه وكحال معظم الشبان الألمان رحل طلباً للخبرة والتجربة. وفي فرنسا عمل بمهنته لبضعة شهور ثم غادرها إلى إيطاليا حيث عمل لفترة قصيرة أيضاً. حين نشبت الحرب كان في سويسرا مفلساً وعاطلاً عن العمل، فاعتقل بتهمة التسكع ورُحل إلى ألمانيا وهناك ألحقوه بالجيش ولكنه وقع في الأسر حين كان يحارب على الجبهة الإيطالية، غير أنه تمكن من الهرب من معسكر الاعتقال وسرق ملابس مدنية وصار يتنقل بين المدن حتى وصل جنوب إيطاليا التي كان يعمل فيها قبل الحرب ويعرفها جيداً. غير أنه تعرض للاعتقال دون أن يعرف أحد أنه أسير حرب، فصدّقوا قصته حين أخبرهم أنه كان طوال الفترة يتجول في إيطاليا؛ فاقتادوه إلى معكسر لاحتجاز المدنيين الأجانب. هذه هي حكايته. من هناك هرب أيضاً ووصل إلى سويسرا حيث تم ترحيله مجدداً إلى ألمانيا ووجد عملاً بأجر جيد في مصنع للبيرة، لكنه سرعان ما تورط عن جهل بنشاطات يسارية لا يفقه منها شيئاً البتّة فأدخل إلى السجن، وبعد مدة تقرر إبعاده باعتباره فرنسياً لكن الفرنسيين رفضوه، ربما بسبب سمعته الشيوعية

المفترضة؛ فالكل صار يخشى الشيوعيين تماماً كما كان الناس في الماضي، أيام الامبراطورية الرومانية يخشون المسيحيين. في الحقيقة كانت كل جريرته ترديده بغباء وجهل شعارات لا يعرف معناها قط، وتلك هي مأساة الأغلبية حين تتصور انها تفهم في الشيء لكنها في الواقع تجلهه تماماً. رسمياً رفضه الفرنسيون لأنه كان غادر منذ زمن طويل منطقة الألزاس التي عادت ثانية لتكون أرضاً فرنسية، كما أنه لم يعلن ويوّثق اختياره لأي جنسية، الفرنسية أو الألمانية ضمن المهلة الزمنية المحددة لاتفاقية فرساي. لكن قل لي يا صاحبي، ما شأن رجل عامل كادح بهذا الهراء حين يكون جلّ همّه الحصول على عمل يقيه شرّ العوز ويدفع عنه الجوع والتشرد والتسوّل. ألمانيا بدورها رفضته وأمرته بمغادرة أراضيها خلال ثماني وأربعين ساعة وإلا سيسجن في معسكر للعمل الشاق لمدة ستّة شهور وسيكون أمر الترحيل، بعد انقضائها، بانتظاره عند بوابة السجن. وهكذا سيظل الحال إلى أن يموت. ما الذي يستطيع الإنسان عمله أمام ورطة عويصة كهذه؟ لم يبق أمامه إلا أن يطرق باب القنصل الفرنسي دون جدوى، وعندما ذهب إلى القنصل للمرة الثامنة أصدر هذا أمراً بمنع دخوله إلى مكتبه منعاً باتاً. وحين حاول التسلل إلى فرنسا، ألقي القبض عليه وأعيد إلى ألمانيا حيث كان معسكر العمل لستّة شهور بانتظاره. بعدها هرب إلى اللوكسمبورغ ومن هناك إلى فرنسا، لكنه لم يكن يجيد الفرنسية وسجلّه لدى الشرطة الفرنسية كان طازجاً وحينها ادّعى أنه مواطن فرنسي لكن التحريات اثبتت بطلان دعواه فأتهموه بالاحتيال للحصول على الجنسية الفرنسية دون وجه حق قانوني. تلك التهمة تعد جريمة أخطر من السرقة والاختطاف، وحكم عليه بالسجن لخمس سنوات. لكن الفرنسيين تركوا له ثغرة ليفلت من سجنه وذلك عبر تجنيده في الفيلق الأجنبي، وإذا صمد فيه لتسع سنوات فإنه سيحصل على تقاعد بسيط وعلى عُشر الجنسية الفرنسية، لكنه لم يتحمل ولم يصمد فهرب. نعم أخبرني أن

الهرب لم يكن سهلاً كما في الأفلام، فإلى أين يولّي وجهه؟ إلى إسبانيا إذا ما حالفه الحظ. لكن الطريق إلى هناك طويل جداً ثم هناك بعض المغاربة الذين يتلقطون المجنّدين الفارين ويعيدونهم إلى الفيلق مقابل مكافأة مالية. لكن باول قال انه يفضل الانتحار على ذلك. ثم هناك فئة أخرى من المغاربة تكره أولئك المجنّدين ولا تعيد الفارّين منهم إلى الفيلق مهما كان الثمن الذي تتقاضاه مقابلهم، أولئك كان همّهم القبض بأنفسهم على الفارّين، وحين يعثرون على واحد فإنهم ينزعون عنه ملابسه بالكامل ويتركونه على الرمال الساخنة تحت لهيب شمس الصحراء، في حين كانت فئة أخرى تعذّبه ببطء شديد حتى الموت. عندما وقع ستانيسلاف في قبضة مغربي أراد أن يسلخ جلده نجا من الموت بأعجوبة لأنه استطاع إقناع المغربي بأنه ألماني. لا أحد يعلم حقاً كيف اقتنع المغربي أن ألمانياً يحارب في صف الفرنسيين، لكن كون الألمان قد حاربوا إلى جانب العثمانيين ضد الانكليز والفرنسيين شفع له. المهم، فان المغربي أطعمه ورعاه وأوصله إلى قبيلة أوصلته بدورها إلى قبيلة أخرى وهكذا حتى وصل إلى الساحل المغربي، ومن هناك أرشده بعض التجار إلى اليوريكه التي كانت على وشك الرحيل فصعد على سطحها فوراً. قبطان اليوريكه كان مسروراً للغاية لحصوله على عامل فحم، وباول كان أكثر سعادة لوجوده معنا. لم يكن يعرف بعد أن حاله لم يتبدّل قط، غير انه سرعان ما أدرك حقيقة وضعه وأن الهرب من اليوريكه أصعب بكثير من الهرب من الفيلق. وبعد أن أنهى العمل في مناوبة سقط فيها ثلاثة قضبان حديدية ساخنة من فرن واحد وخمسة من آخر، تمنى الرجل في تلك اللحظة لو أنه لم يهرب أصلاً من الفيلق الأجنبي. حاولت مواساته والتخفيف عنه لكن باول الذي عانى في رحلة الهرب الشاقة والطويلة بدأ يبصق دماً وساء حاله. في آخر مناوبة عمل أعدته بنفسي إلى المهجع ووضعته على السرير بعد ان تقيأ دماً على الفحم الذي كان ينقله إلى الفرن، وفي الصباح حين حاولت إيقاظه. كان

ميتاً. كان الدم يغطي ملابسه الرثّة، والقبطان لم يخلع حتى قبعته لدقيقة احتراماً للموت بل اكتفى بلمس حافتها بيده. لا مراسيم ولا كفن. وتخلى القبطان على مضض عن قطعة فحم كبيرة شدت على رجلي باول قبل أن نرمي بجسده البائس إلى البحر. الشركة لم تذكر اسمه في سجّلها ولم تنعاه في صحيفتها. غادر الرجل العالم كأنه ذرّ في الريح.»

40

باول لم يكن عامل الفحم الوحيد الذي ابتلعته اليوريكه في عهد ستانيسلاف عليها؛ فقد كان هناك كورت، الشاب القادم من منطقة نهر نيمان في روسيا البيضاء التي كانت جزءاً من ألمانيا واقتطعت منها بعد الحرب وأصبحت مستقلة. في الفترة المحددة حسب اتفاقية فرساي، قمة ما تمخض عنه غباء القوة، لأختيار أحد الجنسيتين، الألمانية أو جنسية أمة وليدة لا تعرف بعد ما هي فاعلة بنفسها، كان صاحبنا يتسكع في أستراليا لكن دون أن يلقى القبض عليه ولاحقاً بعد أن انتهت الحرب شعر الغريب بالحنين إلى الوطن فقرر العودة إلى ألمانيا، لكنه كان تورط دون قصد في إضراب، وعلى وجه الدقة في عراك مع كاسري إضرابات تعرض فيها أحدهم للضرب المبرح فمات وكورت كان افتراضاً أحد المشاركين في ضرب الرجل ومطلوباً لدى الشرطة! لذا لم يستطع الذهاب إلى القنصل الألماني. فلو كان كورت قد ألحق ضرراً بالجيش الأسترالي لبذل القنصل أقصى الجهود لإخراجه من أستراليا لكن التورط بنشاط عمالي والمشاركة في إضرابات والهجوم على مصالح الرأسمالية هو شأن آخر تماماً؛ ففي تلك الحال يتحد جميع القناصل بغض النظر عن حقيقة أنهم قبل شهور قليلة خلت كانوا مستعدين لذبح أحدهم الآخر، ولقام القنصل الألماني بنفسه بتسليم كورت إلى الشرطة

الأسترالية فوراً، أو في الأقل لأرشدها اليه. القنصل دائماً في صف القانون والى جانب سلطة الدولة.

نجح كورت بطريقة ما في الصعود إلى سفينة إسبانية دون أوراق ووصل إلى انكلترا، لكن الوضع لم يتغير، وكان عليه هناك الذهاب إلى القنصل الألماني الذي أراد معرفة سبب مغادرته أستراليا وعدم لجوئه للقنصل الألماني هناك، ولماذا جاء إلى انكلترا بطريقة غير قانونية دون أوراق. لم يكن في وسع كورت أن يقول الحقيقة؛ فانكلترا كانت ستعيده فوراً إلى أستراليا حيث السجن في انتظاره. لكن ما كان لحنين الرجل إلى وطنه ليهدأ حيث كل شيء في القنصلية يذكّره بوطنه، فغلبه الشوق وبدأ ينتحب، فصرخ به القنصل مؤنباً ومقرّعاً مهدداً إياه بالطرد إن هو واصل نحيبه المفتعل! وقال انه يعرف أمثاله من المحتالين والرعاع. الجواب الوحيد الذي خطر ببال كورت هو شجّ رأس القنصل بساعة رملية مصنوعة من الزجاج السميك كانت على منضدته، فأخذ الرجل ينزف ويولول من الألم وسارع إلى الاتصال بأقرب مركز للشرطة لكن كورت فرّ هارباً بسرعة، وعند البوّابة ضرب حارس القنصلية الذي حاول الإمساك به وصار بلمح البصر في الشارع. ما كان على كورت الذهاب إلى القنصل أصلاً، فلم يكن بإمكان هذا أن يساعده. وكالمعتاد لن تكفي صلاحياته لتقديم العون أو القيام باستثناء؛ فالقنصل مجرد خادم للدولة الطاغية. بهذا صار كورت بمثابة المحكوم عليه حكماً نهائياً بالموت ولن يتسنى له رؤية وطنه ثانية، وها هو موظف رسمي في الدولة يشهد أن حنينه مجرد تمثيلية، فما الذي يعرفه موظف الدولة عن الحنين إلى الوطن ـ هه؟ ألا يحق للمتشرد في الأرض والفقير والبائس أن يشعر بالحنين لوطنه؟ هل تلك المشاعر هي حكراً على ذوي البذلات الأنيقة والياقات البيضاء والمناديل النظيفة؟ نعم يا سيدي.

شخصياً لم أعد اشعر بالحنين. تخلصت منه، برئت منه تماماً تعلمت عبر الألم

وخيبة الأمل أن ما يفترض أنه الوطن، البلد الأم الذي لا يستطيع أي شخص في الدنيا، رئيساً كان أم امبراطوراً، أن يسلبك إياه، تعلمت أنه مجرد شيء معلّب ومحفوظ باضبارة في دوائر الجوازات ومكاتب القناصل. صار للوطن هيئة موظف الدولة الرسمي وأشكال رجال يتمتعون بكل الصلاحيات ليدّمروا تماماً كل المشاعر الحقيقية التي تحملها تجاه بلادك، فيخلصونك من حبك لوطنك فلا يعود له أدنى أثر فيك على الإطلاق.

كورت أفلح في الصعود إلى سفينة إسبانية كانت مغادرة انكلترا في نفس اللحظة التي كان هو بأمس الحاجة إليها، لكن الطاقم كان مكتملاً، لذا كان عليه النزول منها حين وصلت موطنها فظل الشاب يتنقل من ميناء إلى آخر وقد أعياه التشرد والجوع بحثاً عن سفينة، حتى وجد اليوريكه فصعد عليها كعامل فحم. لم تكن اليوريكه قد سمعت يوماً باجراءات حماية أمن وسلامة العمال، ولم يكن عليها أياً من أدوات الوقاية، فذلك سيكلف الشركة مالاً لا تريد إنفاقه وتكون تلك الأدوات حجر عثرة في طريق العمال وتعيقهم عن إنجاز عملهم. سفن الموت ليست رياض أطفال أو أماكن للنزهة. كن حذراً ويقظاً وأنت تعمل، فإذا احترق جلدك أو انسلخ بين آن وآخر أو فقدت إصبعاً أو كسرت ساقاً فذلك اللحم أو الإصبع فاسد أصلاً لا قيمة له. اعملْ بشكل جيد ولن تكون بحاجة لأي من أدوات السلامة. الأنبوب الزجاجي على سطح المرجل هو بمثابة ساعة مقياس لمعرفة مستوى الماء في الأنابيب في جدران الفرن، ذلك المقياس لم يكن له سياج مشبّك عازل الذي يفرضه قانون السلامة في كل العالم. يوماً وحين كان كورت في مناوبة عمل، انفجر المقياس وتسربت منه فوراً سحابة كثيفة من بخار الماء المغلي. عادة يكون لكل مرجل صمام أمان مرفق بعتلة طويلة يمكن بواسطتها إغلاق أنبوب الماء المؤدي إلى المقياس في حالات الخطر، وحالما ينغلق الصمام فلا يمكن للبخار أن يتسرب خارج ساعة المقياس التي تعرضت للكسر أو الانفجار حتى يجري استبدالها بأخرى جديدة دون أن

يتعرض العامل المسؤول عن تبديلها إلى أدنى خطر. لكن حتى تلك العتلة لم تكن موجودة على الصمام؛ فهي لم تكن موجودة على سفن الفينيقيين فلماذا بحق الجحيم تتوفر على اليوريكه؟! كل ما توفر كان مقبض حنفية عادي يقع مباشرة تحت أنبوبة المقياس الذي من المفترض أن يوقف، حين يغلق فوراً، تدفق البخار والماء المغلي المتسرب بفعل الانفجار. لكن في أقل من نصف دقيقة كان المكان قد غرق في الضباب الكثيف للرذاذ الساخن وانعدمت إمكانية الرؤية ناهيك عن إمكانية البقاء فيه دون التعرض للحرق. لكن كل ذلك ما كان ليشكل عذراً مقبولاً لعدم إغلاقه، إذ لابد من ذلك لأن ضغط البخار سينخفض بسرعة وستتوقف المحركات عن العمل في أية لحظة ويتسبب في حدوث تأخير أو إلحاق الضرر بالسفينة أو فقدان السيطرة عليها إذا ما كانت السفينة قريبة من الشعاب الصخرية وفي مياه ضحلة، لكن من هو المسؤول عن القيام بذلك؟ عامل الفحم طبعاً ومن غيره، أوضع وأقذر شخص في طاقم السفينة هو الذي عليه أن يضحي بنفسه من أجل أن تظل اليوريكه قادرة على السير. كورت هو من أدار مقبض الحنفية ليغلق الأنبوب فارتفع الضغط ولم تتوقف المحركات ولو لثانية واحدة ولم يفقد ربان السفينة، الضابط الأول، في برج القيادة السيطرة على السفينة ولو للحظة واحدة وسقط كورت بعدها على كومة الفحم مغشياً عليه، فحمله المهندس الثاني وميكانيكي المحرّكات إلى المهجع. **«لم تسمع صراخاً في حياتك كصراخه من الألم أخبرني ستانيسلاف «لم يكن باستطاعته الاستلقاء لا على ظهره ولا على بطنه ولا على الجانبين، كان جلده المسلوخ يتدلى من نواحي جسده المحترق مثل قميص ممزق، تعلوه الفقاقيع الكبيرة، لو تم نقله إلى مستشفى، لست أدري، لكن لربما استطاعوا هناك مساعدته ورمموا له جلده. آه كم تمنيت لو أن القنصل الذي رفض منحه الجواز سمع صراخ كورت لأنه لن يعود قادراً أبداً على محو صداها من ذاكرته ولعرف أن ورقة تافهة كالجواز هي السبب في أن يلقى شاب مثل كورت هذا المصير المريع. لكن أولئك السادة**

القناصل الجالسين خلف مكاتبهم يقضون الساعات الطوال في خربشة الأوراق وحشو الاضبارات بالأوراق والاستمارات ويرسمون ابتسامة منافقة على وجوههم، وأنت تقف أمامهم تطلب منهم ورقة أو جوازاً ليعينك على دنياك.

الشجاعة في ساحة الحرب؟ هراء، الشجاعة هي في ساحة العمل. بالتأكيد لن تحصل هنا على وسام أو تقدير لعملك، فأنت لست بطلاً بل مجرد عامل حقير أو شيوعي يثير المشاكل ويتذمر من الأوضاع. كورت ظل يصرخ من الألم حتى الموت. في المساء ألقوه إلى البحر بعد أن شدوا إلى قدمية قطعة فحم ثقيلة تجّره معها إلى الأعماق. نظر المهندس الثاني إلى جثة الفتى وهي تغوص فقال «اللعنة والآن نحن بدون عامل فحم مجدداً.» هذا ما قاله المهندس الثاني، صاحب الشأن نفسه المسؤول عن التصليحات التي لا علاقة لعامل الفحم، كورت المسكين بها. اسمه لم يذكر في صحيفة الشركة، بل اسم المهندس الثاني على أنه الذي أنقذ السفينة من التأخير. نعم يا سيدي.»

41

كنت قليل الكلام مع بقية أفراد الطاقم؛ إذ كانوا على الدوام مكفهّرين ومُرهقين ونعسانين، هذا إن لم يكونوا ثملين جداً كما هو الحال باستمرار حين نرسو في احد الموانئ. لكني لو توخيتُ الدقة والصدق، كانوا هم من تجنّبوا الكلام معنا، أنا وستانيسلاف. نحن في نهاية المطاف لم نكن سوى عمال جرّ عربة الفحم، وعامل الفحم هو في الدرك الأسفل في تراتب الطاقم؛ فهو بعيد كل البعد عن البحّار المُرخّص كامل الأهلّية، بل إنه أقلّ منزلة حتى من العامل البسيط على سطح السفينة. كُلّ أولئكُ يُعدّون سادةً مقارنةً بعامل الفحم. هذا الذي يتمرّغ في القذارة والرماد فيصبح بدوره مجرد قذارة ورماد. إذا لمسته فإن

يدك سوف تتسخ، وهكذا فإن عامل الفحم ليس سوى حشرة صغيرة أمام النجّار أو ميكانيكي المحرّكات.

العامل وحده هو الذي يفهم تماماً تلك الفروقات في المراتب والصفوف مهما كانت ضيئلة ودقيقة. الفروقات موجودة أيضاً بين عمال المصانع على اليابسة. لكن التمايز لا يختفي، حتى بين الموتى أنفسهم، بل إنه يكاد يكون أكبر وأكثر وضوحاً؛ فذاك الميت المطمور قرب جدار ما، لأن عليه أن يرقد في بقعة ما، هذا الميّت هو نكرة لا قيمة له. أما ذاك الميّت المدفون في تابوت مصنوع من خشب الصنوبر؛ فإنه ميّت له شأن. في الليل حين يستقيظ الموتى ويرقصون، فإن ذلك المسجي في تابوته النفيس لا يلقي مجرد نظرة إلى ذلك الميت المدفون قرب الجدار، بل يرنو بشوق صوب أولئك الموتى الذين يرقصون مع توابيتهم النفيسة المصنوعة من خشب البلّوط. لكنه لا يجرؤ على النظر إلى أولئك الموتى أصحاب التوابيت المزيّنة بالذهب والنقوش؛ لأنهم لن يسمحوا بذلك. ومن أجل الحفاظ على المقامات من البداية، يجري الدفن في توابيت مختلفة؛ من تابوت خشبي بائس كصندوق يُطمر في الأرض، إلى المواراة في الثرى بتابوت معدني نفيس مطعّم بالزخارف والذهب.

وحده الدود، تلك الأداة الثورية للتغيير والترتيب، لا يلقي بالاً للتمايز والفروق.

النجّار وميكانيكي المحركات ومساعد الربّان، مثلاً، كانوا بمثابة ضباط صغار على السفينة، لكن منظرهم كان قذراً وبائساً مثلنا تماماً كما أنهم ما كانوا يفوقوننا خبرةً في البحر؛ بل إن عملهم ما كان بنفس الأهمية كعملنا المنضبط لسير اليوريكه. ومع ذلك كان على عمال الفحم أن يقوموا بخدمة هؤلاء جميعاً؛ نجلب لهم الطعام من المطبخ ونرفع الأطباق بعد أن ينتهوا، كل ذلك حتى لا يتزعزع النظام التسلسلي ولا تتعرض المقامات والرُتب إلى الفوضى والخلط.

ثم يأتي البحّارة المرخّصون يليهم عمال السطح. ورغم أن ستانيسلاف بمفرده كان يعادل البحارّة المرخصين الثلاثة مجتمعين بمهاراته وعمله، لكنه كان مجرد قذارة، لا أكثر. ومع ذلك فإن الكلّ كانوا في عداد الموتى وفي انتظار أن يصبحوا طعاماً للأسماك.

لكن مع الوقت، وتدريجياً، نما شعورٌ جمعنا سوياً؛ وهو الانتماء إلى مصير واحد. كلّنا كنا في انتظار الفناء، حتى لو لم يعترف أحدٌ بذلك وظل يأمل بالنجاة في آخر لحظة. الكلّ كان في مواجهة مصير المجالدين حتى الموت، الكلّ كان يدرك ذلك لكن ما من أحد كان ينطق به. البحّارة لا يتحدثون جهاراً عن غرق السفن؛ فذلك يجلب سوء الطالع، لكن بالذات هذا الترقّب وهذا الهاجس غير المنطوق، وزلزال الانتظار وعدّ الأيام بين المرافيء، هذا الأحساس غير المحكي بأن النهاية آتيةٌ لا محالة، مهما طالت الأيام، حين يأتي اليوم الذي لن يكون القتال الضاري فيه سوى من أجل البقاء على قيد الحياة، هو ذاته ما جعلنا نلتحم مع بعضنا البعض برباط عجيب ونحن نواجه معاً مصيرنا المحتّم.

لم يكن أحدٌ ينزل بمفرده قط إلى الميناء، بل كان إثنان من الرجال أو حتى ثلاثة منهم ينزلون معاً. منظرنا كان أكثر بؤساً من لصوص البحر، ولم نكن لنحتك بطواقم السفن الأخرى بسبب قذارتنا وملابسنا الرّثة، ولأنهم تجاهلونا تماماً؛ إذ كان بإمكاننا أن نقول ونفعل ما نشاء دون أن يلقي إلينا أحدٌ بالاً على الإطلاق.

وحين كُنّا ندلف إلى خمّارة ما للبحّارة، كان صاحبها يرتعب من دخولنا ويجتهد كي نغادرها سريعاً، رغم أننا كنا ننفق فيها كل ما نحمله في جيوبنا لكن صاحب الحانة ما كان ليصرف أنظاره عنّا ويظل يراقبنا حتى ننصرف. يبدو أن العمل المضني والشاق على اليوريكه، وحالة الضياع الغريبة التي توحدّنا،

والتوتر المزمن في انتظار صرخة اليوريكه وهي تقاوم الموت؛ كل ذلك خلّف بمرور الزمن آثاراً في وجوهنا جعلت الآخرين ممن لا ينتمون إلى السفينة يشعرون برعبٍ لا مثيل له من هول منظرنا. لا بد من أن شيئاً رهيباً في عيوننا ووجوهنا كان يجعل وجوه النسوة تشحب، أو يدفعهن للصراخ أحياناً إذا ما صرنا فجأةً في مجال رؤيتهن. حتى الرجال كانوا يتوجسون خشيةً منّا؛ حيث كانوا يستديرون ويُغيّرون طريقهم كي لايضطروا إلى المرور بالقرب منّا. أما الشرطة؛ فكانت تطاردنا بنظراتها حالما أبصرت طرفاً منّا.

الأمر الغريب حقاً كان مع الأطفال، فبعضهم كان يصرخ ويهرب كالممسوس بعيداً حين يرانا، بينما البعض الآخر يظل واقفاً ويتفحّصنا بعيون جاحظةٍ من الدهشة، في حين كان أطفالٌ آخرون يلاحقوننا متقطعي الأنفاس وكأنهم يرون فينا أشكالاً كانت في أحلامهم وقد تجسّدت في الواقع. أطفال آخرون، وهو الأمر الأكثر غرابة، كانوا يقتربون منّا ويمدون إلينا أياديهم ليصافحوننا ويبتسمون لنا قائلين: «نهاراً سعيداً أيها البحّار!»

من بين هؤلاء الأطفال الذين يصافحوننا، كان هناك أيضاً من ينظر إلينا فجأةً بعينين مندهشتين جاحظتين وفم فاغر، ثم يُحدّق بنا قبل أن ينطلق هارباً لا يلوي على شيء.

هل كُنّا يا ترى أمواتاً لهذه الدرجة كي ترى روح الطفل الموت في هيئتنا وتشعر به؟ هل يا ترى كنا نظهر في أحلام هؤلاء الصغارحين كانوا أجنّةً تحملهم أمهاتهم تحت قلوبهن. هل ثمّة حبل سرّي غامض يربط بيننا، نحن الذاهبين إلى الموت، وبين أرواح الأطفال الذين تخطّوا، على التوّ، عتبة الحياة وما زالوا يحملون في طيات وعيهم ظلال العالم المجهول؟ نحن ذاهبون وهم آتون، القُربى تكمن في النقيضين.

نعم، لم نكن نظيفين حقاً يوماً، لأنك لا تسطيع الاغتسال بالرماد والرمل. وحين تظن أنك قادرٌ على شراء قطعة صابون في الميناء، يكون المال قد أُنفق على أشياءٍ أخرى بدت ضرورية أيضاً، الخمرة وسواها.

كنا نجيد الغناء أيضاً، لكنه كان صراخاً يائساً.

وكان يصدف أحياناً أن نذهب لنحلق لحانا، طالما كان ثمة مال في حوزتنا. يحدث ذلك حين لا نعودُ نتعّرف على أنفسنا ونحن نرى صورتنا منعكسة على زجاج واجهات المحلات التجارية، لأن لا أحد منّا كان يمتلك مرآة، وهذا شأنٌ جيد؛ فحين لا ترى نفسك، يكون منظر الآخر هو المريع وهو الذي يدعو النساء إلى الصراخ والاختباء في البيوت هرباً منك.

لم نَرْسُ في ميناء كبير قط. كنا نجوب السواحل الإفريقية أو سواحل سوريا، ونادراً ما اقتربنا من أرصفة الموانيء الكبيرة في إسبانيا أو البرتغال؛ ففي الغالب كنا نبقى في مرسى بعيد عن الرصيف ونحصل على حمولتنا عن طريق الزوارق والمراكب. القبطان يعرف بالتأكيد سبب بقائه بعيداً عن أرصفة بعض الموانئ، كان يكتفي بإعطاء إشارة لزورق ليأتي إليه ينقله إلى الرصيف من أجل تسوية المعاملات الورقية عند القنصل أو لدى دوائر الميناء.

لا وجود لسفن الموت؛ إذ لا يراها أحدٌ في الموانئ؛ فهي هناك في البعد تجوب كل بحار العالم حيثما يصلح خور أو خليج ما أن يكون مرسىً لها.

42

لم يكد ينقضي نصف يوم على مغادرتنا ميناء طرابلس حين اعترضتنا عاصفة قوية. كنت في غرفة المرجل فوجدت نفسي مرمياً على كومة من الفحم، وفيما أنا أحاول النهوض وقع بصري بالصدفة على أنبوبة المقياس الزجاجية للمرجل

وتذكرت كورت ومصيره فجال في بالي لوهلة السؤال «هل كنت سأقفز، لو انفجرت، إلى الانبوبة المكسورة وأغلق الصنبور الواقع تحتها مضحّياً بروحي الغالية كما فعل كورت كي لاتتأخر اليوريكه حين ينخفض ضغط بخار الماء في أنابيب المرجل؟ كلا لم أكن لأفعل ذلك قط! لن أكون شجاعاً، سأفسح المجال لشخص آخر يود أن يكون بطلاً، لكن من ذا الذي يستطيع أن يجزم بما سيفعله في تلك اللحظة حين يكون على المرء أن يتخذ قراراً بلمح البصر حتى دونما سؤال أو أمر ودون تفكير بالعواقب أياً كانت؟ قد يكون عامل الفرن في الجوار عالق هناك ولا يستطيع الفرار لسبب ما، فهل سأترك رفيقي لمصيره؟ ماذا تراني فاعلاً وأنا أسمع صوته يناديني «يا بيبه، بحق الجحيم أخرجني من هنا، البخار يسلقني حتى الموت، لم أعد أستطيع رؤية شيء، لقد احترقت مقلتاي يا بيبه، هيا أسرع وإلا قضيت.» ماذا؟ هل ستحاول الهرب ولتنجو بنفسك تاركاً رفيقك ملقى هناك، لا، فحتماً سوف تقفز اليه ملبياً النداء حتى وأنت تعرف أنك قد تموت معه.

«**بيبه، هيا ابتعد إلى الخلف، لا تنظر أمامك، هيا تحرّك يا بيبه.**» صرخ عامل الفرن بصوت غطى على صوت المحرّكات. قفزت فسقطت على ركبتيّ حيث اعترض طريقي المحراك الحديدي للفرن ثم دوّى صوت وجلجلة صمّت الآذان وشلّت الحركة. رغم الرماد الأسود الذي غطى وجهه كان وجه عامل الفرن شاحباً جداً، نعم حتى الموتى يصيبهم الشحوب. استجمعت نفسي ووقفت أتحسس جروح ساقي وأدرت وجهي لأرى ماذا جرى.

قمع الرماد كان هوى فجأة، ذلك الأنبوب العمودي الثقيل الذي يشبه مدخنة، تلك الماسورة المصنوعة من صفيحة حديدية يبلغ طولها ثلاثة أمتار وسمكها قرابة المتر ووزنها يزيد على الطن المرتفعة عن أرضية غرفة المرجل بقرابة ثلاثة أمتار، ذلك النفق المعدني الذي يتم عبره سحب دلاء الرماد إلى

الأعلى كي يتم تفريغها في البحر قد هوى فجأة. ربما انكسرت واحدة أو أكثر من حلقات السلاسل القصيرة الأربعة التي تثبته على طرفي فتحة المخرج، وربما كانت العاصفة هي السبب، وربما السبب في النهاية ليس مهماً فالذنب ذنبك أيها البحّار البائس، أيها العامل الفقير لأنك لو ابتعدت في الوقت المناسب عن الخطر لما أصابك سوء. يا عامل الفرن لقد أنقذت تلك القفزة حياتي فور سماعي صرختك وتحذيرك حين صحت: «بيبه ابتعد، عد إلى الوراء.» لم أفكر بل قفزت كالقرد وها أنذا مازلت حيّاً. فالعمل على اليوريكه يشحذ الغرائز البدائية وتبقيك حذراً في الصراع من أجل البقاء.

نعم يا صاحبي ياعامل الفرن، كانت قفزة في اللحظة الحاسمة. أشكرك؟ ولماذا؟ فغداً يأتي دوري وبعد غد ستانيسلاف فمن يعلم من سيكون التالي ومن ستصيبه الرصاصة القاتلة القادمة، فنحن في ساحة حرب. سأنزل في الميناء القادم وأهرب وأعلم أن السفينة التالية ستكون كاليوريكه سفينة موتى، لكني قبل أن أصعد عليها سأتنفس الحرية لوهلة. وكأن ستانيسلاف كان يلتقط أفكاري.

في الميناء كان علينا أن نكون حذرين لأن عيون الشرطة ترقبنا خشية أن يفكر أحدنا بالابتعاد عن المرفأ والوصول إلى أطراف المدينة. فالشرطة كانت ستعيدنا فوراً إلى السفينة، وكان القبطان سيضطر لدفع تكاليف إلقاء القبض على البحّارة الفّارين وهو ما سيستقطعه بطبيعة الحال لاحقاً من أجورنا، وسنجد أنفسنا ثانية راكعين أمام القبطان نتوسله أن يعطينا سلفة لنشتري كأساً من الخمرة الرخيصة في بارات الميناء. لم تفلح محاولة الهرب في طرابلس؛ فالمراقبة كانت شديدة وأي محاولة للبقاء على الساحل كانت ستفشل.

حاولنا ثانية في بيروت. كنا في أحد البارات في انتظار أن تغادر اليوريكه وتتركنا لمصيرنا لكن فجأة، وحين تصّورنا أن اليوريكه لم تعد راسية في الميناء،

دخل شخصان: «بحّارة؟ ألستما من اليوريكه؟» لم نقل شيئاً، بقينا صامتين. لكن هذين الطائرين لم يكونا يريدان جواباً منّا بل أرادا أن يخبرانا بأن سفينتنا قد رفعت العلم الأزرق وعلى وشك الرحيل وأنهما لايريدان لنا أن نفوّت سفينتنا وقالا أنهما سيرافقاننا اليها بسرور.

بعد أن صعدنا إلى السفينة خائبي الرجاء، ظل الطائران واقفين على الرصيف حتى تأكدا أن اليوريكه صارت بعيدة في عمق المياه ولا يمكن لفّار منها أن يعود إلى الميناء سباحة. نعم. حقاً هناك الكثير من البشر الرائعين في بعض الموانئ الذين يحرصون شخصياً على عودتك إلى السفينة ويظلون ينتظرون على الرصيف مودّعين حتى تختفي آخر غيمة دخان للسفينة.

على أية حال فإن ستانيسلاف قال «لا مفر آخر للهرب من اليوريكه. وإذا ما حالفك الحظ فعلاً وتمكنت من الهرب فإنهم سيجدونك بعد يوم أو يومين وسيقتادونك إلى سفينة أخرى للموت، لا خيار آخر أمامهم لأنهم لن يستطيعوا ترحيلك إلى وطن لا تملكه.»

ـ «لكن يا لافسكي، كيف يمكنهم أن يجعلوك تصعد للعمل على سفينة؟ هل يستطيعون ذلك؟»

ـ «نعم وسأخبرك كيف. القبطان بحاجة دوماً إلى عمال بل انه يدفع لهم القليل من المال ليجلبوا أمثالك للعمل على سفينته، وسيحلف أغلظ الايمان انه استأجرك للعمل شفوياً ودفع لك سلفة من أجرك حين التقاك في حانة. ما يقوله القبطان هو الصحيح دوماً فهو رجل رفيع الشأن أما البحّار، ذلك السكير البائس، فإنه دائماً على خطأ. طبعاً أنت لم تكن رأيت القبطان في حياتك وهو لم يرك أيضاً لكنه بحاجة اليك ولذلك يعلنك بحّاراً فارّاً وجب سوقه للسفينة وأنت لن تحاول اللجوء إلى المحكمة. كلمتك مقابل كلمة القبطان والشرطة فماذا تفعل؟ يغرمونك ويتركونك للقبطان وستعمل بعدها لنصف عام دون أية

سلفة من أجرك لأنك تعمل لتسديد تلك الغرامة التي دفعها القبطان عنك.»

استمعت صامتاً لقصص الاستعباد الحديث وظننت أنه يبالغ فقلت: «يا لافيسكي، لكن لا بد من عدالة ما في هذا العالم.» فقال:

- «إنها تجربتك الأولى لكنها الرابعة بالنسبة لي وأعرف ماأقول.»

- «لكن كيف يمكن لأحد أن يرغمك. أنا صعدت بكامل إرادتي على اليوريكه.»

- «نعم. في المرة الأولى يصعد الإنسان بنصف إرادته الحرة. فلو كان حالك مختلفاً ما كنت صعدت إليها طوعاً وإذا ما حاول أحد اختراع قصة الاتفاق على عمل في حانة وأنك بحّار هارب فستقول أريد الذهاب إلى قنصلي وسيتوجب عليهم أن يدعوك تفعل ذلك وقد يرافقونك إليه. وحين يعترف القنصل بك مواطناً يتركونك لحالك وينسحبون ولن يكون للكلام عن الاتفاق الشفوي في البارات قيمة بل سيكون على القبطان الاجابة على أسئلة القنصل حول وضع الطاقم وأجوره وجودة طعامه ونظافة مهاجعه، إلخ. قل الآن يا صاحبي، هل تستطيع الذهاب إلى القنصل؟ هل تملك أوراقاً؟ هل عندك وطن؟ إذن هم قادرون ان يصنعوا بك ما شاءوا. إذا لا تصدق فجرّب، هيا إنزل من السفينة وانظر ماذا سيحّل بك.»

- «أما زال الدفتر بجدول ساعات عملك في السفن الدنمركية معك؟» سألت صاحبي.

- «ياللسؤال الغبي، فلو كان معي ما كنت هنا معك، لقد بعته بعشر دولارات حين حصلت على الجواز الجميل في هامبورغ. بالنسبة للشخص الذي اشتراه مني كان يساوي مائة دلار لأنه أراد مغادرة هامبورغ بأية وسيلة.»

- «لماذا لم تجرّب حظك مع الجواز الجديد في مكان آخر بعد أن رفض القنصل الدنمركي تسجيلك للعمل على السفينة؟»

- «طبعاً جرّبت يا بيبه وحصلت على سفينة سويدية. القبطان كان مشغولاً جداً ولم يجد الوقت ليأخذني إلى القنصل وكانت السفينة في وضع مغادرة أصلاً، ولكن حين طلب رؤية أوراقي أظهرت الجواز الأنيق الجديد فتفحّصه مندهشاً ثم قال «آسف يا بني، لا يمكنني أخذك معي، فلن أستطيع التخلص منك أبداً لاحقاً، كلا لا أستطيع.»

- «لكن الألمان كان سيقبلون بك»، قلت معلّقاً ومستفسراً «لن يرفضوك وأنت تحمل جوازاً ألمانياً.»

- «الحقيقية يا بيبه قد حصلت على باخرة ألمانية جيدة لكن الأجر كان حقيراً جداً، لكنني قلت لنفسي لا بأس في البداية فلأبقى عليها وأقوم بعدّة رحلات. لكن حالما نظر القبطان إلى جوازي صاح: «نحن لا نستخدم بولونياً نتناً، هيا إخرج هذه سفينة ألمانية محترمة». ثم حتى لو كنت بقيت على تلك السفينة فإن الجميع كان سيسمعوني طيلة اليوم الاهانات والشتائم وأبشع النعوت وسيقيموني ويقعدوني واصفين إياي بالبولوني القذر والخنزير والجشع وهذا ما لا أحتمله، وهكذا نزلت من الباخرة الألمانية وصعدت إلى اليوريكه فتلك أرحم فلا يعيّرك أحد بأصلك وفصلك أو بقوميتك أو بوطنك، فليس لأحد وطن.»

مرّت الأيام وبلمح البصر كانت أربعة شهور كاملة قد انقضت منذ أن صعدت للعمل على اليوريكه، وكنت قد ظننت أني لن أحتمل البقاء عليها يومين اثنين فقط.

تعوّدت على اليوريكه واكتشفت أنها مكان يمكنني العيش فيه والضحك أيضاً. الطعام لم يكن سيئاً جداً كما بدا لي، كما كنا نحصل بين الحين والآخر على فطور ما بعد العاصفة ونصف قدح من النبيذ في أحيان أخرى. تعودت على قذارة المهجع وعلى كل شيء، ومع كل يوم يمر كان المكان والرفاق يبدون أقل وساخة وزال إحساسي بالقرف لأن العيون المرهقة النعسانة لا تبالي ولأن الجسد المتعب حد الاعياء لا يشعر بقساوة السرير الخشبي العاري؛ فهمّه هو أن يهجع وينام. نعم أنت تنظر إلى نفس الأشياء لكنك لن تعود تراها كما رأيتها في المرة الأولى.

لا يا سيدي لست منتقداً لليوريكه، فهي كانت سفينة محترمة وزادت احتراماً مع الوقت. كما وجدت في ستانيسلاف رفيقاً صادقاً يحلو الحديث معه. كان رجلاً ذكياً وأستطيع القول أنه كان سيّداً حقيقياً وقد سافر في العالم كثيراً وجمع تجارب تمنيت لو كان للرئيس الأمريكي مثلها. الجميل في شأن سلافسكي ليس أنه شاهد وخبر الكثير وحسب، بل إنه أدرك كنه وحقيقة ما شاهده إذ لا يمكن لكلام أو شعارات أن تضلله، وجعلت الخبرة وتجارب الحياة من كلامه فلسفة عميقة تفوق ما تجده في أسمك الكتب الفلسفية التي كتبها مؤلفون كبار عمقاً وغنى. عاملا الفرن هما الآخران لم يكونا مجرد أداتين لا يفقهان شيئاً آخر سوى العمل في غرفة المرجل، بل كانا رجلين يجيدان التفكير والحديث. وحتى باقي البحارة لم يكونوا أناساً عاديين فأولئك لا يصعدون على سفن الموت لأن حياتهم عادية ومنظّمة ويمتلكون شهادات ميلاد صحيحة وجوازات سفر ويصدقون كل ما يقال لهم وهم ويشعرون بالراحة والرضا.

السؤال الذي ظل يحوم في رأسي هو أين ومتى أنزل من السفينة. تركي للعمل لن يكون معترفاً به في الموانيء طالما كنت لا أحمل أوراقاً ولا هوية من أي

نوع، كما أن القبطان لم يكن ملزماً بمنحي دفتر الأجور وبدونه وبدون أي دليل على اني ولدت يوماً ما في مكان ما فإن سلطات الميناء ستسارع إلى التخلص مني بوضعي على أول سفينة موت ترسو في الميناء. لم يبق سوى طريق واحد للهرب وهو طريق المجالدين في روما القديمة، الهروب إلى الموت، إلى البحر، فقد يحالف البحار الحظ فينجو ويصل إلى الساحل، ساعتها لا يستطيعون إعادته إلى الماء ثانية، سيظنونه بحّاراً نجى من مركب غارق يستحق العطف والمساعدة خاصة من الفقراء الذين يعرفون البحر ويسكنون السواحل. الموتى لا يحصلون على الرحمة ولكن البحّارة الناجين من السفن الغريقة فذلك شأن مختلف. ثم يسمع القنصل بأن بحّاراً نجا من مركب غارق في مكان ما فيمسك به. مصير الرجل لا يهمه قطعاً ولكنه يريد معرفة التفاصيل منه، أين وكيف ومتى غرقت السفينة وما الذي حدث. سيقول: «الآن يا صاحبي كن دقيقاً فيها تروي.» التقرير مهم جداً ليس للعالم وانما لشركة الملاحة المالكة للسفينة التي تريد أن تحصل على قيمة التأمين لأن بدون رواية شاهد العيان سيكون حظ الشركة ضئيلاً في الحصول على قيمة البوليصة وسيكون عليها الانتظار لسنوات. لكن بعد أن يدلي البحّار الناجي بشهادته يرفع التقرير بعد المصادقة والختم إلى شركة التأمين ويقبض مالكو السفينة المفترضة المال للتعويض عن فقدانها. أما البحّار فلن يحصل سوى على جنيه استرليني واحد وسيسمع «آسف. بما أنك لا تحمل دليلاً على جنسيتك فلا يمكنني مساعدتك، لكن لا تحزن فرجل بخبرتك سرعان ما يجد سفينة أخرى، ترسو الكثير منها هنا، إبق هنا في الجوار وستجد حلاً.»

رسونا قبالة ساحل دكار. ميناؤها كان نظيفاً وجميلاً يعّج بالفرنسيين من كل الأصناف. كان لابد من تنظيف أحد المراجل وكان مازال ساخناً لأنه لم يمض سوى نصف يوم على إطفاء النار فيه بينما المرجل المجاور يعمل وينفث بخاراً حاراً. لكن الأدهى أننا ننجز هذا العمل في ذلك الجزء من الأرض القريب من

خط الاستواء، أو ما يسميه العلماء الدائرة التخيّلية. لكن لا شيء تخيلي وأنت تقوم بتنظيف المرجل هناك، حيث ينصهر الحديد من تلقاء نفسه.

دخلنا، أنا وستانيسلاف وعامل الفرن، شبه عراة إلى المرجل وكانت جدرانه الداخلية ساخنة لا يمكن لمسها باليد كما لا نقدر على أن نجثو على ركبنا دون أن نضع خرقة سميكة تحتنا. عليك ان تقوم بعملك وأنت تتلوى بجسدك كالأفعى داخل المكان الصغير والساخن، فتدمع عيناك من الغبار الأسود ويصيبهما الاحمرار والتقرح فتفركهما وتعاود العمل وهكذا إلى أن تنتهي منه. نظارات واقية؟ ما هذا الهراء. إنها تكلف مالاً واليوريكة لا تستطيع تحمل تلك النفقات الإضافية، ثم إنها لم تكن موجودة في الماضي ثم من قال إنها مفيدة؟ فهي قد تحجب الرؤية أو تضغط على الأنف وتحبس حبات العرق وتجعله يصّب في العينين. لو كنا نملك مصابيح كهربائية في الأقل لكان العمل أقل مشقة، لكن مصابيح الإضاءة على اليوريكه تعود لعهد قرطاجة القديمة.

رغم أن المرجل سيمتلئ بالسخام والدخان الأسود، لكن لابد من جلخ جدرانه الداخلية بالمطرقة. وأنت تطرق جدرانه من الداخل تشعر بأن طبلتي أذنيك على وشك الانفجار وكأن آلاف المطارق تضرب الحديد عند رأسك. بعد كل خمس دقائق من الطرق يجب علينا الخروج لنتنفس الهواء والعرق يتصبب من أجسادنا والرئتنان تخفقان بشدة وركبنا ترتجف. الهواء ليس سوى الهواء لا نروم غيره بأي ثمن، ونشعر بهواء البحر كأنه عاصفة ثلجية آتية من القطب! حينها تحس وكأن سيفاً بتاراً ثقيلاً ينغمس في جسدك الذي يصير يرتجف من البرد فتريد العودة ثانية إلى الجمر الساخن في المرجل. خمس دقائق أخرى تمر فنستشعر مجدداً الحاجة الشديدة لاستنشاق الهواء.

هناك لحظة تكون الأعصاب فيها على وشك الانفجار، وهي اللحظة التي

تشعر فيها أن عليك الخروج عبر الفتحة الصغيرة للمرجل حيث تحشر نفسك وتلوي أطرافك كي تخرج، وحين يكون رفقيك قد سبقك فإن الفتحة تكون منغلقة تماماً بجسده المحشور حيث لا هواء على الاطلاق، تلك اللحظة البطيئة هي التي تكاد تقتلك. يخرج العامل الأول فأتبعه بينما يفقد عامل الفرن، زملينا الثالث، وعيه داخل المرجل.

- «ستانيسلاف، لقد أغمي على عامل الفرن» ناديت بما تبقى لي من نفس. «إذا لم نهرع لأخراجه فوراً فسيخنقه الدخان.»

- «دقيقة واحدة يا بيبه» قالها ستانيسلاف وهو يلهث يريد هواءً «دعني آخذ جرعة هواء واحدة ملء أنفي.»

كان الدخان الأسود الكثيف داخل المرجل يحجب الرؤية. زحفت عائداً إلى المرجل لأسحب الرجل. من الصعب جداً أن تخرج من الفتحة الضيقة وأنت بكامل وعيك، لكن أن تخرج جسداً لا حراك فيه فهو شأن بالغ الصعوبة. عادة تخرج برأسك أولاً ثم يلي ذاك أحد ذراعيك ثم تتقدم بكتفيك بحيث يأخذ جسمك شكل أسطوانة بعدها تخرج الذراع الثاني ثم تسحب خلفك الجزء السفلي من بدنك عبر الفتحة والقيام بذلك مراراً وتكراراً يجعلك تتقن لعبة الدخول والخروج، لكن أن تُخرج جسداً لا حراك فيه فتلك مهمة صعبة للغاية. أخذنا معنا حبلاً شددناه حول كتفي وذراعي زميلنا كالمومياء وسحبناه إلى الخارج لكننا لم نأخذه إلى الخارج حيث العاصفة الثلجية والسيف الثقيل، بل تركناه في غرفة المرجل قرب المرجل الثاني الذي تشتعل فيه النار ثم قمنا بفك الحبل عنه. لم يكن يتنفس لكن نبضه كان خافقاً بشكل خافت لكن بانتظام. صببنا ماءً فوق رأسه ورحنا نحرّك الهواء أمام وجهه. حين عاد إليه تنفسه حملناه ليصبح رأسه فقط في مجال الهواء الداخل عبر الفتحة بسقف غرفة المرجل،

بينما غطينا جسده بأسمال كي يبقى دافئاً.

لم يهرع أحد إلينا لينجدنا. لم يظهر المهندس الثاني، بل كان يرتشف قهوته مع القبطان ويشتكي من عمال الفحم الكسالى. عاد عامل الفرن إلى وعيه تدريجياً وانتظم تنفسه، وبينما نحن نحمله من فوق كومة الفحم التي كنا نجلس عليها لننقله إلى ركن ليسند ظهره إلى الحائط، جاء المهندس الثاني: «ماهذا، ماالذي يحدث بحق الجحيم؟» صرخ بنا «هل تتقاضون أجركم عن الجلوس هنا والكسل؟». كان علينا، أنا أو ستنانيسلاف أن نقول: «عامل الفرن كان ...» لكن كلانا تملّكه نفس الشعور، وشعورنا الغريزي كان في محلّه. فلو أنصت العمال لحدسهم وشعورهم الغريزي عندها سيتصرفون بالشكل الصحيح.

معاً، ودون أن ننطق بكلمة واحدة، انحنينا وأخذ كل واحد منّا حجرة كبيرة من الفحم وصوّبناها في ذات اللحظة على وجهه. غطى المهندس الثاني رأسه ووجهه بذراعيه ولاذ بالفرار، فمشى ستانيسلاف في إثره بضع خطوات وصاح بصوت جهوري: «أيها القذر لو وضعت قدمك هنا ثانية فسوف أرمي بك إلى البحر عبر زلاقة الرماد وتكون طعاماً لسمك القرش. هيا إذهب واخبر قبطانك وتسبب في قطع أجري لشهر كامل، لكنك لو فعلت فسوف اشبعك ضرباً مبرحاً حالما نزلنا إلى الساحل.»

المهندس لم يبلغ القبطان ولم ينبس ببنت شفة حول ما جرى ولم يقتطع من أجرنا ولا بنسا واحداً! وحتى لو فعل لكان الأمر سيّان لدينا ولذهبنا بسرور إلى الحبس في داكار. في الأيام القليلة التي تلت والتي انشغلنا خلالها بتنظيف المراجل لم يقترب الرجل منا. ومنذ ذلك اليوم صار حذراً جداً ودبلوماسياً في تعامله معنا. تحدث معجزة أحياناً حين تكون مطرقة أو حجراً على مقربة منك وتحسن استخدامها في اللحظة الضرورية.

بعد أن نُظفت المراجل كلها حصلنا على قدحين من الرم وسلفة من أجرنا. أخذناها ونزلنا إلى المدينة. في المرفأ عثرت على سفينة فرنسية كانت ستبحر إلى برشلونة، لكني لم اقتنص الفرصة وأصعد اليها لأني لم أشأ ترك أجر شهر كامل للقبطان، لذا تركت الفرنسية تبحر دوني وكذا ستانيسلاف كان قادراً على الصعود إلى سفينة نرويجية لكن السبب ذاته منعه من الصعود إليها، فأجره لدى القبطان كأن أعلى بكثير من أجري.

اكتفينا بالتجول في المرفأ وتفرجنا على البحارة والسفن. فحيثما يحّل البحّار يتخيل دوماً أنه سيلاقي هناك شخصاً أو يصادف شيئاً أو يعيش حدثاً مفاجئاً يعيد إليه بعض النشوة والإحساس بالحياة.

44

رست «إمبراطورة مدغشقر»، سفينة انكليزية تزن تسعة آلاف طنّاً وربما أكثر. نعم، ذاك دلو عائم يحلو معه الابحار بعيداً. سفينة جديدة محترمة ونظيفة الطلاء لكن لا سبيل لإغواء تلك الأنثى الفتية المتبرجة، وهاهي تبتسم بدلال عن بعد وتتغنج. مجرد النظر إليها عن بعد هو متعة وسرور. آه لو لم يكن لي أجر مؤجل لدى القبطان كنت ذهبت إليها وعاينتها عن قرب، لكني لن أتخلى عن أجري وأتركه للقبطان. ليتني أحمل المهندس الثاني على طردي من اليوريكه لكنه لن يفعل مهما اختلقت من مشاكل، وإن بالغت فسيخصم أسبوعين من أجرك الشهري وستعمل بالمجان ولسان حاله يقول: إفعل ما تشاء لكن لا نزول من اليوريكه.

لو أن الامبراطورة أبحرت قبل سفينتنا وصعدت للعمل عليها حسب قانون الاضطرار البحري فالى أين تأخني معها؟ إلى انكلترا؟ لا يحق لها أن

تأخني إلى هناك ولن يمكنها التخلص مني وسيكون عليها ذلك ولكن كيف وفي أي ميناء يمكنها أن تتركني؟ هل ستدفعني للصعود إلى سفينة موت أخرى تصدف أن تكون راسية في ميناء ما أو تصادفها في عرض البحر؟ لكن السؤال لا يكلفني شيئاً.

ـ «**مرحبا!**» صحت من الرصيف نحو الأعلى.

ـ «**أهلاً، ماذا تريد؟**» أطل من الأعلى رجل على رأسه كاسكيت أبيض.

ـ «**هل من فرصة للصعود والعمل كفرّان أيها الشاب؟**» ناديت رافعاً رأسي نحوه.

ـ «**ألديك أورق؟**»

ـ «**صفر.**»

ـ «**آسف، قضي الأمر.**»

كنت أعلم ذلك، فتلك آنسة محترمة وكل ما يخصّها وحولها يجب أن يكون أصولياً وقانونياً، فتلك آنسة من بيت عريق ولها أم صاحبة الشأن والقرار عليها، هي شركة لويد في لندن، فلا يمكنك الاقتراب من الامبراطورة دون رخصة الزواج القانونية اللازمة.

مشيت قربها، من بدايتها حتى نهايتها، أتفرج على طاقمها يلعب الورق على السطح وكنت قريباً كفاية لأفهم كلامهم. كانوا يتحدثون بلغة انكليزية تليق بسفينة جديدة ونظيفة، ثم انهم لا يتشاجرون ولا يسبون ويلعنون ولا يغشون. اللعنة ماهذا؟ في حياتي لم أر بحارة يلعبون وتعلو وجوههم هذه الجدّية. ثم ماذا تفعل سفينة انكليزية هنا في داكار؟ وماهي حمولتها؟ حديد خردة؟ من يصدّق ذلك! لكنه جائز، فلربما لم تحصل على حمولة تشحنها وهي عائدة إلى

الوطن فأخذت خردة الحديد كثقل ضروري للتوازن وسيجلب للشركة أيضاً بعض المال وقد يكونوا هناك في غلاسكو بحاجة ماسة لتلك الخردة. وبالنسبة للثقل التوازني، فإن خردة الحديد أفضل من الصخور والحجارة ولكن مازال أمر هذه الامبراطورة يثير استغرابي. فكيف تعود باخرة حديثة مثلها من افريقيا دون حمولة؟

لو بقيت في دكار لبضعة أيام لكشفت أمرها. دعني أتمعن فيما رأيت، رأيت طاقماً يلعب القمار بدون مزاج وكأنهم موتى يلعبون عند قبورهم هم، لكن ما السر الذي تخفيه هذه السيدة الأنيقة التي تدّعي البراءة. لا بد من ضربة شمس أصابتني، ماشأني بها. عدت فالتقيت بستانيسلاف.

ـ «**دعنا نصعد إلى السفينة النرويجية ونتحدث مع بحّارتها قليلاً.**» قال لي.

مشينا إلى السفينة التي تعرّف ستانيسلاف أمس على بعض من أفراد طاقمها من الدنمركيين الآتين من مدينة في الدنمرك يعرفها صاحبي جيداً، فأهدوه علبة من الزبدة الفاخرة وأعطوني قالباً كبيراً من الجبن الدنمركي الممتاز.

ـ «**لقد وصلتما في الوقت المناسب أيها القراصنة، تعالا وشاركانا العشاء**» قال أحد الدنمركيين «**هيا إجلسا على مؤخرتيكما وتناولا الطعام معنا، فهو فاخر ووفير.**»

جلسنا وأكلنا طعاماً يليق بالبشر لم نذق شبيهاً به منذ زمن طويل، ولم نصدق أن طعاماً كهذا مازال موجوداً في العالم، خاصة على متن سفينة شحن تجارية.

ـ «**هل رأيتم تلك السفينة الانكليزية، الامبراطورة**»؟» سألت مضيفينا ونحن نأكل.

ـ «**راسية هنا منذ مدّة.**» أجاب أحدهم.

ـ «يا لها من فتاة جميلة» علّقت من جانبي.

ـ «المظهر الخارجي من الحرير وداخلها طين»، قال أحد الدنمركيين.

ـ «ماذا؟» سألته لأني لم أفهم كلامه «ماخطبها؟»

ـ «يمكنك الصعود إليها وفق قانون الطوارئ، إنهم يغرون الناس بالعسل، يقدمون أفضل الطعام، لكنها وجبات الجلاّد.»

ـ «ماهذا الهراء! أفصح يارجل.»

ـ «يا فتى، لايبدو عليك بحّاراً مبتدئاً غشيماً، إنها عربة نقل موتى.»

ـ «أنت مخبول بلا شك.» أجبت معترضاً على كلامه.

ـ «أقول لك إنها عربة جثث»، أجابني الدنمركي فيما هو يسكب لنفسه فنجان قهوة وسألني «هل تريد قهوة، الحليب والسكر وحتى الزبدة متوفرة هنا ولا نقتصد فيها، هل ترغب في أخذ علبة حليب محلّى معك؟»

ـ «مجرد سؤالك هذا يجعل الدموع تقفز إلى عيني، نعم سآخذها.»

أجبته وملأت فنجاني مجددا بالقهوة الحقيقية غير المغشوشة والتي كنت نسيت طعمها، لأننا على اليوريكه كنا نشرب شيئاً بديلاً لا يحتوي سوى على نسبة ضئيلة من حبوب القهوة الأصلية حرصاً على قلوبنا وصحتها.

ـ «أقولها لك ثانية، إنها عربة موتى.»

ـ «ماذا تعني؟ تنقل الجنود الموتى من فرنسا وتعيدهم إلى أمهاتهم عبر المحيط؟»

ـ «إنها تنقل موتى، لكنهم ليسو جنوداً قضوا في فرنسا.»

ـ «من هم إذن؟»

ـ «جثث بحّارة، هل فهمت أخيراً؟»

ـ «وهل تلك الجثث على متن الامبراطورة؟»

ـ «يالك من ساذج يا صاحبي، طبعاً هي موجودة هناك، تصّور اسمك محفوراً على شاهدة قبر أو على جدار الكنيسة في قريتك وجنبه اسم الامبراطورة مدغشقر، أليس ذاك شرف عظيم، هه؟»

ـ «ولماذا تسعى إلى قبض قيمة التأمين؟.»سأل ستانيسلاف.

ـ «المسألة بسيطة جداً. أرى انكما موضع ثقة لذا سأخبركما. عمر تلك السفينة هو ثلاث سنوات بالضبط، وقد بنيت لشركة شرق آسيوية وأمريكية جنوبية وكان من المقرر أن تسير بسرعة خمسة عشر عقدة، كان هذا هو الشرط. لكن بعد مدّة من عملها انخفضت السرعة إلى ست عقد وفي أفضل الأحوال أكثر بقليل، وهذا كان سيقود الشركة المالكة إلى الإفلاس.»

ـ «بامكانهم تغييرها» عقّبت.

ـ «حاولوا ذلك مرتين لكن بدون فائدة. كان الوضع يزداد سوءاً، في الحقيقة قبل تطويرها كانت السرعة ثمان عقد لكن بعد التطوير انخفضت إلى الستّة ولذا لابد من إخراجها من الخدمة وليس من وسيلة أخرى سوى قبض ثمن بوليصة تأمينها وهي عالية بالتأكيد؛ فقد تدبرت الشركة الأمر جيداً لمصلحتها وضمان حصولها على الربح، لا شك في ذلك.»

ـ «وحان وقتها الآن.»

ـ «حتماً. فقد حاول قبطانها إغراقها مرتين خلال ثلاثة أسابيع لكن المحاولتين فشلتا حيث تم إنقاذها لأن سفناً أخرى رأت الحادث وسارعت بارسال نجدة،

انا واثق انهم في غلاسكو منذ الآن يحتفلون بموتها وقبض ثمنها ويفتحون زجاجات الشمبانيا.»

ـ «وكيف الآن؟» سألنا.

ـ «على القبطان أن ينجح في مهمته. فلو تكرر الفشل فإن شركة التأمين ستحقق في الأمر وقد تلغي البوليصة وتطلب تعيين قبطان آخر معروف الكفاءة.»

ـ «لماذا هي راسية كل هذا الوقت إذن إذ لم تكن بحاجة إلى تصليحات؟»

ـ «لا يمكنها الخروج، فليس عليها عامل فرن؟»

ـ «هراء. كان بإمكانهم أخذي معهم. فقد طلبت العمل عليها كفرّان.»

ـ «هل لديك أوراقاً قانونية؟»

ـ «لا تكن سخيفاً يا صاحبي.»

ـ «لن يأخذك القبطان معه بدون أوراق، فعليه أن يلتزم بالشكليات، فالموتى أمثالك يثيرون الشكوك حول السفينة في هذه الظروف، فالتحقيقات اللاحقة ستجلب المشاكل للشركة لو انكشف أن عاملاً دون أوراق كان يعمل عليها وهو ما ينطبق على العامل عديم الخبرة. لا يمكن للسفينة سوى استخدام رجال يحملون أوراقاً وذوي خبرة في عملهم. عمال الفرن عليها تصرّفوا بذكاء فأحرقوا أنفسهم عمداً حتى يضطر القبطان إلى أخذهم إلى المستشفى للعلاج لأنهم لو ظلوا فلا خلاص لهم وسيعلقون في غرفة المرجل ويقضى عليهم فوراً إما غرقاً حيث سيتسرب الماء بسرعة إلى مكانهم، أو سيتقطعون إرباً حين يثور المرجل وينفجر، حين يتم إغراق السفينة وهم يعرفون ذلك.»

ـ «وكيف ستبحر السفينة إذن ولا عامل فرن لديها، هل ستنتظر حتى يشفى

العمال؟» سألت مستغرباً.

- **«لن ينفعها الانتظار لأن العمال لن يكونوا ملزمين بالصعود اليها ثانية وسيتم تسريحهم قانونياً وبأوراق نظيفة تمكّنهم من الصعود للعمل على أي سفينة محترمة لاحقاً حين يريدون.»**

- **«كيف تريد تلك الأنثى المغادرة؟»**

ابتسم القوم مستغربين سذاجة أسئلتي، ثم قال لي أحدهم ممن بدا أنه على دراية كافية بالقضية:

- **«لا تقلق بشأنها، فهم مستعدون حتى للخطف.»**

- **«مرعب.»**

عدنا إلى اليوريكه، وطوال الطريق كنت أفكر بأمر تلك السفينة الجميلة الكذوب وطاقمها الكئيب، وفكرت بأن اليوريكه، مقارنة بالامبراطورة، هي سيدة كبيرة محترمة فهي ليست دعّية ولا مخادعة. نعم أيتها اليوريكه أعلن أني أحترمك وأحبك، أحبك لشخصك الحقيقي كما أنت وأحب الكدمات والجروح والحروق والألم في جسدي وأنا أشتغل من أجل راحتك. قلبك لا يعرف الكذب والنفاق، قلبك لا يذرف دمعاً كاذباً ولا ينتحب إلاّ إذا شعر بالحزن حقاً ولا يهلل جذلاً وفرحاً إلا حين تغمره فرحة صادقة، قلبك أيتها اليوريكه صاف ونقي كالذهب. حين تضحكين يا حبيبتي فإن روحك هي التي تضحك وكذا جسدك، وحين تنتحبين فإن الصخر البارد نفسه يشعر بك وينتحب معك حين تمرين قربه. لا أريد أن أتركك أبداً، ليس من أجل كنوز الدنيا كلها يا عزيزة قلبي، أريد أن أجوب العالم معك وأغني معك وأن أغور إلى القرار وألفظ آخر أنفاسي وأموت أنا بين ذراعيك. أنت لا تتباهين أمام

شركة لويد في لندن بمجدك الغابر وأصلك العريق النبيل، أنت ترقصين بفخر مرتدية رداءك القديم المتهرئ كملكة وتغنين أغنيتك، أحبك يا غجرية البحر.

أغنية سفينة الموت

ما شأنكم بردائي القديم المتهرئ؟

إنه مليء بالفرح والدموع

ما شأنكم بوجهي؟

لست بحاجة لشفقتكم

قطعاً لا أريد رحمتكم

حتى وأنا أحمل الموتى

حتى لو صاحبتني اللعنة والعار

هذا ليس من شأنكم

ليس من شأنكم قط

لتشرب محاكم العالم من البحر

لست أؤمن بالبعث من الموت

ولا أعرف إن كان هناك إله

لكني لست أخشى عقاب الجحيم

هيلا هوب، هيا إلى البحر الواسع

هيلا هو هيلا هوب

الكتاب الثالث

أغنية حب قديمة لبحّار عجوز

سفن كثيرة تجوب البحر

واحدة تغادر وأخرى تعود

لكن كل سيئة صيت بينها

تجد أخرى تفوقها عاراً

45

ربما لا يتحتم على الرجل ان يكون متيّماً بزوجته إذا ما هو أراد الاحتفاظ بها، تلك قاعدة ذهبية، لأنه لو فعل فإنها ستشعر بالملل وستهرب منه إلى رجل آخر يشبعها ضرباً كي تشعر أنها تحيا.

هيامي المفاجيء باليوريكه أثار في نفسي مشاعر الشك والريبة، لكن عندما يسمع المرء صدفة الحكاية الشنيعة لسفينة أخرى وفي جيبه علبة حليب محلّى وفي الجيب الآخر قالب جبن دنمركي فاخر هدية من سفينة نرويجية غنية أخرى، فقد يتملك المرء شعور بالانتماء إلى تلك البائسة بردائها الرّث، فيرى أنها تستحق الحب أكثر من سفن أخرى ترتدي الحرير وتزهو بمنظرها الخدّاع.

ومع ذلك فإن بذرة الحب التي أينعت في قلبي على حين غرّة نحو اليوريكه كانت مدعاة لريبتي.

لم أطق البقاء في المهجع، فالهواء المداري كان خانقاً وثقيلاً.

ـ «دعنا نخرج ثانية» قلت لستانيسلاف «لنتمشى على البحر إلى أن يبرد الهواء. فبعد التاسعة سيهب نسيماً لطيفاً ثم نعود إلى السفينة ونتمدد على السطح.»

ـ «معك حق يا بيبه» وافقني ستانيسلاف **«لا يمكن النوم أو الجلوس هنا الآن، لنذهب إلى الهولندية الراسية في الجوار، ربما التقيت بشخص أعرفه.»**

ـ «أمازلت جائعاً؟» سألته.

ـ «لا، لكني قد أحصل من أحدهم على قطعة صابون ومنشفة.»

مشينا متمهلين وكانت العتمة قد حلّت ومصابيح الميناء لم تكن لتنير الطريق جيداً ولا حمولة كانت تصعد أو تغادر أياً من السفن في تلك الساعة، كن كلّهن على وشك النوم.

ـ «لم يكن التبغ الذي أعطانا إياه النرويجيون متميزاً يا ستانيسلاف.»

لم أكد أستدر صوب صاحبي ليشعل لي لفافة التبغ حتى شعرت بضربة قوية على رأسي شلّت حركتي تماماً وثقلت رجلاي فهبطت نحو الأرض. لم يدم الأمر طويلاً، هكذا شعرت، لأني نهضت كالمخدّر وحاولت مواصلة السير لكني اصطدمت بجدار، على يميني كان جدار وخلفي جدار فكيف ذلك؟ توجهت نحو اليسار ولكن جداراً آخر أوقفني والمكان كان مظلماً. شعرت بألم قوي في رأسي ودوخة وتعب ولم أستطع التركيز والتفكير فرقدت على الأرض ونمت.

حين استيقظت كانت الجدران مازالت موجودة. حاولت الوقوف لكن جسمي كان مترنحاً،لا، لم يكن جسمي بل الأرض تحت قدمي كانت تترنح، ياللهول! الآن أدرك ما حدث. أنا على سفينة، على دلو عائم في عرض البحر.

صرت أصيح وأضرب الجدران بيدي وقدمي بكل قوّتي لكن لم يسمعني أحد، لكن بعد مدّة، حين واصلت الصراخ والدّق على الجدران، انفتحت كوّة في الأعلى في ورأيت رجـلاً يحمـل مصبـاحاً يدوياً.

ـ «**هل انقشعت عنك آثار السكر الآن؟**» سألني الرجل.

ـ «**على ما يبدو، نعم.**» أجبته.

لست بحاجة إلى أحد ليروي لي ما حدث. إنه اختطاف وأنا على سطح امبراطورة مدغشقر.

ـ «**القبطان يريد رؤيتك، هيا.**» قال الرجل كلمته.

رأيت ضوء الشمس وأنا أتسلق السلّم الذي أنزله اليّ الرجل عبر الفتحة وأصبحت على السطح.

قادني إلى القبطان.

ـ «**يا لكم من قوم أيها السادة، أي نعم.**» صحت محتجاً حال دخولي قمرة القبطان.

ـ «**نعم؟**» أجابني القبطان بمنتهى الهدوء.

ـ «**أنتم خاطفون، نعم إنكم كذلك**»، واصلت الصياح.

ظل القبطان محتفظاً بهدوئه ولم يبال لما أقول ثم وضع سيجارة بين شفتيه وقال:

ـ «**من الواضح أنك مازلت ثملاً، سنغطسك في الماء البارد حتى ينقشع عنك الضباب**»!

بقيت لوهلة أحدق في الرجل ولا أعرف ماذا أقول. ضغط القبطان على زر فجاء نادل ونطق القبطان باسمين أمامه، ثم قال:

ـ «**تفضل اجلس.**»

حضر شخصان كريهان بدا عليهما الإجرام.

ـ «**هل هذا هو الرجل؟**» سألهما القبطان.

ـ «**نعم إنه هو.**» أكد المجرمان.

ـ «**وماذا تفعل على سفينتي؟**» سألني القبطان بلهجة رئيس محكمة محلّفين يحاكم متّهماً فيما كان يخربش بقلم على ورقة على منضدته.

ـ «**أنا أريد منك معرفة سبب وجودي على سفينتك.**» أجبت.

تكلم أحد الرجلين المجرمين، من لهجته وطريقة كلامه بالانكليزية حزرت أنه ايطالي، قال:

ـ «**كنا على وشك القيام بتنظيف المخزن رقم 11 فوجدنا هذا الرجل نائماً في ركن المخزن من شدّة السكر.**»

ـ «**حسناً**»، عقّب القبطان «**المسألة واضحة إذن، لقد حاولت التسلل إلى سفينتي لتصل إلى انكلترا، لا يمكنك إنكار هذا. من المؤسف أني غير قادر على رميك إلى البحر رغم أنه بودي أن أفعله. أنت تستحق الربط على الصاري والجلد عقاباً على فعلتك حين فكرت في الصعود إلى سفينة انكليزية لتهرب وتفلت من أيدي الشرطة.**»

ما نفع الكلمات وماذا عساي أن أقول، لأني لو حاولت أن أشرح ما جرى لكان أوعز لهذين الايطاليين، نزيلي السجون، بضربي وتهشيم عظامي. على أية حال ما كان أمري ليعنيه قط، لكن عظامي الصحيحة هي ما يحتاج اليه.

ـ «**ما هو عملك؟**» سألني بعد أن غيّر لهجته.

ـ «**عامل بسيط على سطح السفينة.**»

ـ «أنت عامل فرن.»

ـ «لا.»

ـ «كنت تبحث أمس عن عمل على سفينتنا، وقلت أنك عامل فرن.»

آه نعم قد فعلت، كان ذاك خطأ كبيراً، ومنذ تلك اللحظة لم يجعلوني أغيب عن أعينهم وظلوا يراقبون حركتي. لو أني قلت آنذاك أني مجرد عامل بسيط على السطح لربما ما كنت هنا اليوم، فهم كانوا بحاجة إلى عامل فرن.

ـ «بما أنك عامل فرن، يمكنك القول أنك محظوظ حقاً لأن عاملي الفرن على السفينة مريضان بالحمّى المدارية، لذا تستطيع أن تحلل أجور سفرك معنا ولقمة الخبز التي ستأكلها هنا بالعمل مكانهما، وسوف تحصل على عشر باوندات استرلينية شهرياً بالإضافة إلى أجر الساعات الاضافية طوال الرحلة في البحر. طبعاً لا يحق لي قانونياً استخدامك باعتبارك متسللاً ولذا حالما نصل إلى انكلترا سيتوجب عليّ تسليمك للسلطات ولكني سوف أشهد، لصالحك في المحكمة وربما لن تسجن لأكثر من ستّة شهور يليها ترحيلك فوراً. لكن ما دمت هنا على سفينتي وأحسنت التصرف فسنعتبرك فرداً من طاقم امبراطورة مدغشقر وسوف تجري معاملتك على هذا الاساس دون أي تمييز.»

تركته يتكلم، إذ ماذا بوسعي أن أقول أو أصنع؟ لا شيء يا سيدي.

ـ «يمكننا أن نتفاهم، و إذا أحسنت التصرّف ولم تثر المتاعب وعكس ذلك أمنع عنك الماء الحلو وأطعمك السمك المقدد المالح. لذا أقترح أن نتقبّل الواقع ونتحمّل بعضنا البعض. مناوبتك تبدأ في الثانية عشر. هذا كل شيء. صباح الخير.»

قد أجمع بعض المال هنا لأن الأجور على الامبراطورة حددتها النقابة البريطانية، لكن الحبس الانكليزي الذي في انتظاري والعمل الشاق في المعسكر

بانتظار الترحيل الذي قد يستغرق سنتين، ثم خشيتي أني لن أستلم أجراً نقداً في اليد لأني سأكون طعاماً للأسماك قبل ذلك. وحتى لو حالفني الحظ ونجوت فلن أحصل على تعويض لأني لست مسجّلاً للعمل رسمياً ولن يمكنني الادلاء بشهادي أمام محكمة حول غرق السفينة؛ فلا دليل أني كنت على متن الامبراطورة وهي تغرق ثم إنهم قد يضعوني في السجن بتهمة الادعاء الكاذب وشهادة الزور.

هيا لا تهتم أيها الفتى، فلن تصل إلى انكلترا. لا سجن ولا ترحيل. هيا أيها الفتى الق نظرة على قوارب النجاة، آها، أنها جاهزة. إذن لن يطول الأمر، فاستعد لتهرب من غرفة المراجل مع أول إشارة وصوت صرير وقبل أن يفتح الجحيم بواباته.

46

المهاجع كانت جديدة ونظيفة ورائحة أصباغها مازالت نفاذة. أسرّة النوم كانت مفروشة لكن بدون شراشف ولا أغطية ولا وسائد. إمبراطورة مدغشقر ليست ثرية كما يوحي مظهرها الخارجي. لن تحتاج إلى تفكير طويل لتدرك أين ذهبت كل تلك الأشياء، فالقبطان أذكى من أن يترك كل تلك الأغراض فريسة للأسماك بدلاً من بيعها وقبض ثمنها مبكراً. معظم الأواني والأطباق اختفت هي الأخرى. الطعام كان جيداً ويجلبه صبي إيطالي إلى المطعم. حين سألت عن جرعة من الرم قالوا لا كحول على الإطلاق، فالقبطان لا يشربه قط ولا يسمح به. لكن بدلاً من ذلك كان عصير الليمون متوفراً بكثرة. نادى الصبي الايطالي أن السفرة جاهزة وعلى الجميع ترك العمل والجلوس إلى مائدة الطعام. دخل رجلان أسودان، كانا عاملا جر الفحم، ثم دخل رجل الفرن الذي كان يمشي بتثاقل وترنّح. أعرف صاحب هذا الوجه، رأيته في مكان ما في الماضي، لكن

أين؟ لا أتذكر. أظنني اشتغلت معه على نفس السفينة، من هو يا ترى؟ وجهه كلّه كان متورماً تعلوه الكدمات وتحيط الهالات الزرقاء الداكنة بعينيه ورأسه ملفوف بضماد.

ـ «ستانيسلاف، أهذا أنت؟»

ـ «بيبه؟ أنت أيضاً؟»

ـ «نعم كما ترى، أمسكوا بي وحبسوني. عظيم. يبدو أننا سنعمل سوياً ثانية في نفس المكان.»

ـ «نصيبك كان أفضل يا بيبه، أما أنا فقد دخلت في عراك معهم وكسرت لهم أصابعهم وتركت جروحاً غائرة في رؤوسهم، فقد نهضت بعد الضربة الأولى التي تلقيتها على عظامي ورأيتك ملقى مغشياً عليك إذ ضربوك ضربة قوية على رأسك، وحين رأيتك تسقط إلى الأرض انحنيت بسرعة البرق تفادياً لضربة على رأسي فهاجموني وصار ما صار، لكنني أشبعتهم ضرباً مبرحاً لم يتذوقوا مثله في حياتهم.»

ـ «ما هي القصة التي رووها لك؟» سألته.

ـ «قالوا إني تورطت في شجار وطعنت أحدهم بسكين ثم صعدت إلى سفينهم كي أختبيء هرباً من الشرطة التي كانت تبحث عني.»

ـ «قصوا عليّ شيئاً مشابهاً، أولئك الخاطفون.»

ـ «ضاع علينا أجرنا على اليوريكه وهنا لن نحصل على بنساً واحداً.» قال ستانيسلاف.

ـ «لن يطول الأمر،» قلت بدوري «ربما خلال يومين سيكون الأمر قد تم

لأنهم وصلوا بقعة ملائمة جداً لتكون مقبرة للسفينة. فالبقعة هنا نائية وهادئة ولن يأتي أحد ليكشف اللعبة. في الساعة الخامسة سيجرون تمريناً لقوارب النجاة، لكن انتبه، لسنا ضمن المشاركين في التمرين لأننا سنكون في المناوبة، لكن نصيبنا هو القارب رقم أربعة لقد رأيت القائمة بنفسي فهي معلّقة في الممر وفيها: عمال الفرن للمناوبة من الثانية عشر وحتى الرابعة: القارب رقم 4.»

ـ «نعم رأيتها أنا أيضاً.»

ـ «هل تعرف كيف هو الوضع عند المرجل، كيف يمكن الخروج منه؟» سألت صاحبي.

ـ «إثنا عشر فرناً وأربعة من الفرانين، الإثنان الآخران إفريقيان، أعتقد من الكاميرون.» وأشار بيده نحو رجلين ضخمين جالسين على مائدة الطعام تبدو عليهما اللامبالاة لما يدور حولهما.

منتصف الليل تماماً نزلنا والتحقنا بمناوبتنا. النار في كافة الأفران في حالة مزرية، فكان علينا أن نعمل بجهد لساعتين متتاليتين فقط لنعيد النظام. يبدو أنهم لا يأبهون لشكل النار وتوازن مستوى البخار، عمال الفرن الأفارقة يكتفون بتلقيم الأفران بالفحم لتبقى النار مضرمة دون معرفة بكيفية إشعال النار أو إطفائها أو تنظيف ما تخلّفه.

رحت أجوب المكان بناظري أحاول استكشف خباياه. ستانيسلاف الذي كان يرقبني قال: «عاينت المكان بدوري. علينا أساساً البحث عن ثقوب هواء يمكننا التنفس من خلالها، فمن المؤكد أننا لن نفلح في الوصول إلى سّلم الخروج فذاك أول من ينهار في الغالب. سيصبح المكان كالفخ ولا يمكن التسلق نحو الأعلى أو الأسفل بسبب البخار ورذاذ الماء الحار، لذا لا تحاول أصلاً الاقتراب من سلّم الخروج.»

بعد أن انتهيت من جولتي الاستكشافية اخبرت ستانيسلاف «**يوجد منفذ في المخزن العلوي يمكن من خلاله الوصول إلى السطح مباشرة، ولذا يتوجب علينا، أثناء مناوباتنا أن نحافظ على أن يبقى الطريق إلى المخزن العلوي وممره سالكاً وسوف أتولى بنفسي صنع سلّم من الحبال من الآن كي نحفظه قريباً من الفتحة ونستخدمه حين تحين الساعة.**»

ذهب ستانيسلاف ليتفحص الطريق الذي وصفته. حين عاد قال «**أنت ذكي يا صاحبي، إنه الطريق الأسلم والأسرع نحو الخارج. حسناً سوف نلتزم بهذه الخطة.**»

مراسم الدفن والمأتم ستتم بهدوء وبالطريقة التقليدية. بضعة ثقوب في معطف الإمبراطورة قرب الأرضية، بعدها ستنكفئ السيدة وتستلقي جانباً وتغوص، وسيعينها على ذلك حمولتها من خردة الحديد. وقد يكون من الضروري تسديد لكمة على أنف المحّرك كي يتم كل شيء بسرعة وهدوء. أما محطة الإرسال اللاسكلية، فستكون عاطلة وبمحض الصدفة في ذات اللحظة التي تبدأ الثقوب بالامتلاء بالماء. تعطل الإرسال اللاسلكي شأن مألوف وستعترف به أي لجنة معنية، لكن في حال نجا كافة أفراد الطاقم فيحدث أن تظهر المحكمة البحرية بعض الشكوك حول الحادث.

يومان فقط، ليس أكثر، قضيناهما على ظهر الامبراطورة. مناوبتنا كانت في بدايتها وكنت منهمكاً في رفع الرماد حين سمعت فجأة صوت دوي ضخم وجلجلة عارمة. كنت متيقناً بحدسي أن المراسيم ستجري حين نكون نحن الاثنين في مناوبتنا في غرفة المراجل إذ سيكون مفيداً للشركة التضحية برجلين أبيضين لهما كل الأسباب للإطاحة بلعبة الشركة لو تسنا لهما المثول أمام المحكمة البحرية، وهما بحّاران متمرسان أما، الأفارقة والبرتغاليون واليونانيون

والايطاليون من مالطة فلا خوف من أقوالهم البتّة، فهم بحّارة طارئون لا يفقهون بأمور السفن بتاتاً.

مع الضجيج شعرت بجسدي يطير ويرتطم بقوة بالمرجل، ثم يعود إلى كومة الفحم. وما لبث أن صارت النار والجمر يتسرب من بعض الأفران التي نعمل عليها ولم نكن قد أوصدنا أبوابها بإحكام بعد. لأن عدداً قليلاً فقط من الأفران تضرر. فكرت في إمكانية الخروج قفزاً بين الفحم والجمر المتناثر. إنقطع التيار الكهربائي أيضاً لكن الجمر المتوقد المتناثر كان يوفر مدى للرؤية. كنت أدرك أن المراجل ستنفجر خلال نصف دقيقة، وقبلها ستنفجر أنابيب البخار الذي سيتدفق سريعاً ويعمي الأبصار ويسلخ جلدك حيّاً. لم أكن بحاجة للاستعانة بسلّم الحبال الذي صنعته كي أتسلق نحو الأعلى، لأن الإمبراطورة مالت على جنبها فصار العالي واطي وهكذا دخلت إلى المخزن كأني أمشي في طريق مستو. رأيت ستانيسلاف الذي كان على وشك التسلق عبر المنفذ نحو سطح السفينة. تماماً في اللحظة التي شعرت فيها بالأمان، وأننا نجونا، سمعنا صراخ رجل يتألم. عاد ستانيسلاف أدراجه وناداني لأرافقه:

ـ **«هذا دانييل، عامل الفحم، لا يمكننا تركه. أظن أنه عالق.»**

ـ **«اللعنة، كدنا ننفذ بجلدنا»**، أجبت وأنا أستدير عائداً إلى الجحيم.

ـ **«إخرس»** وبّخني ستانيسلاف **«هيا إدخل واجلبه، اركض بسرعة والا سنموت هنا جميعنا.»**

ـ **«اللعنة، علينا أن ننقذه.»** قلت.

صرنا في غرفة المراجل التي مازالت لم تنفجر والجمر المتقد ينير لنا الطريق. دانييل، العملاق الأسود، كان ملقى على الأرضية وقدمه اليسرى عالقة تحت إحدى الصفائح الحديدية الفالتة. كان المسكين يصرخ ألماً من الجمر الذي يحرق

لحمه. حاولنا رفع الصفيحة عنه فلم نفلح، ثم حاولنا ثانية مستخدمين محراكاً حديدياً كرافعة لكنها لم تتزحزح.

ـ «**لا فائدة يا دانييل، قدمك عالقة تماماً.**» صرخت بجنون هستيري نحو الرجل المطروح أرضاً.

ـ «**ما العمل؟ هل نتركه يموت هكذا؟؟**»

ـ «**اين المطرقة؟**»، صرخ ستانيسلاف.

بلمح البصر كانت المطرقة بيد صاحبي الذي صار يطرق على رفش رفع الرماد فصارت حافته خلال ثوان كنصل السكين. بدون تردّد هوى ستانيسلاف بالنصل على قدم العامل الإفريقي فبتر قدمه بعد ثلاث ضربات قوية سريعة. سحبنا دانييل نحو الخارج عبر المخزن ثم منفذه الأعلى.

على السطح وجدنا العامل الإفريقي الآخر من مناوبتنا الذي نجح في الخروج قبلنا، فهرع هذا إلينا وتلّقى صاحبه الجريح فتركناه في عهدته.

المصابيح الكهربائية على السطح كانت مازالت تعمل، يبدو أن المهندس حرص على تحويل مصدر الطاقة من المحرّكات إلى البطاريات الاحتياطية لكن النور سرعان ما بدأ يخفت لأن المياه باتت تطالها. في العتمة رأينا القبطان والمهندسين والطباخ وآخرين لم أتبين ملامحهم. كانوا يحملون المصابيح اليدوية ويريدون النزول إلى الماء بقوارب النجاة، لكني لم ألمح أحداً من رفاق المهاجع، فقد قضوا كلهم غرقاً، لأن أطناناً من ضغط الماء صدّت الأبواب فوقع الرفاق في المصيدة كالفئران. الضباط وصبيان المطبخ والطباخ كانوا يعملون جاهدين على إنزال قوارب النجاة إلى البحر. القارب رقم 2 انفلت وصار الموج يجرفه بعيداً دون أن يكون على ظهره حتى رجل واحد. القارب رقم 4 كان عصياً على الرجال فتركوه وكذا القارب رقم 6، أما القارب رقم 5 فلم يتمكن أحد

من الوصول اليه أصلاً وكان متضرراً جداً ولا نفع منه في كل الأحوال. لم يبق سوى قاربين ولنا سوى فرصة واحدة في الوصول إلى أحدهما. القبطان أمر بعض رجاله بالصعود إلى القارب رقم 1 لكننا، أنا وستنانيسلاف، لم نكن ضمنهم. القبطان نفسه ظل واقفاً حسب الأصول، وهو سلوك تقتضيه الأعراف البحرية، أن يكون القبطان آخر من يغادر السفينة الغارقة، وسيكون لهذا شأن مهم لاحقاً في التحقيقات التي ستجري في الحادث. في تلك الأثناء صار القارب رقم 3 جاهزاً أيضاً فقفزنا أنا وصاحبي إليه والمهندسان والعامل الإفريقي ورفيقه مبتور القدم، دانييل، التي صارت ملفوفة بقميص كضمادة ثم التحق بنا الضابط الأول والمضيّف.

المراجل لم تكن قد انفجرت بعد. يبدو أن انخماد النار في أفرانها هو الذي ساعد في تأخير انفجارها. في تلك الأثناء قفز القبطان إلى القارب رقم واحد الذي أرخيت حباله استعداداً للنزول إلى الماء، كانت المحاولة صعبة جداً حيث الظلمة لا تمنحك الفرصة لمراقبة وتيرة الموج القادم نحوك كي تتدبر أمرك في توقيت لحظة إرخاء حبال القوارب. حين كان ذاك القارب معلّقاً بالحبال يريد الوصول إلى البحر والرجال على متنه على وشك أن يشرعوا المجاديف جاءت موجة عاتية جعلته يرتطم بقوة بسطح السفينة المائل. ثم حدث شيء آخر تماماً في نفس لحظة ارتطام القارب بالسفينة. انخلع جزء ما وسقط على القارب فمزّقه إلى قطع صغيرة متناثرة. لوهلة سمعنا صراخ الرجال، لكن فجأة اختفت تلك الأصوات وساد صمت مرعب. إختفى القارب بلا أثر. ستكون قضية تأمين أنيقة وناجحة، وستقول الشركة أن القبطان نفسه راح ضحية الحادث وهو يحاول إنقاذ السفينة.

أفلحلنا في إنزال قاربنا سالماً، لكن الرجال معنا كانوا عديمي الخبرة في التجديف. وحده ستانيسلاف كان خبيراً من الصنف الممتاز. ومن ناحيتي

بذلت جهدي لأساعده. المهندسان والضابط الأول لا علاقة ولا خبرة لهم بالتجديف، أما دانييل فلم يستطع القيام بشيء وكان ألم البتر في أوجه، أما رفيقه، الإفريقي الآخر، فلم يمسك مجدافاً بحياته والمضيّف كان عديم الجدوى لكن البوصلة التي كان يحملها ساعدتنا في تحديد الساحل. الموج كان عالياً، كان قاربنا يرتفع ويهبط كأنه يتحرك بسرعة البرق بين قمة جبل عال وواد سحيق. بدا أننا ندور في نفس البقعة وقوة الجدف ضعيفة، لكن فجأة صاح المهندس الأول: «**يا رفاق، أظن أننا صرنا فوق صخور، الماء تحتنا ضحل جداً**»

- «**غير ممكن.**» أجاب الضابط الأول ثم حمل المجداف وتحسس به عمق الماء وصاح «**أنت مصيب، هيا اخرجوا وبسرعة.**»

ما كاد الرجل ينهي أوامره حتى شعرنا بموجة ترفعنا وتدفع بقاربنا باتجاه الصخور وصرنا جميعاً في الماء والقارب صار شظايا. لم أسمع صوتاً بشرياً واحداً، وخشيت أن يكون الموج قد دفع بأجساد الرفاق لتتمزق على الصخور. شعرت بموجة ترفعني فأيقنت أني مازلت حياً أرزق فصحت: «**ستانيسلاف، هل لديك ما تمسك به؟**». جاءني صوت صاحبي بعد صمت «**ولا حتى قشّة. اسمع يا بيبه، سأعود إلى السفينة، فهي المكان الآمن الوحيد الآن وستظل طافية يوماً أو يومين قبل أن تغرق نهائياً، تعال معي هيا اركب الموج.**» كلماته كانت متقطعة لكني في النهاية فهمت ما أراده.

الفكرة بدت لي معقولة وليس من خيار بديل سواها. عدت أسبح باتجاه الهيكل الكبير الذي كانت رؤيته ممكنة في عتمة الليل.

كلانا وصل إلى الهدف، إلى الإمبراطورة المحتضرة. كانت تقف كالبرج، محشورة بين فتحة صخرية. لا أحد غيرها يعرف كيف حشرت نفسها بهذه الوضعية الثابتة تقريباً. لم تكن العودة سهلة إطلاقاً وسط موج يتقاذفنا كالكرة،

لكننا صمدنا وتسلقنا ورحنا نبحث عن وسط السفينة. كل الأماكن تغيرت معالمها وأجزاء كثيرة باتت تحت الماء وسور مؤخرها صار الآن هو سطح السفينة. انبلج الفجر وما من شيء ينذر بإعصار. مع أولى خيوط الشمس جالت عيوننا على الماء لكن ما من ناجين، لم نر أحداً قط وما من أمل بنجدة سريعة تكون انتشلت الأحياء من الرفاق، لأننا لم نكن في طريق بحري سالك كي يهرع أحد لنجدتنا؛ فقد اختار القبطان بقعة هادئة لينفذ خطته، لكن حساباته كانت خاطئة ودفع الثمن غالياً.

47

في ضوء النهار الساطع بدأنا رحلة الاستكشاف. نزلنا عبر الممر إلى الأسفل، وفي القعر وصلنا إلى قمرتي القبطان حيث وجدت بوصلة جيب وأخذتها، لكن ستانيسلاف هو الذي احتفظ بها لأن جيوبي كلها كانت مثقوبة. كما عثرنا على وعائين من ماء الشرب خاصة لاستعمال القبطان. كنا نأمل أن حنفيتي الماء الصافي في المطبخ مازالت قادرة على العمل حيث هناك آلاف الغالونات منه في الخزان في حال مازال هذا سليماً مما سيغطي حاجتنا للماء لشهر أو أكثر.

على اليوريكه كنا نعرف كل زاوية فيها ونتعرف عليها في الظلام، أما هنا فكان علينا البحث والاكتشاف. ستانيسلاف وجد مخزن حفظ الأطعمة الذي كان مليئاً ومجهزاً بكل شيء بما في ذلك صناديق من الجعة والنبيذ والكونياك وقناني كبيرة من الصودا؛ فكيف يكون القبطان ممتنعاً عن شرب الكحول. الطباخ كان سليماً أيضاً وقابلاً للاستخدام بعد أن أعدناه إلى مكانه، كما أن إحدى الحنفيتين كانت تعمل. تناولنا فطوراً ملوكياً لا ينقصه شيء البتّة بل كان أفضل من فطور التوسكالوزا من نيوأولينز وساحة جاكسون. حسناً، دعونا لا نفكر كثيراً فالتفكير لن ينفعني وأنا في مكان ما على الصخور بعيداً، عن ساحل

غرب افريقيا. بعد الفطور دخّنا من سيجار القبطان لكن بعد وهلة شعرنا بالدوار حتى إني ظننت أن الطعام الذي أكلناه كان فاسداً. ستانيسلاف ظن أنه مصاب بدوار البحر رغم استهجانه للفكرة، وهو البحّار القديم ورغم أن السفينة كانت في وضع شبه ثابت، لكنه بعد فترة وجد تفسيراً منطقياً لشعورنا بالغثيان والدوار:

ـ «الآن حزرت سبب هذا الشعور بالمرض يا بيبه، انه الوضع غير الطبيعي للمكان. فلا حاجة تقف في مكانها. فهي إما مائلة أو تقف رأساً على عقب. ثم هذه الضوضاء والجلجلة المتقطعة حين يتداعى وينهار جزء من السفينة هنا وهناك.»

ـ «أظنك على حق.»

وفعلاً كان تفسيره صحيحاً، إذ ما لبثنا أن استعدنا عافيتنا ونحن نستنشق الهواء الطلق في الخارج. كلانا كان يدرك أن لا أمل بمرور أية سفينة قد تأخذنا معها إذ كنا حقاً بعيدين جداً عن الطرق البحرية السالكة. قال ستانيسلاف بعد أن أنعشه هواء البحر:

ـ «نستطيع أن نهنأ هنا برغد العيش الذي طالما حلمنا به. كل شيء متوفر لدينا وليس هناك من مخلوق ليعكّر صفو مزاجنا ولسنا بحاجة للعمل، لكن مع ذلك نريد الخروج من هنا بأسرع ما يكون، وحين لا تأتي سفينة فتأخذنا معها فلا يبقى أمامنا سوى محاولة السباحة إلى الساحل؛ فلن نتحمّل البقاء هنا طويلاً حيث لاشيء آخر نفعله سوى الأكل والشرب والانتظار. أعتقد أنه لو وُجد الفردوس حقاً، وهو ما لا أعتقده أصلاً لأني لا أستطيع تصّور المكان الذي سيؤول اليه الأغنياء، أقول حتى لو وجد ذلك الفردوس لما رغبت في البقاء فيه وكنت سأرتكب معصية تغضب السماء لتطردني منه.»

ـ «لا تخشى دخول الفردوس فنحن لا نملك أوراقاً ياصاحبي.» أجبته

ساخراً من حالنا.

صمت صاحبي ثم قال:

ـ «غريب أنني لم أتنبه مبكراً! فحالنا ممتاز بشكل استثنائي، وهذا لا يعجبني. فحين تكون الحال كذلك فإن خطباً ما يتربص بنا وهو ما لا أحتمله. فقد كانت المصاعب والشدائد في انتظاري في كل منعطفات حياتي. أخشى أن يكون وضعنا هو الهدوء الذي يسبق العاصفة.» ثم بعد تفكير «أنظر يا بيبه، السفينة هي كائن حي له روح ولا يحتمل جثث الأموات، ربما ما عدا تابوتاً مشحوناً على متنها. لكن جثث الرجال الغرقى الذين رأيتهم في الأمس أحياءً قد انتفخت في هذه الأثناء وجحظت عيونها وسيؤرقها أن نهنأ نحن هنا برغد العيش ونتناول ما لذ لنا من الطعام والشراب.»

ـ «وماالذي يمكننا فعله؟» سألته.

ـ «لا شيء قط، وتلك هي المصيبة. الجميع ذهبوا ولم يبق سوانا، فلا بد من خطب ما.»

ـ «اسمع يا صديقي. سأتوقف عن محادثتك إذا لم تتوقف عن هذيانك العابث هذا، وسوف أنقل مهجعي إلى مكان آخر كي أتجنب رؤيتك. لكنك لو أردت معرفة رأيي لماذا نجونا وحدنا فسأخبرك لأن ذلك هو العدل بعينه. فقد تعرضنا للضرب والاختطاف ونحن لا ننتمي لطاقم الامبراطورة أصلاً ولم يكن لنا شأن بما حصل لها، وهي تعرف ذلك تماماً، وهذا هو السبب في أنها لم تأخذنا إلى الموت معها.»

ـ «لماذا لم تقل ذلك من البداية يا بيبه، سأذهب الآن لأسكر، لنقل لأثمل قليلاً، فقد يمر قريباً دلو نصعد عليه ونغادر وقبل ذلك سأجرب كل أنواع الشراب والمأكولات هنا.» .

لماذا أتركه يستمتع لوحده بهذا النعيم، فكرت مع نفسي.

بدأنا بالوليمة الفاخرة. فيها كل ما لذّ وطاب من اللحوم الطازجة الحمراء والبيضاء والمعلّبة والمقددة، والخضر، والفاكهة، والمعجّنات، والمربيات والفواكه المحفوظة والمجففة، والبكسويت، ثم النبيذ بأنواعه والكونياك ولذائذ أخرى كثيرة.

في اليوم التالي كانت الرؤية غير واضحة بسبب الضباب.

ـ «**ستهب عاصفة.**» قال ستانيسلاف.

في المساء ساءت أحوال الطقس أكثر من المتوقع. كنا نجلس في قمرة القبطان على ضوء فانوس زيتي احتياطي.

ـ «**لو فكّرت الامبراطورة في الهرب أو انهارت على الصخور فنحن هالكون لا محالة هنا.**» تكلم صاحبي بعد صمت. «**علينا أن نجد سبيلاً للنجاة يا فتى.** »

عثر على حبل طوله قرابة ثلاثة أمتار فلّفه حول جسده ليكون في متناول يده فوراً. بدوري لم أعثر سوى على لفّة خيوط بغلظ قلم رصاص.

ـ «**من الأفضل أن نتسلق النفق نحو الأعلى.**» اقترح ستانيسلاف. «**إذا بقينا هنا سنكون وقعنا في الفخ حين تحين الساعة. في الأعلى هناك في الأقل فرصة في النجاة.**»

أصبحنا على جزء من السفينة صار هو السطح. جلسنا ملتصقين ببعضنا وشددنا جسدينا بالحبل إلى نتوء بارز حتى لا ترمينا الريح نحو البحر. اشتدت الريح وصارت أجزاء السفينة التي انفصلت على التو تتطاير في كل اتجاه.

ـ «**إذا استمرت العاصفة حتى الغد فستطير معظم أجزاء السفينة.**» صاح ستانيسلاف. «**أظن لن يتبقى لنا سوى المخازن في مؤخرها حيث غرفة المكائن.**»

ـ «ربما من الأفضل أن نتسلق إلى هناك من الآن، لأن وسط السفينة قد يتداعى ونجد أنفسنا في الماء معه.» قلت.

ـ «مازال لدينا الوقت يا بيبه، فوسط السفينة لن ينهار كله دفعة واحدة بل على مراحل.»

لكن التصدع والانهيار والضوضاء والاهتزاز ازداد سرعة. كل هذا الغضب القادم من البحر نحو الامبراطورة المنكسرة يريد أن يقصم ظهرها، فأدركنا أنها لن تصمد، وأن ساعة سقوطها قد دنت حين جاءت ثلاث موجات عملاقة كاسحة، كل واحدة أعتى من سابقتها. بعد الموجة الأولى :

ـ «يا ستانيسلاف» صرخت عالياً «الموجة العملاقة ستعود، حانت ساعة الإمبراطورة.»

في ضوء النجوم لمحت الموجة الأولى قادمة عن بعد كأنها عملاق أسود هائل ينقض عليك. حافظنا على ثبات أماكننا، لكن الامبراطورة اهتزت وارتفعت وارتمت على مخالب الصخور وهي تئن من الوجع. الموجة الثانية الكاسرة سلبتنا أنفاسنا لوهلة طويلة شعرت خلالها أنها جرفتني إلى العمق، لكني لم أغادر مكاني. أنين الامبراطورة زاد مع تعمق جراحها الخطيرة وصارت تدور حول نفسها لا تلوي على شيء. صار الماء في كل مكان.

ـ «ستانيسلاف، يا صاحبي.» صرخت، ولا أعرف إذا كان هو الآخر قد صرخ. حتماً قد فعل ولكني لم أسمعه.

الموجة الثالثة هجمت هجوماً كاسحاً ونهائياً وقضت على الامبراطورة بالضربة القاضية.

ـ «هيا اقفز واسبح بعيداً يابيبه وإلا ستأخذنا معها.» جاءني صوت صاحبي ينادي عالياً.

لم تعد المسألة بحاجة إلى قرار مني، فسلسلة الأمواج التي تبعت الموجة الثالثة قد أخذتني بعيداً كفاية كي لا تبتلعني الدوامة، لكنها ابتلعت بعد لحظات قصيرة الإمبراطورة.

سمعت صوت ستانيسلاف ينادي «أين أنت؟» صحت «تعال إلى هنا فأنا هنا أجلس على شيء ما وبأمان وهناك متسع من المكان لك.» بقيت أنادي حتى أحدد له بصوتي المكان. صـار الرجل قريبـاً أكثر وأكثر، وأخيراً أفلح في الوصول وصعد إلى جانبي.

48

«ما هذا الذي نجلس عليه؟» سأل ستانيسلاف.

«لست أدري، لكني وجدت نفسي فجأة فوقه ولست أعرف كيف حدث ذلك. أظنه ركناً من غرفة المكائن، فهناك الكثير من مقابض التشبث في كل ناحية.»

«نعم حتماً إنه جزء من غرفة المكائن.» أكد ستانيسلاف تفسيري «لحسن الحظ أن أجزاء من السفينة مصنوعة من الخشب. في السفن القديمة كنت ترى صبي السفينة يتسلق الصارية ويتمسك بها والتي تصبح قارب نجاته، لكن انتهى ذلك العهد فالصواري اليوم كلها من المعدن ولو تمسّكت بجزء منها فكأنما تربط بذلك حجراً ثقيلاً على جسدك.»

«يالك من ثرثار يا رجل ونحن في هذا الحال.» عقبّت على كلامه منتقداً.

«وماذا تريدني أن أفعل هه؟ أن أندب حظي وأنتحب؟ من يعلم إلى متى يمكنني أن أتكلم وأقول انه لا يجوز الاعتماد على صواري السفن، ويجب أن أثبّت هذا الشأن المهم. لكن المهم أكثر أننا نجونا لحسن الحظ.»

«اصمت بحق السماء، وأجّل شعورك بالفرح إلى أن تصبح على اليابسة. وحين تفعل ذلك فافعله بسكون وصمت، لذا كف عن الزعيق أيها البروليتاري الرّث؟» أجبته بحنق.

«وما الفائدة من ذلك، فكل شيء صار سواء، سيّان، كل شيء هباء وهراء.» أجابني مستسلماً.

لا يمكنك مقارعة ستانيسلاف باستخدامه للألفاظ والكلمات والمجادلة، لكني اعترضت على كلامه:

«تقول أن الأمر سيّان؟» كررت قوله بغضب **«إنه ليس كذلك قطعاً، فهذا تفكير غبي، لا شيء سيّان. فالمتعة قد ابتدأت للتو فلحد الآن كان همّنا الوحيد هو الحصول على الأوراق والحصول على لقمة العيش و تدبّر أمر يومنا. أما الآن فالأمر يتعلق بحياتنا، بأن نظل بين الأحياء نتنفس الهواء. كل شيء يمكن للإنسان أن يمتلكه قد ذهب ولكن ما بقي لنا هو شعلة الحياة، الهواء الذي نتنفسه، ولن أتخلى عنه بهذه السرعة وقطعا ليس طواعية يا صاحبي.»**

«تصوّري للمتعة مختلف عما تقول يا بيبه.» قال ستنانيسلاف.

«لا تكن جاحداً للنعمة يا لافيسكي، دعني أخبرك إنها متعة جهنمية أن تتصارع مع الأسماك من أجل اللقمة وذلك حين تكون أنت نفسك تلك اللقمة.»

بالتأكيد كان لافيكسي محقاً في كلامه، إذ لم يكن حالنا ممتعاً وأصابعنا متجمدة من التشبث بالنتوءات كي لا يجرفنا الموج ونظل ثابتين على اللوح العائم رغم الغطس المتكرر.

«أظن علينا أن نقوم الآن بأمر.» قلت لصاحبي **«ذراعاي مثخنتنان بالجراح ولم أعد قادراً على استخدامها.»** فأجابني صديقي **«هل تريد أن أربطك، هيا خذ**

الحبل وأعطني كرة الخيوط. يمكنني تحمّل الوضع.»

ساعدني ستانيسلاف على ربط جسدي بالحبل فذراعاي كانا مخدرّين ثم قام بربط نفسه بالخيوط وهكذا استرخينا بعض الشيء ولم يبق أمامنا سوى الانتظار.

لا يمكن لأي ليل مهما طال أن يكون أطول من أن يجلوه النهار. مع اليوم الجديد الذي انبثق هدأت العاصفة لكن الموج ظل عالياً.

«هل تلوح لك بعض من اليابسة؟» سألني ستانيسلاف.

«لا. كنت أعلم مسبقاً أن زمناً سيمر قبل أن نرى أرضاً.»

«اسمع، في جيبي البوصلة التي وجدتها أنت في قمرة القبطان لحسن الحظ» صاح فجأة متذكراً.

«نعم، البوصلة ممتازة يا لافيسكي. سترشدنا إلى إتجاه الساحل الافريقي. لكني أفضّل عليها شراعاً الآن.»

«لا فائدة من الشراع وأنت تطوف على لوح.» أجابني.

«لم لا؟ فحين تهب نسمة باتجاه اليابسة فسوف تسحبنا معها.»

«لكنها قد تسحبنا إلى مكان آخر يا بيبه.»

في العصر نزل الضباب الذي جعلنا نشعر ببعض الهدوء بعد ضجيج العاصفة والموج وبدا البحر الفسيح صغيراً شيئاً فشيئاً، ثم صرنا نتوهم أننا نطفو على سطح بحيرة صغيرة ثم صارت البحيرة أصغر وأصغر وأخيراً اعتقدنا أننا ننزلق على نهر صغير وبدت ضفافه قريبة نكاد نلمسها بأيدينا، وقبل أن نروح في إغفاءة ردد كلانا «هذه هي الضفاف لننزل إلى الماء ونسبح هذه المسافة القصيرة إليها، أستطيع أن أراها جيداً. ليس سوى مائة خطوة كي نصلها.»

لكننا كنا مرهقين لا نقوى على فك رباطنا ونسير تلك الخطوات القليلة. صار كلامنا قليلاً ثم نمنا.

حين أفقنا من النوم كان الليل قد هبط. الضباب الندي كان مازال مخيّماً على البحر، لكن فوق رؤوسنا كانت النجوم تلمع في السماء ورأيت ضفتي النهر الذي كنا ننساب بيسر عليه، ثم صار الضباب يتلاشى عند أحد الضفتين وبدت آلاف الاضواء في الميناء القريب تلمع في الظلمة. كان ميناءً كبيراً فيه بنايات عالية، ناطحات سحاب وبيوت متناثرة مضاءة نوافذها و يجلس خلفها ناس يتسامرون ولايعرفون أن رجلين ميتين ينسابان بهدوء على النهر.

صارت ناطحات السحاب والبنايات العالية تكبر وتكبر حتى لامست السماء، وصارت أضواء الميناء وبيوته الأليفة وبناياته كالنجوم اللامعة. في السماء فوق رأسي التقت ناطحات السحاب ببعضها ورأيت الضوء خلف شبابيكها. كان شوقي هو شوق الميت وتوقه إلى أن يوارى جسده الثرى، أن يستكين ويسكن الأرض الثابتة فلا يعود عليه التجول والترحال. شعرت بالخوف فناديت «**يا ستانيسلاف انظر. هذا ميناء كبير يشبه نيويورك.**»

صحا ستانيسلاف وتلفت حواليه ورأى الضباب الخفيف عند ضفتي النهر وفرك عينيه ورفع رأسه نحو السماء، وقال «**أنت تحلم يا صاحبي. فضوء الميناء ليس سوى ضوء النجوم، وهذه ليست ضفافاً، نحن في عرض البحر، ألا تشعر بالموج تحتنا يابيبه؟**»

أيقظني العطش والجوع. جاء نهار آخر.

نظر الي ستانيسلاف من خلال عينيه المتورمتين. وجهي تيبّس من الماء المالح ورأيت صاحبي يكاد يختنق بلسانه اليابس. في عينيه لمحت غضباً متقداً وسمعت صوته الخشن يقول لي معاتباً «**كنت تعيب على اليوريكه وتقول إن**

ماء الشرب فيها نتن وذو رائحة كريهة. تلك كذبة كبيرة. كان ماء سلسبيلاً من عيون الماء الصافية في غابات أشجار الصنوبر.»

«لم يكن للماء رائحة كريهة.» أكدت بدوري. **«الماء كان هو نقاوة الثلج الذائب والقهوة كانت رائعة لذيذة. لم أتحدث بالسوء يوماً عن القهوة على اليوريكه.»**

أغلق ستانيسلاف عينيه لكنه فزّ بعد وهلة وصرخ **«إنها الخامسة إلا ثلث، هيا يا بيبه انهض وأجلب الفطور وارفع الرماد لكن الفطور أولاً، بطاطا مسلوقة وسمك مملح والكثير من القهوة واحضر معك الماء أيضاً.»**

«لا يمكنني النهوض.» أجبت **«أنا تعبان، عليك أن تشتغل وترفع الرماد بمفردك. لكن أين هي القهوة؟»**

«ما هذا؟» سأل ستانيسلاف لكن صوته صار بعيداً جداً عني. صوتي هو الآخر صار بعيداً عني.

أبواب الأفران في المراجل الثلاثة تعطلت وباتت مفتوحة، وصار الجمر الحي يتطاير خارجاً منها. لم أعد أحتمل الحر الخانق.. أسرعت الخطى إلى فتحة النفق كي أحصل على الهواء لكن رفيقي عامل الفرن الإسباني صرخ بي **«يا بيبه، أغلق أبواب الفرن بسرعة فإن ضغط البخار ينخفض، ينخفض. هيا اقفز وابتعد يا بيبه فإن انبوب الرماد ينهار وسيسحق جسدك.»**

صارت الأشياء تنهار حولي وبخار الماء الحار ورذاذه يتطاير من الأنابيب ويسلخ جلدي عن لحمي، حاولت الوصول إلى الماء الذي نستخدمه لإطفاء الجمر فأردت شرب ذلك الماء العكر لأني كنت عطشاناً لكنه كان مالحاً جداً. أردت إغلاق أبواب الأفران لكنني لم أستطع لأنها كانت ثقيلة فتركتها مفتوحة. كانت أشعة الشمس تحرقني وأنا ممدد على لوح وأغرف بيدي ماء البحر أشربه.

تعبت من محاولة إغلاق ابواب الأفران فنمت. عامل الفرن صار يرش الماء على الجمر لكن الماء لاحني أيضاً فصحوت فزعاً ورأيت موجة تضرب اللوح الذي يحملنا.

«تلك هي اليوريكه، هناك» صرخ ستانيسلاف وهو يشير بذراعه إلى البحر الواسع **«تلك هي سفينة الموت. هذا هو الميناء والنرويجية راسية، عليها ماء مثلج، ألا تراها يابيبه؟»**

«أين هي اليوريكه؟» سألت.

«هناك، الا تراها؟ هنا ترسو أمامك. اللعنة، سقطت ستةّ قضبان ساخنة، خذ حذرك. أين هي القهوة؟ هل شربتها وحدك يا بيبه؟ هذه ليست قطعة صابون، إنها زبدة، هيا ناولني الشاي، هيا.»

صار ستانيسلاف يشير بذراعه في اتجاه آخر ويعود يسألني إن كنت أرى اليوريكه راسية في الميناء الذي يراه أمامه.

لم أعد اهتم. كنت أشعر بالألم في رقبتي وأنا أدير رأسي أبحث عن الميناء واليوريكه.

«سوف نصعد، سوف نصعد.» صاح ستانيسلاف. **«يجب أن نصعد الآن إلى اليوريكه، سقطت كل القضبان الحديدية، عامل الفرن مغمى عليه في غرفة المرجل. أين الماء؟» ألم تتركوا لي بعض القهوة؟ يجب أن أمر، دعوني أمر.»**

صار يفك الخيوط عن جسده لكنه عجز عن فك العقدة فصار يتقلب كالمجنون وتداخلت الخيوط فصار يصرخ **«أين الرفش؟ يجب أن أفصل الحبال.»** ظل صاحبي يفك نفسه من الخيوط حتى تخلص منها.

«هيا أسرع اليوريكه تغادر يا بيبه. النرويجية عندها ماء مثلج، الرفاق عليها يلوحون لي بإناء الماء البارد، سأذهب إليهم، فلن أبقى على سفينة للموت.»

صار صاحبي ينزلق رويداً رويداً نحو الماء، قدماه وحدهما كانتا متمسكتين باللوح تحتهما. كنت أرقبه عن بعد إذ تفصلنا أميال عن بعضنا. صار بعيدا ولكني سمعته يصيح:

«هذا هو قبطان اليوريكه يلمس قبعته تحية لنا، تعال يا بيبه، يوجد خبز بالزبيب وشاي وماء.»

رأيت اليوريكه راسية، رأيتها بوضوح وبدأت أنزع عني الحبال لكني لم أتمكن من فتح العقد، فناديت على ستانيسلاف أن يساعدني لكنه كان مشغولاً ولا وقت لديه. صار الدم ينزف مجدداً من جروح ضربة الرأس لكن صاحبي لا يبالي بأمري.

حاولت أن أفك قيودي وأنزع الحبل عن جسدي، لكنه كان يتداخل ولا أستطيع منه فكاكاً، فأصابني الغضب العارم.

حرر ستانيسلاف قدميه فاستدار نحوي وصاح **«تعال إلى هنا يابيبه، مجرد خطوات قليلة تمشيها، هيا انهض، قم وارفع الرماد.»**

«هذه ليست اليوريكه، هذه ليست اليوريكه.» صرت أصيح.

أصابني الهلع فتمسكت بالحبل لأن اليوريكه قد غادرت ولم أعد أرى سوى البحر الواسع، البحر وأمواجه وليس سواه.

«يا ستانيكوسلوف لا تقفز» بت أصرخ **«لا تقفز لا تقفز، ابق هنا.»**

لكنه قفز، قفز وما من ميناء وما من سفينة ولا من ضفة. لا شيء سوى البحر.

لم يسبح سوى لثوان قليلة غرق بعدها واختفى إلى الأبد.

«يا لافيسكي، يا صديقي يا أخي يا رفيقي الغالي تعال اليّ، تعال هيا هيلا هوب هيلا هوب.»

لكنه لم يسمعني ولم يخرج من الماء.

لم يعد صديقي، لا ميناء، لا يوريكه، لا ضفاف، لا سفينة موت، لا شيء يا سيدي.

عجباً! لم أره يخرج مجدداً. ربما وجد عملاً على سفينة تبحر إلى مكان بعيد. ولكن كيف له أن يفعل ذلك، فلا أوراق لديه، وحين يكتشف القبطان ذلك سيطرده فوراً.

لكنه لم يظهر، لم أعد أراه فقد أخذه القبطان الكبير معه حتى دون هوية ولا بطاقة بحّار ولا جواز سفر وقال له **«تعال يا ستانيسلاف كوسلوفسكي، تعال فأنا سأكتب اسمك بكل شرف واحترام في سجل السفينة لتسافر معنا في رحلة بعيدة، هيا إذهب إلى المهجع، لكن هلا قرأت أولا المكتوب أعلى بابه؟»** وستانيسلاف يجيب:

«نعم يا سيدي، نعم»



رغم كثرة الكتب والدراسات والأطروحات فإن الحصول على معلومات واضحة وجازمة حول المؤلف ب. ترافن يظل مهمة صعبة، إذ حرص الرجل في حياته على عدم إجابة الأسئلة التي تتعلق بشخصه وحياته، ومازال الباحثون المعنيون ومؤرخو الأدب حتى اليوم غير متأكدين تماماً من حقيقة اسمه وتاريخ ومكان مولده! لذا، لا سبيل سوى الاعتماد على التكهنات والاجتهادات التي وردت في الكتب الكثيرة التي حاولت أن توثّق مسيرة الرجل وحياته، والتي تقول أنه ألماني - حيث ظهر اسمه لأول مرة في الصحافة الألمانية عام 1927 باعتباره كاتباً ألمانياً، الأمر الذي اعترض عليه بشدة ورفض اعتباره واحداً منهم! فقد تنكّر ترافن لجنسيته وانتمائه القومي فوّفر للصحافة في حينها مادة خصبة للإشاعات والأقاويل وحتى الأساطير. كما يؤكد مؤلف كتاب «ترافن، سيرة ذاتية» رولف ريكناغل الذي يقال عنه أنه المختص الوحيد الذي أثبت بالدليل أن ريت ماروت، الفوضوي الألماني والممثل المسرحي، هو نفسه الكاتب ب. ترافن. لكن هناك من يقول إن ريت ماروت هو بدوره اسم مستعار لشخص يدعى أوتو فايغه.

«سفينة الموتى» مرثاة لمفهوم الحرية الغربية التي هي، رغم كونها إبنة التنوير والثورة الفرنسية، لكنها باعتبارها في الأساس حرية لحركة رأس المال، فإن مفاهيم مثل المساواة والأخوّة تصبح هامشية وقابلة للتساؤل والشكوك بالنسبة لترافن في الأقل.

في النهاية لا يبقى أمامنا إلا أن نسلّم أن ترافن كان يسعى، ربما عبثاً، وراء حرية من نوع آخر في عالم طوباوي وجد الجرأة على الحلم به والدعوة إليه عبر أدبه جهاراً، حرية لا تتعارض مع مبدأ العدالة أو مع ما ينادي به من مبدأ للأخوّة - إذ ليس من قبيل الصدفة أنه ينهي روايته حيث البحار الشاب يودّع رفيقه ستانيسلاف الذي ضاع أمامه منادياً أياه **يا أخي**.


ISBN: 978-614-02-1013-4



منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com